هدية العدد

مارس ٢٠١٦

نهد الأرض

ABU ABDO ALBAGL

د.أحمد برقاوي

5075

كتاب

دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار ١٤٦

د. أحمد برقاوي

نهد الأرض

■ الطبعة الأولى، مارس ٢٠١٦
■ حقوق الطبع محفوظة لدار الصدى

المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مدير التحرير
نواف يونس

متابعة
يحيى البطاط
محمد غبريس

المدير الفني
أيمن رمسيس

الإخراج والتنفيذ
محمد سمير

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن
الصدى
دار الصدى للصحافة والنشر

عناوين المجلة
www.dubai-althakafiya.com
www.alsada.ae

■ التحرير والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩ /٩٧١٤+
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/٩٧١٢+

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/٩٧١٤+

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/٩٧١٤+

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

قراءنا الأعزاء، يسعدنا ويشرفنا في مجلة «دبي الثقافية» أن نتواصل معكم من خلال هذا الإصدار «نهد الأرض» للكاتب والناقد الدكتور أحمد برقاوي، محاولين التواصل مع جميع قراء مجلتنا على رغم الصعوبات التي يمر بها عالمنا العربي وهو يعيش هذه المرحلة الجديدة من تاريخه.

وها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد، وكل ما نتمناه من قرائنا الأعزاء هو التواصل معنا، وإتحافنا بآرائهم

وملاحظاتهم حول هذه الإصدارات التي نقصد بها خدمة الثقافة العربية، والتعريف برموزها، راجين إيجاد العذر لنا عند وجود أي تقصير.

والله من وراء القصد

تقديم

لم أعش تجربة اختيار عنوان لكتبي أصعب من تجربتي في اختيار عنوان هذه السيرة- سيرة رحلتي إلى الوطن وعودتي.

فالفكرة في كتبي فلسفة كانت أم شعراً سرعان ما تظهر في العنوان.

غير أني الآن أمام كتاب من نمط جديد يتحدث عن تجربة معيشة. وكل لحظة من لحظات التجربة هذه يمكن أن تكون عنواناً، بل إن اليوميات هذه كانت تتصارع فيما بينها لاحتلال أرض العنوان.

وكيف لي أن أتدخل وأنا هي هي، فأنا لست منعزلاً أبداً عنها.

لقد تهت إلى الحد الذي طلبت فيه المساعدة، غير أن أحداً لم يخلق لدي الموافقة بجدوى مساعدته.

كان السؤال الذي طرحته على نفسي: كيف أختار عنواناً دالاً على كل الأمكنة والمشاعر؟ وكيف لي أن أختار عنواناً ينال إعجابي؟.

كان الجواب عن سؤال كهذا مستحيلاً. فقزّمت مرادي إلى ما هو أقل من ذلك: البحث عن عنوان يعبر بشكل تقريبي عما أريد.

فاخترت «نهد الأرض»

نهد الأرض هي فلسطين التي أرضعت البشرية حليب حضارةٍ لا ينفد.

إني لست راضياً عن هذا العنوان. كان قد عنَّ على خاطري أن أسمي كتابي هذا بين قبرين. وأقصد قبر «أبو عمار» وقبر «محمود درويش»، لكنه عنوان لا يدل على أحد عشر يوماً من الحياة.

اخترت أول ما اخترت عنواناً يقول: «دمعي وذنابة» وذنابة هي مسقط رأس والدي وحيث بيتنا الذي طالما تخيلت العودة إليه وأنا الذي لم أعرفه ، لكن شوفة وكفر اللبد وطولكرم أماكن لا تقل أهمية بالنسبة لي عن ذنابة.

ففي شوفة يرقد الجد الأول الشيخ ناصر البرقاوي، وشوفة هي موطن جدتي الشيخة لولو. وقس على ذلك، كفر اللبد وطولكرم.

لقد ترددت في تسمية يوميات هذه «الرحلة إلى رام الله» لكن رام الله شكلت لي واحدة من الأماكن العديدة التي زرتها.

أفكار كثيرة خطرت لي، وأخيراً اهتديت إلى هذا العنوان.

أشكر كل من أسهم في حصول هذه الرحلة – العودة إلى الوطن وهم لكثرتهم أخشى أن أنسى أحداً منهم. لكني أخص بالذكر الصديق إسماعيل التلاوي.

تداعي

- ١

أقف أمام النافذة أتأمل جموع شباب مصر التي تكر وتفر من شارع التحرير إلى مكان قريب من قصر عابدين.

الدخان المسيِّل للدموع يخترق نوافذ البيت الذي أسكن والمطل على الشارع، ودموعي تسبح في عيني وأنا أبتسم فرحاً.

فمنذ اليوم الأول من انتفاضة تونس شعرت بأني أولد من جديد، ورحت أكتب المقالات من وحي الانتفاضات العربية وهي انتفاضات الكرامة ضد فاقدي الحياء وسرّاق الزمن. عدد لابأس به من الشباب محمول بين الأيدي وهم يعانون من الإغماء.

رن جرس هاتفي النقال: إنها نبيلة.

– أحمد وصلتك دعوة من رام الله لحضور المهرجان التربوي الثقافي الفلسطيني، واللجنة المنظمة طلبت صورة عن جواز سفرك.

كان وقع الخبر علي غريباً فهو أشبه بالمزاح، كما أنه شحذ فيّ الرغبة التي لم تغادرني أبداً في رؤية فلسطين، فضلاً عن

أن دون الذهاب إلى فلسطين صعاب من المتعذر تجاوزها.

– على أية حال دعي إيهاب يرسل لهم صورة عن الجواز، فلربما يتم الأمر، من يدري.

خرجت إلى الشارع باتجاه ساحة طلعت حرب، القاهرة – التي نادراً ما تمطر– راحت تداعبني بقطرات مطر خفيفة.

خبر ومطر، وأنا أسير أتأمل الهاربين من الغاز المسيل للدموع، وبعض المتسولين، والباعة المفترشين الأرصفة، وأمر من بين السيارات التي لم تعد تلتزم بأية قوانين مرورية.

ورحت أحدث نفسي: دعوة إلى فلسطين. أية مفارقة أعجب من هذه المفارقة. أنا الفلسطيني القح أُدعى إلى فلسطين، بل وإلى الضفة الغربية بالذات حيث تقع بيوتنا في قلبها، في طولكرم وقراها.

منذ رأيت بيوتنا – أي بيوت آل البرقاوي وقصورنا على شاشة الإنترنت – وأنا دائم الحلم.

آه.. كم مرة حلمت في النوم أني في فلسطين وأني أقترب من بيتنا في ذنابة.. أذكر أني رأيته في الحلم وكان قريباً جداً من صورته في مواقع الإنترنت.

أحمد برقاوي – الفلسطيني القح – يدعى إلى فلسطين. الفلسطيني البرقاوي الذي يعود في الأصل إلى طولكرم وإلى

ذنابة نسبة إلى الأب وإلى يافا نسبة إلى الأم، يدعى إلى فلسطين ويحتاج إلى صورة جواز سفر ليرسلها إلى العدو ليوافق على مجرد زيارة إلى مدينته وبيته ووطنه.

والحق أني لاجئ خاص، أحمل وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين المقيمين في سوريا. كما أحمل هوية مؤقتة. البلد الأصلي- ترشيحا. ترشيحا التي كان يعمل بها والدي وخرج منها إلى دمشق.

بلدي طولكرم - ذنابة. وبيتي هناك، وأقربائي في ذنابة وشوفه وكفر اللبد وياصيد وطولكرم، وترشيحا هي المكان الذي جاء منه أبي إلى دمشق- الهامة لنمضي الربيع والصيف ريثما تنتهي الحرب في فلسطين.

كيف حصل وأن صرت لاجئاً بسبب لجوء أبي، البرقاوي الوحيد الذي يحمل وثيقة لاجئ.

حدثتني والدتي فقالت:

«كان ذلك في أيار ١٩٤٨ انتقلنا من ترشيحا إلى الحمة حيث كان الوالد يعمل في سلك البوليس. ومن الحمة أشار أحد الضباط السوريين - صديق والدك - على أبيك أن نذهب لقضاء الصيف في الهامة حيث الماء والخضرة والطقس الجميل. وهكذا كان. لقد انتظرنا في الهامة سنتين حتى نفدت

كل نقودنا ثم انتقلنا إلى دمشق حي المهاجرين.

كنا نظن أن الرحلة إلى دمشق مؤقتة ومضت السنون وها نحن مازلنا ننتظر.

ولكن لماذا لم تعودوا إلى طولكرم، وطولكرم لم تقع تحت الاحتلال، تبتسم أمي وتجيب: «أنا ابنة يافا ولا أستطيع العيش في طولكرم. دمشق أقرب إلي من ذنابة فاخترت الإقامة في دمشق، وما كان من والدك إلا أن سجلنا في عداد اللاجئين.. وهكذا كان».

بين أبي وأمي فروق ثقافية لم تُزل أبداً وقد عشناها نحن الأولاد.

أمي: بديعة محمد أديب الجغليط البسطامي من يافا. والدها شهبندر تجار يافا الذي يستورد الأغنام والسمن من سوريا، أرستقراطي مدني، وصورته توحي بذلك، طربوش وشاربان معقوفان، وربطة عنق بخطوط مائلة بيضاء وسوداء، ونظرات في منتهى القسوة، وأمها رئيسة الشرقاوي وهي الزوجة الثالثة التي تصغر زوجها بثلاثين عاماً. وتقول القصة إن والدها أراد رئيسة زوجة لابنه الأكبر أديب، ولكن أعجب بها وأخذها لنفسه.

كانت أمي كثيرة الحديث عن أبيها بإعجاب وحب منقطع

النظير ولم تكن تذكر أمها أبداً. رغم أن لها أخاً اسمه النمر من مومس. وكيف لاتحب أباها وهو الذي خرق كل الأعراف وأرسلها إلى المدرسة المسيحية أولاً ثم أرسلها إلى القدس لتدرس في دار المعلمات وتتخرج فيها معلمة، عملت أول ما عملت معلمة في مدرسة الزهراء في يافا ومقدمة برامج أطفال في إذاعة الشرق الأدنى.

أمي هذه تحفظ القرآن، وآلاف الأبيات من الشعر العربي وتتحدث الإنجليزية بكل طلاقة وتكتب بها، وتعزف على البيانو، أمي هذه كانت أهم لاعبة كرة سلة، ومثلت دور قيس في مسرحية قيس وليلى في دار معلمات القدس.

وأنا لا أعرف أمي إلا مجموعة من الذكريات مع والدها وفي القدس ويافا.

ابنة يافا هذه ليست باستطاعتها العيش إلا في المدينة من جهة، ولاتريد العودة إلى بيت ذنابة من جهة أخرى، مع أنها كان يمكن أن تعمل في القدس. المهم أنها فرضت على والدي البقاء في سوريا وتحويله إلى برقاوي لاجئ.

أما الأب: نسيم عبد الله أحمد عبد الله موسى مصطفى خليل ناصر عبد الله البرقاوي – كما يسلسل أبي مفتخراً بنسبه– فهو وحيد أبيه، الذي توفي وترك الطفل نسيم وعمره سنوات

خمس، فربته أمه الشيخة لولو بنت الشيخ رشيد البرقاوي.

والدي سليل العائلة الإقطاعية التي حكمت منطقة وادي الشعير منذ القرن السادس عشر حتى الاحتلال البريطاني لفلسطين، حيث انتهى نفوذها كباقي العائلات الإقطاعية الكبيرة كآل جرار وطوقان وعبد الهادي.

ترسل لولو ولدها إلى المدرسة الأحمدية في عكا ليتعلم الشريعة الإسلامية، كمقدمة لإرساله إلى الأزهر ويعيد سيرة جده الشيخ أحمد الذي اختار الزعامة الدينية بدل الزعامة السياسية.

بعد أن ينهي نسيم الدراسة في عكا يدخل دون أن تدري أمه مدرسة البوليس في القدس ليستعيد سيرة أبيه عبد الله الذي كان في الجندرمة العثمانية، مشهوراً بقسوته.

ومن الطريف أن أبي وحيد أبيه وأباه وحيد جده، ولشدة اعتداد أبي بانتمائه سمى أخي الأكبر عبد الله وسماني أحمد.

وفي الوقت الذي كانت ثقافة أمي مدينية- أرستقراطية حداثية كانت ثقافة أبي كلاسيكية، ومن الطريف أن كليهما قد وصلا إلى الإلحاد.

كانت أمي قاسية المظهر والمبنى إلى حد استخدام العنف، فيما كان الوالد هادئاً لطيفاً لم يستخدم أبداً في حياته العنف مع الأولاد.

في عام ١٩٥٢ تعيَّن الوالدة مديرة مدرسة في نوى والوالد يعمل أستاذاً للتربية الدينية، لكنه كان قد انتسب إلى حزب البعث العربي عام ١٩٤٩.

حين سمعت أمي أن تعيينها قد تقرر مديرة مدرسة في قرية نوى راحت تجهش بالبكاء، فهي التي اختارت دمشق مكاناً للعيش كيف يمكنها أن تعيش في حوران، بخاصة أيام ذاك الزمان.

قال لها مسؤول في وزارة التعليم آنذاك: يا ابنتي إن هي إلا سنة واحدة وستعودين إلى دمشق، حيث اعتبرناك دمشقية ومن الواجب أن تمضي سنة في الريف، ونوى هذه أفضل قرية في حوران.

يبدو أن وعي أمي وأبي آنذاك لم يكن وعياً صحيحاً بحقيقة الغربة، لم تكن سوريا بالنسبة لهما عالماً آخر، بخاصة أنهما يمتلكان حقوق السوريين، كما يبدو لي من خلال سلوكهما أن الأمل بالعودة إلى فلسطين لم يغادرهما.

مديرة مدرسة وأستاذ تربية لاجئان دون شعور بالدونية أبداً، وكيف يشعران وهما محاطان بكل اهتمام وتقدير ومتميزان عن أهل القرية في كل شيء: في عادات الأكل والزي وأثاث البيت...إلخ.

حين كانت الهامة تظهر أنوثتها وتضج بالأخضر شهر

نيسان ولدتُ في التاسع والعشرين منه عام ١٩٥٠ الساعة الثالثة صباحاً كما رُوي لي. و كان اسمي جاهزاً سلفاً. فحين قيل لأبي وهو في الغرفة الثانية من البيت الريفي المحاط بالبساتين.. مبارك قال أعرف لقد جاء أحمد. أبي لا يكف عن ذكر جده الذي عاش بعد وفاة أبيه ويكن الحب لجدته التي يتحدث عنها بكل حب وهذا ما نعرفه عن علاقته بالأسرة وعن حياة طفولته.

نادراً ما كان يحدثنا عن حياته الخاصة، بل كان دائم الحديث عن سيرة العائلة وأمرائها وقسوتها وثرائها.

فيما كانت أمي لا تمل ولا تكل من الحديث عن حياتها الخاصة في المدرسة في دار المعلمات، حتى أننا حفظنا عن ظهر قلب أسماء مدرساتها الإنجليزيات ومفتشي دار المعلمات وأسماء صديقاتها.

أحمد: أنا الذي ارتبطت طفولته بفلسطينيته وبحال لجوئه كان شديد الحساسية تجاه فلسطين المقدسة بالنسبة له.

لا أستطيع أن أحدد بدقة متى عرفت أني فلسطيني، لكني أذكر ذلك جيداً حين سألني المفتش وهو في زيارة إلى المدرسة ما اسم بلدك قلت له فلسطين. كان ذلك وأنا في الصف الأول الابتدائي عام ١٩٥٧.

أما كيف عرفت أني لاجئ فهذه قصة تراجيدية.

لقد أحسست بالاختلاف عن أهل القرية- نوى، لهجتي، لباسي، نمط الحياة في البيت، ليس لي أولاد عمومة أو أقارب يدافعون عني حين الشجار. ففي عالم القرية حيث الانتماء العشائري تكون محاطاً بما يسمى بـ «الفزعة» أما أنا فليس لدي فزعة.

وفي أحد الشجارات شتمت بـ «اللاجئ» وكان أهل القرية يلفظونها «اللاجي» ثم استمرت الشتيمة بـ «اللاجي» لكن «اللاجي» كانت تعني أني فلسطيني ولا ضير في ذلك، ولم أفهم لماذا هي شتيمة أصلاً، ومع ذلك كنت أشعر بالإهانة.

دخل أخي الأكبر- مرة - إلى البيت وجهه أحمر وأذنه منتفخة لم تتمالك أمي نفسها وهي ترى ابنها الأعز والأحب في حالة كهذه.

- من ذا الذي فعل بك هذا..؟

- ضربني ابن الجيران بحجر وحين ذهبت لأشكوه إلى أمه أجابت: «بسيطة روح أنت لاجي ليس لك دية أو عزوة تطالب بدمك»، لم أكن قد بلغت الثامنة آنذاك.

إذاً «اللاجي» هو الضعيف الذي لا أحد «يفزع» له كنت طفلاً عنيفاً جداً. وكان جميع الأطفال يتهيبون الشجار معي. كنت

أمارس الضرب باليد والحجر دون أن أحسب حساباً للنتائج. بل وكنت معتدياً في أكثر الأحيان.

تسللت من البيت خفية ولبست معطفي الفروي وذهبت إلى بيت «أبو خليل» البيت الذي ضرب أخي الأكبر عبد الله، لقد حاصرت جميع أفراد العائلة في بيتهم ورحت أرميهم بالحجارة حتى حطمت زجاج نوافذهم وتركت آثاراً على خشب بابهم ولم يستطع أحداً أن يخرج من البيت لمشاجرتي.

وعندما أفرغت كل غضبي ابتعدت ورحت أنتظر أن يخرج خليل لكي أمزقه، وكان هذا الطفل والذي هو في عمري يهرب مني كلما رآني، ولكن أين سيهرب، فأنا ألاحقه لأتصيده لا محالة.

شاهدته مرة يرعى غنمه في الكرم المقابل لبيتنا، كان وحده، وكما يتهيأ الوحش الضاري لاصطياد فريسته ودون أن ألفت انتباهه انقضضت عليه ولم أعرف كيف جاء أخي الأصغر ولحق بي. لم تمض دقائق إلا وصار جسده أزرق وآثار أسناني وعصاي على كل أنحاء جسده، وفجأة جاء أبوه وحملني بين ذراعيه ورماني على الأرض بشدة، وهمّ لضربي فرميته بالحجارة وهربت إلى البيت، فلحق بي ومعه ابنه وحين خرجت له أمي قال لها: «يا أم عبد الله انظري ماذا فعل أحمد..» لم تستطع لهول المشهد أن تجيب، وكنت أراقبهم بكل

شعورٍ بالرضى.

حضور صفة اللاجئ في حياتي اليومية أقوى من حضور الفلسطيني، بل أنا لاجئ فلسطيني، شعور بالنقص يلاحقني من كلمة لاجئ.

يمكن لأية مشاجرة أن تنتهي بشتيمة لي «لاجي»، بل أصبحت لدى أهل نوى شتيمة متداولة هي بمثابة السخرية من شخص ناقص « وجهك مثل وجه اللاجي».

لم يتردد أبداً صديق والدي مختار القرية من شتم أخي الأكبر بقوله: «لاتنسَ أنك لاجئ وعليك أن تكون محترماً وإذا تجاوزت حدودك فعليكم بالرحيل».

«لاجي» كلمة- شتيمة لا أثر على أجسادنا، لا تظهر في قسمات وجهنا، لاشيء يقلل من وقع هذه الكلمة علي. دعك من التفوق والعنف والعنجهية والفخر بالانتماء كل هذا يُسرق منك حين يعيرك شخص ما بأنك لاجئ.

وليس من المصادفة أبداً أني وأنا أكتب هذه التجربة الوجودية تعرضت لاعتداء من شخص جاهل يحمل درجة الدكتوراه كلفت لتقويم إنتاجه العلمي واعتذرت كي لا أؤذيه لأن إنتاجه لا يؤهله لأن يكون معلماً في مدرسة ابتدائية حين أنهى كلامه: «أنا على كل حال أقف على أرضي وأعيش على أرضي».

حين تشاجرت أنا وأحد مدرسي الفلسفة وهو من عداد المخبرين قالها بكل وقاحة: «لاتنسَ أنك لاجئ وعليك احترام البلد».

لن أنسى أيام ربيع دمشق حين جاءني فيصل كلثوم- وكان حينها نائب رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية التابعة لجامعة دمشق- وقال لي:

«أبلغكما رسالة لك وليوسف سلامة مفادها: أنتما فلسطينيان، اهتما بقضيتكما- فلسطين ودعوا الشأن السوري وإلا».

في مرحلة بداية الثورة الفلسطينية وازدهارها نظرنا إليها بوصفها تحرراً من اللجوء، البندقية حبل نجاة.

في عام ١٩٦٥ صرت واحداً من الذين يوزعون بيانات فتح في القرية والتي كان يزودني بها لاجئ من مخيم درعا اسمه غازي حسين.

التحرر من اللجوء هو الذي دفعني لأن أترك الدراسة وألتحق بمنظمة الصاعقة.

بولادة الثورة ولدت مفاهيم جديدة دالة على الفلسطيني: الفدائي، المقاوم، الفلسطيني يصنع تاريخاً جديداً له، الفلسطيني اللاجئ: شهيد وقائد وثورة وأغنية وموسيقا وملصق.

أنا اللاجئ حاضر بوصفي فلسطينياً في كل النشاطات، بخاصة أيام الجامعة.

هو الوعي الممزق، أن تكون فلسطينياً ومنتمياً إلى فلسطين ويقتلك الأمل بالعودة من جهة، وأن تكون عائشاً في بلدٍ يحتضنك اسمه سوريا. كان الانتماء القومي حلاً لمثل هذا التمزق.

كان الفرق بين وعي أمي بالنكبة مختلفاً عن وعي أبي، وذلك يعود إلى أن أبي كان مطمئناً بأنه قادر على العودة إلى طولكرم المدينة التي لم تحتل في عام ١٩٤٨، لم يكن يعامل ذاته بوصفه لاجئاً، فابن ذنابة يملك بيته التاريخي، أمه هناك أخته هناك، فيما أمي- وهي ابنة يافا- كان يقتلها الحنين إلى هذه المدينة التي ربما لن تراها أبداً.

انشغل أبي في الحياة السياسية- بعثياً صوفياً- فيما أمي انشغلت بالتعليم المهنة الأثيرة لديها.

عاش والدي الحياة السورية بكل تفاصيلها، بل كاد أن ينسى أنه فلسطيني، فيما أمي اغتربت اغتراباً مطلقاً عن سوريا، والحق أنه مهما كانت الحقوق التي نحصل عليها بوصفنا لاجئين سوريين فإن هذا لن يمحو من الوعي أننا نملك وثيقة سفر مؤقتة للاجئين الفلسطينيين.

تُبقي صفة المؤقت حلم العودة إلى فلسطين، لأنها وحدها التي تمنحك الدائم، العودة وحدها تمنحك هوية دائمة وجواز سفر، الوثيقة المؤقتة تزرعك في الزمن الآتي، منذ استقل وعيي بوصفه وعي أحمد وأنا أعيش وجودين.. الوجود المؤقت.. كل الحياة اليومية المعيشة.. والوجود الدائم الذي يتطلب انتظاراً دائماً.

تقترب من الوجود الدائم فهاهي الثورة تنطلق، الثورة تعزز الأمل، «منظمة التحرير الفلسطينية»، «حركة التحرير الوطني فتح»، «طلائع حرب التحرير الشعبية»، «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، «جبهة التحرير الفلسطينية»، «الجبهة العربية لتحرير فلسطين».

التأمل في الأسماء من اسم الممثل الشرعي والوحيد إلى أسماء المنظمات سنجد أن كلمة التحرير حاضرة.

التحرير معارك، فدائي، شهيد، الحرب، الفدائي، الشهيد، يخلق الشاعر والروائي والمفكر والفيلسوف واللاجئ مهما أنسته الحياة وطنه فإن عشرات النواقيس سرعان ما تذكره بفلسطين، تدلل على ذلك تجربتي المعيشة في «نوى» القرية الوادعة المسالمة ذات العلاقات الحميمة، عشت في مرحلة الوعي الذاتي تمزقاً ينام ويستيقظ، فأنا ابن المديرة، وكل طلاب المدرسة الابتدائية يهابون ابن المديرة، فضلاً عن أن

ابن المديرة طفل شرس جداً، أنا ابن الأستاذ وابن المسؤول البعثي منذ عام ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٩.

أهل القرية يغمرونك بالحب والاحترام والامتنان فأهل حوران بعامة ينظرون إلى الفلسطيني بوصفه واحداً منهم، فمنذ سنوات طويلة تعود إلى ما قبل احتلال فلسطين كانت العلاقة بين الحوارنة والفلسطيني علاقة قرابة وعمل. فشمال فلسطين وجنوب سوريا منطقة ذات علاقات قرابة وعادات واحدة ولهجة واحدة. فآل الكفري والمقداد والمحاميد والشرع والزعبي وعائلات أخرى منتشرة في شمال فلسطين وجنوب سوريا.

وقد قامت علاقات زواج كثيرة بين اللاجئين وأهل حوران، فضلاً عن ذلك فإن اللاجئين الفلسطينيين قد مدَّوا أهل حوران بكادر تعليمي كثير، بل كان الكادر الأغلب في مدارس حوران من أهل فلسطين.

رغم كل ذلك فلا شيء يمنع- في لحظة اختلاف- أن ينتفض في وجهك واحد يقول لك: « لاتنسَ أنك لاجئ».

وبالمقابل فإنك- بوصفك لاجئاً فلسطينياً مساوياً للسوري بالحقوق والواجبات- تطالب بحقك دون إحساس بالتمايز والتمييز.

بل إن السوري عموماً يمنحك حباً واحتراماً أكثر مما يجب وينبغي، شعوراً منه بأنه هو المركز في النهاية.

تعرفني كل مدن وقرى سوريا تقريباً، وأحاط بالاهتمام من العامة والخاصة والمسؤولين بسبب مكانتي الفكرية، كل ذلك لا يمنع أبداً أن يصدر عن بعض ممن يسمون بالنخب أو المسؤولين إهانة تذكيرك بأنك لست من هنا.

فيما الشعب البسيط لم يواجهني أبداً بمثل هذه الإهانة، مازلت أذكر ما حصل لي في ربيع دمشق من أحد الانتهازيين الرخيصين.

فأنا في كل أحوالي في سوريا أتصرف بوصفي سورياً، دون أن أنسى أبداً أني ابن القضية الفلسطينية. اشتركت في عشرات المؤتمرات السورية والعربية وكانت البطاقة التي أعلقها على صدري «أحمد برقاوي – سوريا».

في ندوة حول العلاقات السورية– اللبنانية التي عقدت في طرابلس الشام كان الوفد السوري مؤلفاً من ستة أشخاص أربعة فلسطينيين وسوريّين.

ولهذا كنت أول من شارك في ربيع دمشق بدعوة من رياض سيف وألقيت المحاضرة الثانية في منتداه بعد أنطوان مقدسي. وألقيت محاضرة في منتدى جمال الأتاسي، وأخرى في منتدى

حبيب صالح، وتصديت لعبد الحليم خدام على مدرج جامعة دمشق نصرةً لربيع دمشق.

وفي نقاش في إحدى غرف قسم الفلسفة مع انتهازي رخيص قال لي: «لاتنس أنك ضيف في سوريا وعلى الضيف أن يحترم بيت المضيف وعاداته، وبالتالي أنت تتدخل في شؤوننا ولاحق لك في ذلك».

صحيح أني قسوت عليه في الإجابة، وأن الزملاء الحاضرين قد خففوا من وقع ما قال على حين ذهب، لكني شعرت بطعنة مازلت أذكرها بعصبية.

وإذا عرفت أن الذي آذاني هو بالأصل أحد طلابي الذين درستهم لسنوات أربع، ثم صار زميلاً لي في الكلية، وكان يظهر لي الود والحب أدركت وقع ما حصل علي.

لقد أعادتني هذه الإهانة إلى معناي بوصفي لاجئاً، فأنا لا أستطيع مهما دافعت عن حقي في التدخل بشؤون سوريا أن أنسى أني لاجئ، وفي كل الأحوال هو يملك من الحقوق أكثر ما أملك.

وكي لا أحفر في الذاكرة عن الوقائع التي حملتني على أن أظل دائم التذكر أني لاجئ.

سأورد حادثتين أثناء كتابة وقائع هذه الرحلة إلى فلسطين.

سُميت محكّماً لتقويم إنتاج علمي لأحد المدرسين في جامعة تشرين، ولما رأيت أن أعمال هذا المدرس لا ترقى إلى تعيينه بمرتبة أستاذ مساعد، أهملت الأمر لمدة كافية تسمح للجامعة بتسمية أستاذ آخر، مساعدة له لأني إن كتبت فسأكتب تقريراً علمياً يوصي بعدم تعينيه أستاذاً مساعداً. وشاء صاحب القرار أن يبقي التقويم عندي دون تغييري ودون أن أعلم بذلك. إلى أن حملني المدرس لكثرة ما ألح علي بكتابة التقويم على الاعتذار رسمياً عن المهمة بسبب عدم الاختصاص وذلك رأفة به.

وعندما علم بذلك جاءني مزمجراً وقال فيما قال: على أية حال أنا هنا على أرضي ولست مثلك. دكتور آخر وأستاذ جامعي وخريج فرنسا عندما صرحت له بكل وضوح أني لن أكون إلى أي نظام سياسي في الوطن العربي قالها لي دون حرج: « لا تنسَ أننا نحن الذين عيَّناكم في الجامعات نحن الذين أعطيناكم حقوقاً وتبوأتم المناصب والآن تعلنون أنكم لستم مع النظام»!.

هكذا جاء تذكيري بأني لاجئ من ثلاثة أساتذة في جامعة دمشق. وكان لسان حالهم يقول لي أنت لاجئ إذاً أنت ناقص. أمر كهذا لا ينفي إطلاقاً أن هناك عشرات الأساتذة من الزملاء الذين يكنون لي الحب ولا يُشعرونني أبداً في أية لحظة بأني

منقوص الحق، أو ضيف.. إلخ. حتى العالم نفسه يذكرك دائماً بأنك لاجئ فمازلت أذكر تلك الحادثة التي مازالت تعتمل في نفسي قهراً.

حين كنت أحضر الدكتوراه في جامعة لينينغراد- سان بطرس بورغ الآن- كانت تقوم رحلة بالباخرة تنطلق من المدينة إلى عواصم أوروبية منها لندن وباريس. وكانت كلفة الرحلة ١٢٥ روبلاً للشخص، كان جميع الطلبة لهم الحق بالقيام بالرحلة إلا الفلسطيني الذي يملك وثيقة سفر. ذلك أنه نظر إليه في تلك المرحلة ١٩٧٥ على أنه كائن خطير وإرهابي.

وبالمقابل عذابات اللاجئ تمنحك عالماً من الحرية إزاء السلطة العربية لا تتوافر لمواطنيها.

فاللاجئ الفلسطيني مهما التزم بقوانين دولة اللجوء يظل محتفظاً بشعور الطائر. إنه الوحيد الذي يشعر بأن السلطة الحاكمة لا تمثله. بل ينطوي الفلسطيني على شعور بالاحتقار لجميع السُلطات العربية، فكل السُلطات تراه خطيراً، تعقد أمور سفره، وأمور إقامته. رفض السُلطات لك يحملك على قول اللا دائماً، اللاجئ الفلسطيني ابن الحياة والأمل والمستقبل، ابن المكان المؤقت والزمان المؤقت يمتلك شجاعة الوجود وحس المجازفة والمغامرة ولذة الانتظار.

تخفف جمالية الانتظار عن الفلسطيني عنف اللامكان. أجل،

إنها لحالة نادرة أن يعيش شعب متعة الانتظار ويتوارثها. فالفلسطيني اللاجئ يرث الانتظار والأمل كما يرث قسمات وجهه، ولهذا غالباً ما تتساوى لديه الأمكنة، لأن كل مكان على هذه الأرض هو مكان انتظار وليس مكان إقامة. وهذا هو معنى العودة، كل مكان هو مكان انتظار للعودة، العودة إلى المدن والقرى التي مازالت حاضرة في الذاكرة الفردية والذاكرة الجمعية، بل إن المخيم في حد ذاته أرشيف.

المخيم مدينة فلسطينية خارج فلسطين مدينة تستعيد توزعات القرية، هنا حارة اللوابنة وهناك حارة الجواعنة وحارة الصفافرة وهكذا.. المخيم أرشيف لأسماء المدن والقرى والشهداء، أسماء الشوارع: شارع صفد، شارع حيفا، شارع لوبيا، شارع صرفند، شارع القدس شارع أم الفحم، شارع الناصرة.. وهكذا.

أسماء المدارس: مدرسة الكرمل، مدرسة عين جالوت، مدرسة حطين، مدرسة القدس، مدرسة عبد القادر الحسيني.. وهكذا

أسماء المستوصفات والمستشفيات، أسماء المحال التجارية والمقاهي.. جميعها تشكل أرشيفاً فلسطينياً يمد الذاكرة دائماً بإرادة فلسطينية للبقاء.

الأغنية، الفرقة الشعبية للرقص، الكوفية، الثوب، اللهجات، كل ذلك في خدمة فكرة العودة، حلم العودة، أمل العودة.

إن العودة هنا مفهوم لا يرتبط بالحنين إلا لدى الأجيال القديمة، فيما الأجيال التي ولدت بعد النكبة وهي النسبة الأكبر من الفلسطينيين والتي ليس لديها شعور بالحنين تشكل العودة بالنسبة إليها هدفاً سياسياً- وطنياً، خياراً وجودياً، فلسفة حياة.

هناك فرق بين وعيي أنا بالعودة ووعي أبي وأمي. تحتوي ذاكرة أبي الذي ولد في ذنابة ١٩١٢ على أماكن كثيرة وتجارب عديدة، وبالتالي يعيش الحنين إلى مرابع طفولته في ذنابة، إلى البيت الأميري لآل البرقاوي، يحن إلى المدرسة الأحمدية في عكا إلى كلية البوليس في القدس، إلى الأماكن التي عمل بها: صفد، طبريا، سمخ، أقرت الحمة، يحن إلى يافا، أبي غادر فلسطين وهو يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاماً، إذاً هو كتلة من الحنين.

وقس على ذلك، والدتي التي قتلها الحنين أصلاً إلى مسقط رأسها- يافا- إلى حياة الدعة التي وفرها الأب الأرستقراطي الغني، إلى مدرسة الغرير، إلى دار معلمات القدس إلى مدرسة الزهراء حيث عملت قبل الزواج، إلى الأماكن التي عاشتها مع والدي.

فيما أنا لا أملك أية ذكرى، وأنا بالتالي خلو من الحنين إلى فلسطين، فلا طفولة هناك ولا مراهقة.

ولدت في الهامة- دمشق عام ١٩٥٠، ومرت طفولتي في حوران، وراهقت في دمشق، وتعلمت في جامعتها وأعمل فيها، أعرف مدن سوريا كلها وكثيراً من مناطقها وقراها، أحن إلى نوى وإلى حي الشيخ محي الدين، أحن إلى المخيم، أحن إلى سان بطرس بورغ، لكني لا أحن إلى فلسطين إلى طولكرم، لكني متعلق بفلسطين حدَ العشق المطلق.

فلسطين هي الوطن الذي لا أحد يستطيع أن يشهر في وجهي شارة اللاجئ، لاشيء في حياتي بقادرٍ على أن يلغي مني شعور اللاجئ.

إن لدي شهوة حضور قوية، وحضوري في حياة سوريا والوطن العربي عاصف. لكن هناك شيئاً ينقصني، الأهم هو ما ينقصني الوجود في الوطن حتى ولو لم أكن فيه، ينقصني وطن، جواز سفر حقيقي يشير إلى وطن، خالٍ من كلمة لاجئ، ينقصني وطن أسافر منه إن شئت وأعود إليه إن شئت ولايهمني أين أموت بعد ذلك. المهم أن أعيش وجوداً كاملاً في وطن هو لي، وهذا الوطن ليس إلا فلسطين -وفلسطين فقط-.

فمهما كنت حاضراً فإن اللجوء شرخ كبير في حضوري، وجودي بلا فلسطين وطناً لي، وجود ناقص.

إنها لأصعب تجربة يمكن أن يعيشها شخص في الحياة: تجربة أن يكون وطنك أمامك ولا تستطيع أن تكون مواطناً فيه، أن تكون محروماً منه، بل ومحروماً حتى من زيارته، وطنك أمامك محتل من كائنات لا علاقة لها بعالمك الكبير والصغير.

أن يكون لك وطن يعني أن يكون لك بيت دائم دون أي معنى للشوفينية والعنصرية والتعصب، بل لا تستطيع أن ترى العالم كله وطناً لك دون أن تشعر بأنك منتمٍ إلى وطن محدد، أن يكون لك وطن يعني أن يكون لك حق غير قابل للإلغاء والاعتداء.

يتعرف اللاجئ على ضرورة وطنه، وعلى صعوبة اللجوء في المطارات والحدود العربية على وجه خاص، حتى يخيل لي أن هذه الأنظمة العربية- وهي أكثر الأنظمة انحطاطاً في تاريخ الإنسانية- لا تتعرف على ذاتها بأنها ذات سيادة إلا حين يقف الفلسطيني أمام سفاراتها أو على حدودها أو في مطاراتها، إنه مراقب متهم، واقعة به الشبهة.

أنظمة عربية ساهمت مساهمة كبيرة في احتلال فلسطين وتبذل كل الجهد من أجل أن تكون في حلٍ منها.

كان أسهل الطرق للتحرر من فلسطين تحويلها إلى مشكلة بعد أن كانت قضية، ثم تحميل هذه المشكلة إلى م.ت.ف. ثم القبول بما تقبل به م. ت.ف ثم التخلي عن م. ت. ف. وترك الفلسطيني وحده يواجه نظاماً عنصرياً استيطانياً استعمارياً

إجلائياً صهيونياً متبنىً تبنياً مطلقاً من قبل أمريكا والغرب.

لقد وجد الفلسطيني نفسه في معركة غير متكافئة حتى الآن، معركة بين صاحب حق ويملك منطقاً قوياً وإرادة شعبية لا تمل وبين مؤسسة عسكرية استيطانية.

بين طرف يملك الأرض والحلم والعودة وطرف يرفض حتى مبدأ: الأرض تتسع لنا جميعاً.

الفلسطيني لم يغادر قلب الوجود إلى هامشه، إنه القوة المؤرقة للعدو وللضعفاء من العرب، الفلسطيني لا يحضر إلا متمرداً على واقعه، على من يريد أن يقرر مصيره، وسلوكاً مطابقاً لوعيه بالوطن.

لاجئ أنا إذ أنا جناح، لا يسقط مني شيء في العدم، والوطن على مقربة مني، كان دائماً حاضراً في ذاتي وذاتي حاضرة فيه، أذكر أن أول مرة شاهدت فيها فلسطين عن بعد بكيت بكاءً مراً، ففي عام ١٩٦٥ كنت في رحلة مدرسية إلى الحمة والحمة مدينة فلسطينية، وفي الطريق إلى الحمة وقفنا على تلال الجبهة السورية، ومن هذه التلال رأينا سمخ، في هذه القرية سمخ كان والدي يعمل وفي سمخ ولدت أختي الكبرى مها عام ١٩٤٧.

أن تقف على تلة قريبة من وطنك تتأمل سيارات العدو وأنت لم تبلغ الخامسة عشرة من عمرك ولم يمض سبع عشرة

سنة على احتلال وطنك يضعك مباشرة أمام السؤال الطبيعي والبريء: لماذا لا نهجم في ليلة ظلماء على فلسطين ونحررها؟ ما الذي يمنع العرب من فعل ذلك.

هذا السؤال الطفولي هو السؤال نفسه الذي طرحه علي الفيلسوف السوفييتي أناتولي ألكساندرفيش فيدوسييف- وهو مشرفي على رسالة الدكتوراه. فبعد أن شرحت له القضية الفلسطينية سألني مباشرة لماذا لا تهجمون على إسرائيل في ليلة واحدة وتنتهون منها.

ما الذي جعل طفلاً لم يبلغ بعد الخامسة عشرة من عمره يطرح سؤالاً سيطرحه فيلسوف في العقد الستين من عمره؟.

إنها الدهشة ذاتها من اللامعقولية في التاريخ، بل من غياب المعقولية غياباً مطلقاً، وبالتالي غياب الواقعية والمنطق.

الدهشة من وجود هذا الكيان واستمراره جعلت الشيخ يطرح سؤال الطفل.

أجل منذ نشأة وعيي باللجوء مروراً بدخولي الصاعقة عام ١٩٦٩، وخروجي منها، ونشاطي الطلابي في الاتحاد العام لطلبة فلسطين وتأييدي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد مجيئي إلى دمشق من الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٠ وبدء الكتابة عن القضية الفلسطينية ونشاطي داخل اتحاد الكتاب والصحفيين وانتهاءً بكل ما كتب: «أسرى الوهم» و«دفاعاً عن

الأمة والتاريخ» و«العرب بين الأيديولوجيا والتاريخ»، حتى كتابيّ «الأنا وأنطولوجيا الذات» وأنا مندمج بفلسطين قضية، ولهذا ففي كل ما أكتب عن حضور الأنا وفاعلية الذات وحرية الكائن البشري لا أنفصل عن فلسطين حرة، عن حريتي في فلسطين.

إن تمرد اللاجئ الذي هو أنا يحملني دائماً على الانتصار لـ «اللا».

لا لوجود «إسرائيل» في قلب الوطن العربي، لا مساومة على التحرير والعودة. لا للاعتراف بالعدو، لا للنظام السياسي العربي الراهن.

الرؤيا

١ -

كثيرة هي الأحلام التي أيقظتني حين أصل إلى اللحظة التي أكون فيها في فلسطين، بخاصة بعد رحلتي إلى الحمة ورؤية سمخ من بعيد. حجم المكبوت لا أعرفه بدقة. لكن الأحلام التي أذكرها هي أحلام متعلقة بفلسطين.

فمنذ تلقيت الدعوة وأنا أهجس برؤية فلسطين. ومن خلال وصف والدي «للبوابة» وهي اسم البيت الكبير لآل البرقاوي في ذنابة ومخيلتي تحاول أن ترسم صورة للبيت الكبير.

تخيلت البيت على تلة عالية ذا بوابة كبيرة وداخلها مجموعة من البيوت الحجرية الكبيرة ثم وجود سور عالٍ. الصورة التي تخيلتها هي كما قلت من وحي وصف أبي.

قبل أن تُفعل خدمة الإنترنت في سوريا بزمن طلبت من صديقي الدكتور إياد البرغوثي أن يصور لي بيتنا في ذنابة ويرسله إلي مع أي أحد قادم إلى دمشق.

لم تمضِ شهور حتى تسلمت منه ومن الدكتور الصديق عبد عساف مجموعة من الصور لبيتنا.

كانت فرحتي بالصور كبيرة جداً، كانت الصورة قريبة مما

تخيلته لكنها كانت أغنى بكثير، ولقد لفت نظري في الصور بيتنا بشكل خاص حيث مازال صالحاً للسكن ومؤلفاً من طابقين من الحجر وفن عمارته من العقود المعروفة. وهناك صورة لبيت كبيرة جداً شبه مهدم ولم أستطع الربط بين الصورتين.

مضت السنون وراح الإنترنيت يختصر المسافات، ها هي شاشة الكمبيوتر تريني كل قصور البرقاوي في منطقة طولكرم.

بيت ضخم في كفر اللبد قلعة ضخمة في شوفة قلعة ضخمة في ذنابة.

على شاشة الكومبيوتر تشاهد: بيت نسيم برقاوي، بيت حسين برقاوي، بيت عقاب برقاوي، بيت إبراهيم البرقاوي، قلعة البرقاوي، قصر البرقاوي، قلعة شوفة.. إلخ.

أنسخ صورة للقسم الخاص بأبي في البوابة الكبيرة– بيت من طابقين كما قلت وأضعها تحت زجاج طاولتي في قسم الفلسفة وكلما زارني أحد سرعان ما أقول له: انظر هذا بيتنا في فلسطين. أتأمل ما أنا عليه من فرح وانتماء، فرح بالبيت الذي مازال اسمه بيت نسيم برقاوي – والدي. بيت تاريخي، بيت أنا مالكه، تأملي بهذه التجربة الذاتية مع البيت هناك

في ذنابة أو في شوفة أو في كفر اللبد يؤكد أمراً كتبت عنه في «أنطولوجيا الذات» حول الذات والبيت، حيث البيت هو الرحم، كان لسان حالي يقول كل البيوت التي سكنتها سواء كنت مالكاً أو ليس مالكاً ليست بيوتاً حقيقية، لأنها ليست البيت الأصلي، البيت الأصلي هو البيت الحقيقي لأنه في المكان الحقيقي- فلسطين، كل البيوت الأخرى أشباح.

أنا أملك بيتاً في دمشق العاصمة الأقدم والأجمل، لم أشعر يوماً بعلاقة حميمية معه. فباستطاعتي أن أبيعه دون أي إحساس بالذنب.

لكني اشتطت غضباً عندما قرأت على الإنترنيت إعلاناً يقول: البيوت التاريخية في فلسطين. بيت نسيم برقاوي مؤلف من طابقين صالح للسكن يمكن لأية مؤسسة فلسطينية تراثية أن تستخدمه.

وسرعان ما كتبت رسالة على الإنترنيت هذا بيتي أرجو أن لا يمسه أحد، أنا عائد لأعيش فيه. علاقتي بالبيت في ذنابة تحمل أكثر من معنى، تحمل معنى أني حين أعود إلى فلسطين سأجد أمامي الرحم الحميم، معنى أني مرتبط بالوطن- فلسطين. يعني أني أملك المكان الدائم والزمان الدائم في لحظة ما، وبالتالي التعلق بالبيت هو التعلق بفلسطين البيت الأكبر،

كم أشعر بالقوة وأنا أتأمل كل يوم بيتي الذي أصبح صورة دائمة على طاولتي، البيت المطل على العالم صار المكان الذي أطل منه على الوجود.

عندما أردد لكل زائر: هذا بيتي، فإنما لأؤكد أن هذا بيتي الحقيقي، ليست المسألة اعتداداً بتاريخ من السلطة الذي يمثله هذا البيت والبيوتات الأخرى بل اعتداداً بالجذر العميق، اعتداداً ببيوت تعود لمئات السنين.

في أحد المساءات فتحت محطة تلفزيون فلسطين وشاءت المصادفة أن يكون البرنامج عن قلعة البرقاوي في شوفة، أعرف تاريخ هذه القلعة لكني لا أعرف شكلها إلا عن طريق الإنترنيت، لقد اصطحبنا البرنامج إلى القلعة وتاريخها وشيوخها فهي قلعة أحد الجدود الأوائل– قلعة الشيخ ناصر البرقاوي.

لم تمضِ أيام إلا وكنت أحلم أني أتسلل إلى فلسطين واقتربت من شارع ضيق متجه إلى القلعة وانقطع الحلم دون أن أشاهدها.

في يوم الخميس الموافق /٢٩/ آذار /٢٠١٢/ رن جرس الهاتف صباحاً.

دكتور أحمد – صباح الخير – أنا أمل شاهين، مبارك

الرحلة إلى فلسطين ستكون في الثامن من شهر نيسان، والأمور جميعها في غاية الترتيب هنا في سوريا وهناك في فلسطين، في الثامن من نيسان سينطلق الباص من المخيم في الساعة الثالثة صباحاً إن شئت الذهاب مع الوفد، أو إذا أردت يمكنك الذهاب بمفردك إلى عمان.

صمتُ صمتاً مريعاً ومضى وقت على صمتي قبل أن أنتبه إلى محدثتي:

– إلى فلسطين.. أجبت.

– نعم إلى فلسطين.. قالت أمل.

أغلقت الهاتف ورحت في شرود طويل بين مصدق ومكذب، أتراني فعلاً سأكون بعد أيام قليلة على أرض فلسطين، هل سأفتح باب بيتنا وأجلس فيه، بعد إحدى وستين سنة من مولدي في الغربة، سأذهب إلى فلسطين، فلسطين المحتلة من قبل اليهود.

ليس لدي أي تصور عن كيفية الدخول إلى فلسطين، كل ما كنت أفكر فيه أني سأرى أرضي– وطني– سيتحقق حلمي، سأكون في بيتي، سأزور كل ما يمكنني زيارته، لن أترك شبراً في الضفة الغربية دون أن أراه، وحزني أني لن أرى إلا جزءاً من فلسطين.

بعد إحدى وستين سنة ونيف سأذهب إلى طولكرم، سأذهب في الشهر نفسه الذي ولدت فيه، في نيسان أية مصادفة جميلة هذه.

لقد خالجني شعور بالحزن، بالفرح، بالتوتر، بالقلق، بالشك بالحالة نفسها، فأنا بين مصدق ومكذب.

كان السؤال الأول الذي طرحته على نفسي: هب أني سافرت إلى الضفة الغربية فكيف لي أن أعود منها وأتركها..!.

ثم وجدتني أرفع سماعة الهاتف وأخبر إخوتي وأخواتي وأصدقائي كما لو أني فزت بجائزة ما، كان الجميع في حالة دهشة وفي حالة رغبة لو أنهم قادرون على السفر معي، أفتح الإيميل وأقرأ نص الدعوة:

(من م. ت. ف. اللجنة الوطنية للتربية والعلوم إلى أحمد برقاوي، دعوة للمشاركة في الملتقى التربوي الفلسطيني الخامس).

في اليوم التالي شرعت بالعمل من أجل السفر.

أتصل بمسؤول فتح الدكتور سمير الرفاعي أولاً للسؤال عن طريقة السفر والإجراءات اللازمة لذلك من الجانب السوري، فأنا في النهاية أستاذ في جامعة دمشق.

يجيبني بأن الموافقة الأمنية من مسؤولية مكتب المنظمة هنا، وأن الأخوة السوريين لايمنعون أحداً من السفر إلى الضفة.

أتصل بالممثل الصديق عبد الرحمن أبو القاسم لأتأكد من سهولة السفر، يجيبني أنه سيذهب إلى فرع فلسطين وسيلتقي هناك بالمسؤول لإبلاغه بالسفر، ويقترح علي أن أصحبه، فأعتذر عن ذلك، طالما أن الدكتور سمير الرفاعي سيقوم بأمر الموافقة.

لكني تلقيت الدعوة في ظروف شديدة الصعوبة في سوريا، فالثورة حملت النظام على سن مجموعة من القوانين الشفاهية كقانون سفر أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات السورية، حيث يتطلب السفر فضلاً عن موافقة مجالس الأقسام ورئيس الجامعة موافقة وزير التعليم العالي ورئيس الوزراء.

حين شاع أمر دعوتي إلى فلسطين كثرت الأقاويل والنصائح، صديقي نائب عميد كلية الآداب قالها بكل ود: «لا أنصحك بالسفر، كفاك مشاكل وإثارة مشاكل، بذلنا جهوداً جبارة لتجاوز موضوع مقالاتك في السفير، بخاصة حين كنت في القاهرة».

بعض الزملاء أشاروا هم الآخرون علي أن أقلع عن الفكرة، بعض ممن يناصبون السلطة في فلسطين العداء عبر عن رفضهم للزيارة.

كانوا جميعاً في واد وأنا في واد، فسفري إلى رام الله لا يحمل أي معنى سياسي، كل ما يجول في خاطري أمرٌ واحد

وحيد، أن أرى فلسطين وأذهب إلى طولكرم وإلى ذنابة وشوفة وكفر اللبد على وجه الخصوص.

كل همي أن أمشي في شوارع رام الله وبيت لحم ونابلس وقلقيلية وجنين والخليل.. أن أشرب من ماء فلسطين، وأتنفس هواء فلسطين، هم في وادٍ وأنا في واد آخر.

وفي كل الأحوال أنا لا أناصب السلطة الوطنية العداء رغم النقد الذي أوجهه إليها.

نقادي والخائفون علي يفكرون بمنطق الربح والخسارة والموقف والمشكلة والنتائج وأنا لا أفكر أصلاً، روحي تسبقني إلى هناك، لم أكترث بأحد، ولم أستشر أحداً، ولن آخذ برأي أحد، لا يهمني العقل البارد، ما يهمني أن أكون هناك في فلسطين، روحي تسبقني إليها.

المشكلة التي تواجهني فقط هي كيف يمكن الحصول على تأشيرة خروج خلال فترة قصيرة، فالاتصال كان نهار الخميس /٢٩/ آذار و /٣٠ و٣١ /جمعة وسبت يوماً عطلة، وهذا يعني أنه يجب أن أحصل على تأشيرة الخروج خلال خمسة أيام فقط، وهذا أمر شبه متعذر في حال سارت الأمور على نحو روتيني لاسيما وأن التأشيرة تتطلب كما قلت موافقة وزير التعليم العالي ورئيس الوزراء.

تقدمت صباح الأحد/ ١/٤/٢٠١٢/ بطلب الموافقة على

تأشيرة خروج إلى الأردن مرفقاً بالدعوة إلى رام الله، وافق رئيس قسم الفلسفة الدكتور سليمان الضاهر وهو أحد طلابي النجباء، ثم وافق عميد الكلية الدكتور عمر مصطفى وهو شخص في غاية الشهامة ولن أنسى دفاعه عني في غيابي وأنا في القاهرة.

حملت الموافقة باليد إلى أمين جامعة دمشق الدكتور عباس صندوق وهو أفضل أمين جامعة عرفته جامعة دمشق من حيث خبرته وحسه الإداري الرفيع وحبه لزملائه ولا يبخل بأية مساعدة إذا كان ذلك في إطار القانون، وسرعان ما أرسل كتاباً إلى وزير التعليم العالي ويدعى الدكتور عبد الرزاق شيخ عيسى، كان من الصعب علي أن أذهب إليه كي يعجل بالإجراء بسبب أنه ضعيف الشخصية لا يمكنه الاتصال برئيس الوزراء، فضلاً عن أنه إنسان بعقلية الموظف العثماني.

مضى يوم الاثنين والثلاثاء دون أن يحول طلب الموافقة إلى رئيس الوزراء بحجة أن الكتاب لم يصل بعد من الجامعة، وبسبب ضغطي وبحثي الدؤوب كان الكتاب على طاولة رئيس الوزراء نهار الأربعاء ٤/ ٤/ ٢٠١٢ /.

جرت عدة اتصالات مع مكتب رئيس الوزراء نهاري الأربعاء والخميس من مكتب أمين الجامعة وأخيراً جاء الجواب من مدير مكتب رئيس الوزراء «مع عدم الموافقة».

لقد تملكني حزن شديدٌ جداً جداً، رأى عباس صندوق الحزن بادياً على محياي قالها بنوع من محاولة إزاحة الغم عني: «لاتغضب ولاتحزن لم يوافق رئيس الوزراء على سفر أربعة أساتذة من قسم التاريخ لحضور مؤتمر في عمّان، ولا أعتقد أنه سيوافق على سفرك إلى رام الله».

ذهبت إلى الدكتورة نجاح العطار، وهي صديقة حميمة وصادقة ونائبة لرئيس الجمهورية وشرحت لها الموقف، اتصلت الأخت العزيزة زكاء الجابي برئاسة الوزراء وأبلغتهم رغبة السيدة النائبة في الموافقة على السفر، لكن أحد لم يكترث بالأمر.

ثم عنَّت على بالي فكرة: لماذا لا أتصل برئيس الوزراء أنا شخصياً، لاسيما وأنه زميل وصديق ودود جداً تجاهي بل ويكن لي الحب والاحترام، لكني لم أُجر أي اتصال معه منذ أن أصبح وزيراً للزراعة، أي منذ أكثر من تسع سنوات، وأنا أحتفظ برقم هاتفه النقال القديم قبل أن يصبح وزيراً، أتراه مازال يحتفظ بهاتفه هذا.؟.

اتصلت برئيس الوزراء على هاتفه النقال يوم كان أستاذاً، رن جرس الهاتف ولكنه لم يرد، مرة، مرتين، ثلاث مرات، اتصلت ولا من مجيب.

ثم أرسلت له رسالة من هاتفي أذكرها على النحو الآتي:

(أخي الدكتور عادل سفر، الذي يتصل بك هو أحمد برقاوي، اشتقنا إليك، اتصلنا بك ولم نتلق رداً، سلامي للجميع).

فقدت الأمل بالسفر، والفرصة التي كانت سانحة لي لرؤية فلسطين ضاعت، أصابتني حالة من الصمت، خرجت من الجامعة وأنا «كسير الخاطر» وصلت البيت متجهماً، أفراد العائلة سرعان ما أحسّوا بحزني وانزعاجي، وكانوا أشد تأثراً مني، بخاصة زوجتي نبيلة التي كانت فرحة جداً بتلقي الدعوة إلى فلسطين، وسادت حالة من الحنان والوئام كعادتنا في العائلة حين يتعرض أحدٌ من أفرادها لأية أزمة، وراح أفراد الأسرة يخففون علي وقع خيبة الأمل.

أما أنا وحين آويت ليلاً إلى فراش النوم، تظاهرت به ولكن لم أنم إطلاقاً، أجل مضت ليلة الخميس دون أن أغمض عيني بسبب إحساسي بالقهر.

صباح الجمعة اتصلت بي الآنسة أمل شاهين لتؤكد لي موعد السفر صباح الأحد/ ٨/ ٤/ ٢٠١٢/.

أجبتها بصوت يائس: شكراً أمل مع الأسف لن أتمكن من السفر، لم أحصل على تأشيرة الخروج، ويبدو أن الأمر صعب جداً، شكراً لكِ.

شعرت أمل بحزني وحاولت أن تخفف عني وشاركتني بكلام ودي شعوري هذا.

حاولت أن أتجاوز حالتي النفسية كي لا أزعج نبيلة وعبلة وإيهاب، وأظهرت عدم اكتراثي بالأمر، وكنت أخفي بركاناً داخلي، جلست كالعادة خلف طاولتي لكني لم أستطع أن أكتب حرفاً.

فجأة رن جرس هاتفي النقال، نظرت إلى الاسم والرقم فإذا هو عادل سفر رئيس الوزراء، شعرت حينها أن هناك أملاً جديداً تراءى لي وأن عادل سفر لا محالة لن يخيب أملي.

– دكتور أحمد أنا عادل سفر، أنا آسف قرأت رسالتك متأخراً ولم أشأ أن أزعجك ليلاً، أخبرني كيف أحوالك.؟.

– أهلاً دكتور عادل، أنا بخير وأشكرك على هذا الاتصال.

– لا أنت.. صديق وأرجو أن تزورني في المجلس (مجلس الوزراء).

– أكيد.. أكيد أخي عادل اتصلت بك بسبب مهمٍ، فلقد تلقيت دعوة لزيارة رام الله لحضور أسبوع ثقافي تربوي وطلب الموافقة مع تأشيرة الخروج وصلتكم.. أرجو الموافقة ولا تضيع الفرصة عليَّ.

– اطمئن دكتور أحمد غداً السبت ستكون في وزارة التعليم العالي.

– أشكرك صديقي ومن كل قلبي وبعد عودتي من رام الله سأزورك حتماً.

حدثت نفسي: لايمكن لعادل سفر أن يخذلني، سيوافق حتماً، أعاد لي رئيس الوزراء الأمل الذي فقدته، صحيح أن يوم السبت هو عطلة رسمية لكن رئيس الوزراء والوزراء غالباً ما يكونون بالدوام الرسمي. وكذلك رئيس الجامعة وأمين الجامعة وإدارة الهجرة والجوازات الفلسطينية التي تفتح أبوابها حتى الواحدة ظهراً.

على أية حال لم يعد يهم ما إذا كنت سأنجز كل إجراءات التأشيرة نهار السبت، فأنا إن أنهيتها الأحد يمكن أن أسافر الأحد مساءً، وقد أبلغتني أمل بعد أن اتصلت بها أن السفر الفردي ممكن وسفارة فلسطين في عمان ستقوم بالإجراءات والتصريح أصلاً مودع عندها.

صباح السبت في التاسعة صباحاً كنت في غرفة معاون الوزير الدكتور رياض طيفور وهو شخص ودود وراقٍ.

ولقد اهتم بالأمر اهتماماً شديداً، وأرسل رقم الفاكس الخاص به إلى مكتب رئيس الوزراء.

مكتب رئيس الوزراء يرد علينا أنه قد أرسل الموافقة ونحن نجيبه لم يصل بعد أي شيء.

في الساعة الثانية عشرة تقريباً- وبينما نحن أنا ومعاون وزير التعليم العالم الدكتور نجم والدكتور نجيب عبد الواحد نناقش وضع البلد فإذا الموظفة تحمل الموافقة الآتية من رئيس الوزراء، هرعت إلى أمين الجامعة الدكتور عباس صندوق وأنا أحمل الموافقة، لم تصدق عيناه الأمر وقد بادلني الفرح، بل وقام هو بذاته بطباعة الرسالة إلى الهجرة والجوازات لمنحي التأشيرة، وقع رئيس الجامعة، هرولت إلى مؤسسة اللاجئين وكانت على وشك الانتهاء من الدوام الساعة الواحدة أنجزت طبع تأشيرة الخروج على وثيقة سفري.

ها أنا أملك تأشيرة الخروج إلى الأردن والموافقة على السفر إلى رام الله، عاد الفرح إلي وإلى كل أفراد أسرتي مساء السبت أخذت قسطاً من الراحة والنوم وكان قصيراً جداً لأني في صباح الأحد الباكر الثالثة والنصف سأكون في مخيم اليرموك حيث سيقلنا الباص من هناك.

من مخيم اليرموك إلى رام الله

الأحد الثامن من نيسان ٢٠١٢

لا أعتقد أن القائمين على إجراء السفر كانوا يقصدون أن يكون المخيم هو نقطة الانطلاق للرحلة إلى رام الله لما لذلك من دلالة رمزية.

لكن الخروج من المخيم إلى رام الله يحمل معنى عميقاً جداً.

فالمخيم هو مكان اللاجئ من فلسطين الذي يجب أن يكون نقطة الانطلاق إلى فلسطين.

والمخيم كما ذكرت هو الأرشيف الأكبر لفلسطين الذي يتنقل من ذاكرة إلى أخرى دون أن يصيبه البلى.

لقد عشت في المخيم منذ ١٩٧٠ وحتى عام ١٩٩٠ باستثناء سنوات ست عشتها في الاتحاد السوفييتي، قبل أن أنتقل إلى حي المزة في دمشق، ولم أنقطع عن المخيم أبداً.

فقبل وفاة شقيقي محمد قاسم عام ٢٠٠٥ كنت أذهب إلى المخيم مساء كل يوم تقريباً والمسافة بين بيتي في المزة والمخيم في السيارة لا يتجاوز عشرين دقيقة، فضلاً من ذلك فإن سوق المخيم هو سوقي الذي أؤمن منه حاجاتي. ولا يمضي

أسبوع إلا وأزور أخوتي وأخواتي في المخيم، بكلمة واحدة مازال المخيم جزءاً أثيراً من عالمي اليومي. وفي المخيم قبر أمي وقبر أبي وقبر أخي وقد كان أمامي خيار أن أذهب إلى عمان وحدي، لكني آثرت أن أذهب بصحبة الفلسطينيين، ومن المخيم في الرحلة إلى فلسطين، المخيم هو لوحة فلسطينية معروضة في متحف خارج فلسطين.

الثامن من نيسان الساعة الثالثة والنصف صباحاً من يوم الأحد عام ٢٠١٢ يوم حُفر في ذاكرتي وفي روحي حفراً عميقاً، فأنا لا أذكر تاريخ حصولي على الدكتوراه، ولا تاريخ تعييني أستاذاً في جامعة دمشق، بل ولا أذكر تواريخ أي تكريم لي، لكن يوم الأحد الثامن من نيسان هو يوم أشبه بالصورة البارزة في تاريخ حياتي.

في الساعة الثالثة والنصف صباحاً يقلني ابني إيهاب وزوجتي نبيلة إلى المخيم.

أمام جامع المهايني في شارع اليرموك تجمع حشدٌ من الفلسطينيين يتجاوز المئة شخص، مئة من الأطفال والشباب والكبار والنساء، مسافرون ومودعون ولست تدري من هو المسافر ومن هو المودع، أودع زوجتي وابني وأقترب من الجمع عدد كبير من الواقفين يتقدم نحوي مسلماً.

كان المشهد أشبه بفلم تراجيدي بالمعنى الدقيق للكلمة ولكن في صورة سوريالية جداً.

تحتضن أم ابنها والدموع تنهمر من عينيها وتقول بلهجة فلسطينية شمالية:

«يما حبيبي، مع السلامة يما، لاتنس هه تجيب معاك كمشه من تراب فلسطين يما».. ثم تجهش.

فتاة تبكي على صدر رجل وتقول: «ريتي معك خيّا».

امرأة تحمل بيدها غصن ياسمين دمشقي مزروع في تراب والتراب داخل كيس من النايلون، إنها ابنة شهيد وتريد أن تزرع الياسمين الدمشقي ذكرى لوالدها في فلسطين.

الحزن يطل من الوجوه كما الفرح في آن واحد، بكاء الشباب يجرح نفسي وأنا أتأمل المشهد.

أطفال يمرحون كأنهم في صبيحة العيد.

جميعنا – نحن الذاهبين إلى فلسطين– ولدنا خارج فلسطين ولا نعرف شيئاً عنها سوى أنّا منها. لم نعش فيها ولكنا متعلقون بها.

أتساءل: ترى من ذا الذي باستطاعته أن يقتلع فلسطين من قلوب أبنائها، إذا كان لدى الطفل الفلسطيني مثل هذا التعلق بوطنه.

ما أن تحركت عجلات الباص حتى تحولت كل الأكف المودِعة والموَدَعة إلى تلويحات، المخيم شبه صامت نجتاز شارع اليرموك، نودع المخيم بنظرات عابرة، ومرت لحظات من صمت التأمل، فالرحلة إلى فلسطين حدث فذ، وبدأت أصوات الأحاديث الجانبية تتعالى شيئاً فشيئاً، الشارع العام المتجه إلى درعا خالٍ تماماً من السيارات، ففي هذا الوقت الخامسة صباحاً تقريباً من النادر أن تجد باصات باستثناء الحافلات الكبيرة، ولكن الحافلات نفسها غابت عن الأنظار بسبب الحواجز على الطريق.

تجاوزنا حاجز حي القدم باتجاه الكسوة، وصلنا الكسوة فإذا نحن أمام حاجز عسكري ضخم، جنود مدججون بالسلاح وأكياس رمل، وبراميل، وآخرون بلباس مدني توقفنا عند الحاجز وصعد عسكري وعلى وجهه إمارات التعجب والدهشة وكان لسان حاله يقول: ما هذا باص مليء بالركاب الساعة الخامسة صباحاً متجهاً إلى الجنوب.

– إلى أين..؟ سأل بنوع من الاستغراب..

– نهض أبو عماد– مسؤول فتح – وقال بلهجة مؤدبة جداً نحن ذاهبون إلى فلسطين.

– إلى فلسطين... ردد عسكري بكل استغراب وكأنه ظن أن أبا عماد يمازحه.

– إلى فلسطين– مرة وحدة..!!.

– نعم إلى فلسطين ولهذا نحن باتجاه الأردن.

نزل العسكري ولم يصدق ما يسمع ويبدو أنه راح إلى مسؤوله الأكبر.

صعد شخص بلباس مدني، وقال بكل تهذيب:

– عفواً لو سمحتم الكل يبرز هويته الشخصية.

– أبو عماد– ردد ما قاله الشخص وأضاف:

– نحن هنا جميعنا فلسطينيون.

– حسناً هل لديكم موافقة على السفر..؟.

– نعم

وأبرز أبو عماد جدولاً بأسمائنا جميعاً ويبدو أنه موقع من جهة أمنية.

حدق الشخص بهوياتنا دون أن تغادره الدهشة، وطلب من أبي عماد أن يلحق به.

عاد أبو عماد مسروراً بشوشاً وأشار إلى السائق أن سر.

وما هي إلا دقائق حتى كان الغناء الثوري الفلسطيني يملأ فضاء الباص ثم تطور إلى الغناء الفلكلوري الفلسطيني الفلاحي، برفقة الضرب على «الدربكة».

كان صوت الشباب والصبايا حميماً فرحاً أشبه بذاك الذي يجري في الأعراس الفلسطينية.

وما هي إلا ساعة تقريباً مرت على سيرنا حتى وصلنا الحدود الدولية التي رسمتها بريطانيا وفرنسا بين المستعمرتين السورية والأردنية، ثم حافظت عليها الدولتان بوصفها رمزاً للسيادة الوطنية.

تستقبلك الحدود السورية بصورة الرئيس الراحل حافظ الأسد وصورة الرئيس بشار الأسد وبحجم كبير.

توقف الباص عند أول مدخل الحدود، يصعد رجال الأمن، وينزلون مندهشين من هذا المنظر غير المألوف.

تتكرر القصة التي جرت أمام حاجز الكسوة ولكنها الآن بصورة حِرفية أكثر.

يأخذ ضابط أمن قائمة الأسماء ويدخل مقصورة ويضغط أزرار الكومبيوتر يتحقق من أن الأسماء جميعها غير مطلوبة أمنياً وهي المرة الأولى التي أشاهد فيها هذا الأمر، وأنا الذي أسافر بشكل متكرر إلى عمان لحضور المؤتمرات والندوات. احتفظ رجل الأمن بقائمة الأسماء وأعطى التصريح لسائق الباص أن يمر، وتبين أن هذه المقصورة تابعة للمخابرات الجوية.

وعلى غير العادة أيضاً توقف الباص أمام نقطة الجمارك نزل أبو عماد من الباص وصعد بعد ثوان قائلاً: «يا شباب

انزلوا جميعاً من الباص، وليفتح كل واحد منكم حقائبه للتفتيش».

كنت أول النازلين لأني أجلس على الكرسي الأول.

رأيت جمركياً طويل القامة سميناً غير مرتب اللباس، وبلهجة آمرة تنم عن وجود فضلات سلطة لديه أكثر من غيره همهم:

– يا لله نزلوا الشنتات « تانشوف».

تقدمت من الملازم المتعجرف هذا وسألته بكل تأفف مؤدب:

– يا أخي هناك أكثر من خمسين حقيبة فضلاً عن صناديق مليئة بالآلات الموسيقية، فلماذا تريدنا أن ننزل هذا جميعه، ونحن ذاهبون إلى فلسطين.

– أجاب بنوع من الصراخ: هذا شغلي أليس من حقنا أن نعرف ما في داخل الحقائب، ما الذي يمنع أن تكون مليئة بالسلاح..!.

– أجبت مبتسماً: حسناً هبْ أن هناك سلاحاً في الحقائب فنحن ذاهبون به من سوريا إلى فلسطين، أليس من مصلحتك أن نفعل ذلك..؟.

– كان جوابه صارماً وأمام الركاب الذين دهشوا من

سلوكه: قلت أنزلوا الحقائب بدون نقاش.

راح أعضاء الوفد ينزلون حقائبهم، وأبو عماد يبتسم أمام المشهد، وكان يقف إلى جانب الباص نقيب وسيم وراح يبتسم هو الآخر.

وافترضت أن للنقيب سلطة على الملازم ورحت أقنعه بأن إنزال الحقائب وتفتيشها سيأخذ وقتاً طويلاً، وما هكذا جرت العادة.

– طيب طيب.. يا شباب ثم تحدث همساً: أنزلوا محفظتين أو ثلاثاً حتى مانكسر كلمة الملازم وأنا سأتحدث معه.. وهكذا كان.

انهالت الأختام على الجوازات وانطلقنا فرحين إلى الباص باستثناء راكب واحد تبين أن هناك ما يمنع سفره.

ها نحن تجاوزنا أول عقدة من عُقد الحدود التي يعاني منها الفلسطيني في الغالب، فالوطن العربي الكبير بالنسبة إلى الفلسطيني سجن ضيق، وعالم صغير بالمعنى القيمي للكلمة وكأن الفلسطيني هو الوحيد الذي يكون مناسبة أمام الدولة العربية لتمارس سيادتها السادية، الفلسطيني وحده الذي ما أن يمر من حدود دولة عربية حتى يحس أنه قد خرج من ورطة.

الساعة الآن تقارب الثامنة والنصف، والصباح ربيعي جميل، الحدود شبه فارغة، ونحن مازلنا في حيوية فائقة تغذينا شهوة السفر إلى فلسطين.

ها نحن ندخل الحدود الأردنية تستقبلك أيضاً صورتان كبيرتان واحدة للملك الراحل حسين بن طلال وأخرى للملك عبد الله الثاني.

يتوقف الباص أمام حاجز تفتيش الحقائب. وهنا يجب أن يُنزل كل واحد منا حقيبته لتفتش لا محال، لقد مضى وقت طويل على عملية التفتيش ونحن مستسلمون لمشيئة رجال الأمن العام.

دخلنا مبنى الجوازات ونحن طبعاً مطمئنون -كما قال أبو عماد- إلى الاتفاق بين السلطة والأردن بشأن مرورنا.

جاء ضابط أردني وأخذ جميع الجوازات ثم دخل إلى غرفة مستقلة وبعيدة عن مكان الأختام واعتقدنا أن هناك تسهيلاً لنا سيتخذ، وستختم الجوازات دفعة واحدة.

كان باب الغرفة مفتوحاً وتجمهرنا أمام الباب، خرج الرجل علينا قائلاً: تفضلوا اجلسوا هناك ريثما تتم الإجراءات، كنا نراقب ماذا يفعل هذا الرجل.

يقلب الجواز، ثم يضعه جانباً، ثم يقلبه مرة أخرى، ثم

يضغط على أزرار جهاز الكمبيوتر، ثم يتصل بالهاتف، يضحك مرة ويعبس مرة أخرى.

مضت ساعة كاملة ورجل الأمن هذا يتأمل الجواز رقم ٠٢ بدأ السخط يدب في نفوسنا، دخلتُ غرفة مكتوب عليها الضابط المناوب.

شرحت له الأمر، وعبرتُ فيها عن دهشتنا وسخطنا، فنحن ذاهبون إلى فلسطين، ومن المفروض أن تكون الإجراءات سريعة وفق الاتفاق بين السلطتين.

نظر الرجل إلي بكل تهذيب وقال: «لا عليك».. ثم ذهب إلى الغرفة المسجونة فيها جوازات سفرنا وعاد قائلاً:

– إن هي إلا إجراءات بسيطة، سينهي الأمر بعد فترة، إنه يقوم باتصالاته.

من حيث المبدأ لو توجهنا إلى كوة الأختام فلن يتطلب الأمر إلا دقائق فقط، لأننا كنا الوحيدين تقريباً في مبنى الجوازات، ثلاثون جواز سفر، بيد رجل أمن عام، موضوعة على الطاولة أمامه، ولا شغل له سوى التأمل.

ثلاثون كائناً بشرياً لا حول لهم ولا قوة، ولا يملكون حق الاحتجاج، أمر في غاية الغرابة والسادية.

ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات، أربع ساعات والزمن يمر

ونحن كالكرام على مأدبة اللئام.

ثم جاء الفرج.

– تعالوا خذوا جوازاتكم واذهبوا إلى كوة الأختام.

لم ندرِ لماذا كان يجب علينا أن ننتظر ساعاتٍ طويلة متوترين ونحن بالأساس سنمر مروراً من الأردن إلى فلسطين.

أحسسنا جميعاً بالإهانة، وكأن الأمر كان مقصوداً منه أن يخففوا من شدة فرحنا بالذهاب إلى فلسطين.

أخذ التعب منا مأخذه، ولم نحس بالجوع أبداً رغم أنَّا لم نتناول طعاماً منذ مساء / ٧/٤/ ٢٠١٢/ بل كل ما أحسسنا به هو الغبن والقهر.

خرجنا من دمشق الساعة الثالثة والنصف من صباح الأحد في الثامن من نيسان ٢٠١٢ وها نحن نخرج من الحدود الأردنية إلى عمان الساعة الواحدة ظهراً تقريباً.

عشر ساعات قطعنا فيها مسافة لا تتجاوز ١٠٠ كم، أي أن مسافة تقطع في ساعة واحدة تطلب قطعها عشر ساعات، هو ذا الفلسطيني.

الشباب راحوا يتمتمون بالشتائم ويصبون اللعنات كالعادة.

في الساعة الثانية والنصف – تقريباً– كنا أمام فندق

القدس، حيث سننضم إلى الوفد القادم من لبنان والذاهب معنا من الأردن.

أكثر من ثمانين فلسطينياً جاؤوا من الأردن ولبنان وسوريا وتجمعوا في باصين للذهاب إلى فلسطين. القيمون على الرحلة في عمان كانوا شديدي الدقة حتى لا يتركوا للعدو أي سبب يدعوه لعرقلة الرحلة.

وزعت علينا التصاريح من السلطة الوطنية الفلسطينية، وجرى التأكد مرة ومرتين وثلاث مرات.

وبعد أن تأكد المشرفون على الرحلة من الإجراءات السليمة للسفر، صعد أحد المشرفين إلى الباص الذي أنا فيه وقال:

– أخواني وأخواتي: نتمنى لكم رحلة ممتعة إلى رحاب الوطن، أعرف شوقكم إلى فلسطين، لكن أريد أن أوصيكم بأمر مهم: ستمرون من معبر أريحا وستواجهون رجال أمن، أرجوكم لا تستفزوا أحداً من رجال الأمن الإسرائيلي بل عاملوهم كحيوانات، كحمير، فهم كائنات متوحشة وعندهم حقد دفين على كل فلسطيني، إذا استفز أحدكم أي واحدٍ منهم قد يؤخرون دخولكم إلى الوطن حتى ساعة متأخرة من الليل، بل قد يعرقلون دخولكم. أرجو لكم سفراً ميموناً إلى أرض الوطن، سيكون الأخوة في استقبالكم في معبر أريحا، وسيدعوكم

محافظ أريحا لتناول طعام العشاء قبل أن تواصلوا السفر إلى رام الله. مرة أخرى «توصلوا بالسلامة».

– عفواً لو سمحت ما هو طول المسافة بين عمان وأريحا أو المعبر سألت المشرف؟.

– أربعون كم تقريباً، إذا سارت الأمور كما يجب– إنشاء الله، وإذا اليهود «ماعملوا مشاكل في المعبر بتكونوا الساعة السابعة تقريباً في أريحا « أجاب ملوحاً ونزل.

الطريق من عمان إلى فلسطين– إلى جسر الملك طريق ذو جمال خاص، تسحرك التلال الجرداء، والوديان الخضراء، والفضاء الواسع وقلة الأماكن المأهولة، أماكن تصلح للمتصوفة والنسَّاك والشعراء والعشاق.

اختلط القادمون من الأماكن الثلاثة في الباصين، وبالتالي غابت عن الباص ميزة السلوك العفوي بالغناء والضحك والنكات، بل وغاب اختيار جليس الكرسي معك بشكل عام. ولقد جلست إلى جانب سيدة تبدو عليها إمارات الذوق والتهذيب والأرستقراطية، حدثتني عن سعادتها العارمة في الذهاب إلى فلسطين أنها فشلت أربع مرات في الحصول على تصريح للزيارة ولقد أصابها الحظ هذه المرة. وهي رئيسة جمعية «حنونة للتراث الفلسطيني» واسمها نعمت صالح.

لم يمض وقت طويل إلا وقد وصلنا جسر الملك حسين، ران الصمت على مقلي الباص، عيناي تتجولان في التلال القريبة والوادي الصغير ومجرى النهر الجاف ونبات الشيح حيث نما القصب إلى حد كبير.

وفي الواقع أنا لم أر جسراً، وتذكرت، أتراه هذا الجسر الذي غنت له فيروز، أين هو الجسر الخشبي، أتراني عابر على جسر العودة.

عبرت ما يسمى بالجسر إلى مبنى الجوازات الأردني، وها نحن مرة أخرى أمام رجال الأمن والأختام والأوراق الخاصة، لكن الخروج من مبنى الجوازات كان أسهل بما لا يقاس من الدخول من مركز نصيب الحدودي مع سوريا.

خرجنا من مركز جسر الملك حسين متجهين إلى الجانب الآخر إلى معبر أريحا.

هنا وفي هذه اللحظات انتابني شعور بالقلق واستفاقت في ذاتي رغبة القتال.

كيف ستقع عيناي على وجه المحتل، ترى هل يستحق الذهاب إلى الوطن أن أنظر إلى وجه عدوي، لأول مرة سأكون أمام الإسرائيلي وجهاً لوجه.

ها هو العلم الإسرائيلي يرفرف فوق مكان ما وها هو

جندي مدجج بالسلاح، وها نحن على أرض فلسطين المحتلة جداً، الباص يمر بأرض فلسطين وعلى أرض فلسطين جنود ويهود أو إسرائيليون، دقائق وقد وصل الباصان إلى ساحة شبه فارغة إلا من مجموعة من الشباب يلبسون قمصاناً برتقالية، وقد ظننتهم من اليهود السمر، ولكن تبين لي بعد أن تحدثوا أنهم من سكان أريحا يعملون في المعبر.

عدد من الفلسطينيين رجالاً ونساءً يقفون بالدور مصطحبين معهم براميل صغيرة من البلاستيك مليئة بالماء، فإذا هم مجموعة من حجيج فلسطين قادم من مكة، والماء هو ماء زمزم.

في الساحة لم ألمح مظاهر عسكرية، وقفت لامبالياً، وكأني أسقط في يدي.

وقفت كغيري بالدور وبدأت أقترب شيئاً فشيئاً من صالة المعبر.

وقعت عيني أول ما وقعت على رجل سمين جداً، يلبس قميصاً «نصف كم» وعلى أحد ساعديه وشم للنجمة السداسية، ويجلس في مقصورة زجاجية يراقب على شاشة أمامه عفش القادمين وبحركة من يده يتقدم القادم إلى كوة الجوازات بعد أن ينتظر إشارة من امرأة توزع القادمين على هذه الكوة أو تلك.

داخل كل كوة امرأتان باستثناء واحدة داخلها رجل وامرأة وجميعهم باللباس المدني.

كنت في هذه اللحظة فاقداً للجاذبية، شارداً، سرت إلى الأمام، ها أنا أقف وجهاً لوجه أمام فتاتين في مقتبل العمر، شكلهما الخارجي لايمت إلى شكل سكان المنطقة إطلاقاً، شقرة الروسيات أو ما شابه ذلك، وكانت إحداهما تتمتم بأغنية وتبدو سعيدة.

فلسطيني يقف متأففاً حزيناً متوتراً غاضباً يدخل وطنه بتصريح ستتأكد منه فتاة غريبة وتوافق على دخوله إن شاءت، وقد تتصرف معه تصرفاً عدوانياً.

وضعت وثيقة السفر الفلسطينية الخاصة باللاجئين الفلسطينيين المقيمين في سوريا وتصريح الزيارة أمامها دون أن أنظر إلى وجهها ملياً، بل كنت أنظر وأشيح النظر.

– سألتني بلغة عربية ذات لكنه أجنبية « منين جاي»

– أجبتها بلغة إنجليزية « I›m from Syria»

في تلك اللحظة لما أدرِ لماذا أجبتها باللغة الإنجليزية، ولكني بعد تأمل بإجابتي بلغة إنجليزية فهمت أسباب تصرفي هذا.

إنها على أرض عربية فلسطينية وحدثتني بلغة عربية

(مكسرة) ليست لغتها، وبالتالي فإن لغة تفاهم مع غريب عن عالمنا هي لغة أخرى، والإنجليزية هي اللغة الشائعة، فأنا ذهبت إلى دول أوروبا الغربية لا أتحدث إلا بلغة إنجليزية «مكسرة» أيضاً.

هذه المرأة غريبة عن المكان، وغريبة عن لغة أهل المكان، فكان من الطبيعي أن أحدثها بلغة غريبة هي الأخرى. الإنجليزية غريبة عني كما هي العربية غريبة عنها، الإنجليزية لا تقيم أي تواصل آخر باستثناء التواصل العملي المؤقت.

حين تلتقي بأبناء جلدتك سرعان ما تصبح اللغة ذات جمالية خاصة، حتى ولو كانت أداة تواصل عملي.

عربية الموظفة غير العربية تزيد من الهوة الفاصلة بيني وبينها، تزيد اغترابها عن المكان ولا تقربها مني أبداً. أبداً..

كان يمكن أن أحدثها باللغة الروسية وكذلك لم أفعل، فالروسية لغة تعلمتها في وطنها وكتبت فيها وبنيت علاقات تواصل من خلالها، ولو أني حدثتها بالروسية وكانت بالأصل روسية لنشأت علاقة تواصل مباشرة بيني وبينها ونسيت للحظة ما يعبر عنه المشهد، مشهد الفلسطيني القُح ابن طولكرم- ذنابة يستأذن أوروبية لا صفة لها سوى أنها يهودية فصارت تمتلك الحق وتسلبه عن الآخرين.

ردت بلغة إنجليزية وبنوع من دهشة الاستحسان مع ابتسامة عفوية « You are from Damascus Welcome Welcome»

لكن وجود فتاة تلبس لباساً مدنياً، تدندن بأغنية، وتبتسم لك يخفف من استعدادك المسُبق للمشاجرة، بل ولم أشعر بالعدوانية تجاهها كما شعرت عندما رأيت السمين الموشوم بالنجمة السداسية.

خلال دقائق قليلة كان إجراء الدخول قد تم، وخرجت من المعبر إلى الجهة الأخرى.

ها أنا في ساحة كبيرة مليئة بالباصات، عالم الساحة عالم فلسطيني صرف، الفلسطينيون القادمون، على قلتهم، ينشرون لهجتهم في الفضاء، كشك صاحبه فلسطيني يبيع الشطائر.

خلال دقائق خمس أو أكثر قليلاً قامت الموظفة الإسرائيلية بإجراءات الدخول لي ولأبي عماد ولعدد ممن هم في سني أو أصغر بقليل أو أكبر.

وسرعان ما عقدتُ المقارنة بين إجراءات الحدود العربية وإجراءات معبر أريحا.

رحت أزرع المكان ذهاباً وإياباً، كان الطقس جميلاً طقس غور الأردن في الربيع، جبال أريحا تستقبلك جرداء وسوداء.

فجأة وقعت عيني على شخص يسند ظهره إلى جذع شجرة في زي عسكري ويتدلى من كتفه رشاش كبير، لقد أفسد علي فرحة اللقاء بالأرض، نظرت إليه هذه المرة كان أسمر اللون وقصير القامة نحيفاً.

تجاهلته تماماً وعدت أزرع المكان بانتظار باقي الوفد، بدأ بعض القادمين من الوفد بالخروج: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية.. ثم توقف الخروج الساعة نقترب من السابعة وبدأت الشمس بالمغيب أو غابت، وراح الليل يشق طريقه إلى المكان.

ها أنا أزرع الساحة بخطواتي وعيناي إلى الأفق مرة وإلى السماء مرة أخرى.

الجبال السمراء جرداء تماماً كأنها تلبس ثوب الحداد، أطيل النظر إليها فأكتشف جمالها الأخاذ، تبدو من قريب أنها ملساء جداً، تشعر بالأمان لأن الصعود إليها صعب، تستقبل نظراتي بنوع من الأسى والعتاب، سمعتها تسألني لماذا تركتني وأنا أمك وحضني هو الأدفأ، بل هو الدافئ وحده. يُطل علي القمر، وأنا مدينة القمر، غارقاً في حزنه ويسألني عنك، لماذا تركتني، أتذكر امرأة نزار تصرخ في وجه حبيبها «ارجع إلي صحواً كنت أم مطراً فما حياتي أنا إن لم تكن فيها».

يا جبال أريحا وجدت نفسي لقيطاً، مسروقاً من حضنك، وكبرت تائهاً لقيطاً.

يا جبال أريحا أنا لست بريئاً فلا تعذريني، ولو سفحت كل دموعي على سفوحك فلن أنظف نفسي من هروبي.

تتهادى سماء أريحا إلي وتناديني: كفكف دموعك يا أحمد. وقلب أريحا أرق من أن تفسد عليك اللقاء، أنت في حضنها ولا تدري. جبال أريحا تغني الآن فأسمع إلى آهاتها والمواويل، أسمعها تقول لي: أيها الراحل، جرح أنا وهذا الذي على أرضي غريبُ، هذا الذي يجشم على صدري غريبُ، لم أغفُ أبداً وأنا أنتظر، لن أخلع ثوب السواد إلا بعودتك.

أنتبه إلى بوابة المعبر يخرج اثنان أو ثلاثة فتصمت جبال أريحا فهي الأخرى صارت مثلي في انتظار.

كنت أظن أن الإجراءات التي تمت وجعلتنا نخرج خلال دقائق من المعبر هي الإجراءات التي ستتم مع الجميع.

أستغل الوقت للبحث في «الكشك» عن شريحة لهاتف نقّال كي أتصل بالأسرة وعدت بخفي حنين.

ساعة وساعتان ثلاث ساعات أربع ساعات لم يخرج أحد، ثمانون شخصاً داخل صالة الجوازات لم تعد نعرف عنهم شيئاً، كما أن أحداً لم يكن في استقبالنا.

الساعة تقترب من الثانية عشرة، وقال أحد السائقين

المكلفين بنقلنا إلى أريحا إن المعبر يُغلق عادة الساعة الثانية عشرة، داخل المعبر عدد كبير من الأطفال لم يذوقوا –كما نحن– لقمة من الطعام.

أجلس في الباص وإلى جانبي الصديق عبد الرحمن أبو القاسم حدثني عندما سألته عن تأخره قليلاً عن وقت خروجي فقال: أردت أن أصلي وسألت عن القبلة، وقد صليت وكان جندي إسرائيلي يراقبني. وعندما انتهيت من الصلاة تقدم مني وقال:

– أهلاً أستاذ عبد الرحمن، الحقيقة أننا نحبك كثيراً أنا وكل أفراد الأسرة نحب مسلسلاتك التاريخية، هل تحتاج إلى مساعدة..؟.

– أجابه عبد الرحمن.. لا شكراً..

– أنت منين..؟.

– أنا إسرائيلي.

– إسرائيلي، ولكنك تتحدث العربية مثلي وبطلاقة هل أنت فلسطيني..؟.

– صمت الجندي ولم يجب عن السؤال.

– ما اسمك..؟

– اسمي فلان (لم أعد أذكر الاسم).

لقد تقدم من عبد الرحمن شخص درزي عربي فلسطيني

إسرائيلي، تقدم من عبد الرحمن لأن عبد الرحمن ممثل فلسطيني، ويمثل في المسلسل التاريخي ويتحدث بلغة عربية.

في لحظة تذكر هذا الذي اسمه (س) أنه هو وعبد الرحمن ينتميان إلى عالم واحد، عندما رأى الممثل الفلسطيني عبد الرحمن استيقظت هويته العربية النائمة بفعل بزته العسكرية الإسرائيلية، هويته هذه أزالت للحظة الهوة التي تفصله عن ابن وطنه– عبد الرحمن، نسي الجندي الفلسطيني الدرزي بزته العسكرية، وتقدم من عبد الرحمن مبتسماً.

بالمقابل اللغة العربية وملامح هذا الشخص جعلت عبد الرحمن يتكلم معه مبتسماً من حاله.

(س) ابن الجليل وعبد الرحمن ابن صفورية، واحد جندي في جيش الاحتلال والآخر لاجئ قادم لزيارة وطنه.

(س) هذا ليس هو القادم من لاتيفيا وأوكرانيا أو بولونيا.. إنه فلسطيني أباً عن جد ويتحدث بلهجة أهل جبل العرب، لكنه يخدم في جيش الاحتلال لا.. لاشيء يبرر أن يكون (س) عسكرياً في جيش الاحتلال، وتحت أي ظرف من الظروف، فهناك آلاف الشباب الفلسطينيين من الدروز يرفضون الخدمة في جيش الاحتلال.

إني لأتساءل، أيهما أقرب لـ(س) العسكري الدرزي في تلك

اللحظة عبد الرحمن أبو القاسم أم الضابط الإسرائيلي، قالها (س) بكل وضوح لعبد الرحمن « نحن نحبك..نحن نحبك.. بصيغة الجمع، وقد عرف أن عبد الرحمن من صفورية، بماذا كان يفكر هذا العسكري عندما عرف أن عبد الرحمن هو ابن صفورية المحتلة المهدمة..؟ ما التغير الذي طرأ على وعيه بذاته..؟ لا أدري.

تخرج الأديبة نعمت خالد غاضبة، لقد فقدت شيئاً ثميناً ما لم أعد أذكر ما هو.

يلحق بها شخص يلبس بدلة خضراء في صورة عسكرية يحاول أن يخفف عنها بلغة عربية ولهجة فلسطينية أيضاً، سمعتها تقول شكراً سيد منذر..! اسمه منذر.. ومنذر قد اهتم اهتماماً شديداً بما أضاعت نعمت. أتساءل ما هذه الورطة الوجودية التي يعيشها هؤلاء الذين يعملون لدى الدولة العنصرية الاحتلالية وسرعان ما يظهرون هويتهم في العلاقة مع أبناء الوطن الأصلي.

كنت أسمع من السجناء المخطوفين من قبل العدو والذين يطلق عليهم الأسرى، قصصاً متناقضة من تعاطف أو عدم تعاطف الفلسطيني الدرزي أو البدوي معهم. أجل إنها ورطة وجودية.

ها نحن في حال الانتظار الذي راح يخلق لدينا الإحباط شيئاً فشيئاً، والساعة كما قلت تقترب من الثانية عشرة ليلاً، ثم فجأة راح أعضاء الوفد يتوافدون تباعاً أطفالاً وشباباً.

وتتالت الأسئلة منا نحن الكبار لهؤلاء اليافعين: ماذا حصل..؟ لماذا تأخرتم..؟ ماذا قالوا لكم..؟ ما الأسئلة التي طرحوها عليكم...؟.

عندما رأى الصهيوني المحتل هذا العدد من الشابات والشباب والأطفال أحس بالخوف الدفين والدائم من الفلسطيني. أحس بفرح هؤلاء وهم يرون وطنهم للمرة الأولى.

أمامه الآن فرصة لإفساد فرحة هؤلاء وليؤكد لهم سطوته وأنه هو صاحب القرار.

سأل الأمن الإسرائيلي كل شاب وشابة وطفل عن أصله وفصله وتاريخ حياته، ورأيه بما يجري في البلد الذي جاء منه، ثم فضلاً عن ذلك كانوا يغيبون ويتركونهم في حال انتظار.

يبدو الانتقام والحقد والانحطاط الأخلاقي في تصرف هؤلاء المحتلين في كل سلوك يسلكونه.

حين دخلنا نحن «الشَّياب» لم يكترثوا بنا لكنهم في الوقت نفسه قرروا أن يتركونا في حال انتظار كما الآخرين من

الشباب، فما الفرق بين أن تكون في الداخل أو الخارج طالما نحن في حال انتظار.

والبنية الأخلاقية لهذا اللص السارق وطناً بكامله مؤسسة على فكرة الاغتصاب من جهة وعلى الخوف من الساكن الأصلي صاحب الأرض، وهذا ما يولد لديه الرغبة في الانتقام الدائم لأن الفلسطيني الوحيد الذي يذكره بأنه غريب الوجه واليد واللسان، الفلسطيني هو المرآة الحقيقية والتي يرى فيها الإسرائيلي وجهه الحقيقي- محتل، مغتصب، غريب.

لا.. لا يمكن لليهودي- الصهيوني أن يتحرر من وعيه هذا بوصفه غاصباً ومحتلاً وغريباً إلا إذا زالت دولة إسرائيل من الوجود.

والحق أن لا حل للمشكلة إلا بزوال إسرائيل، وزوال إسرائيل، كما أعتقد هو مسألة وقت لأن وجودها قائم بفضلنا نحن العرب وليس بفضل قوتها كما يعتقد السذج.

صعد اليافعون والأطفال إلى الباصات وهم أشد احتقاراً لعدوهم والأطفال أشد إحساساً بفلسطينيتهم.

أجل: هل يعقل أن يُحقق مع ثلاثين طفلاً تقريباً أكبرهم لايتجاوز الثانية عشرة من عمره.؟ هذا ما جرى مع أطفال فلسطين أمام معبر أريحا.

في لحظة نسي الفلسطيني كل ما تعرض له من حقد وراح ينشدعلى «الرباعية».

ما هذه القوة الروحية التي يمتلكها الفلسطيني، لقد تحدث الشباب عما جرى لهم داخل المعبر بنوع من السخرية والضحك والاستخفاف بالعدو والاستغراب منه، بل لقد تعامل الشباب مع رجال الأمن اليهود بوصفهم حمقى، تماماً كما أوصانا المشرف على الرحلة في عمّان.

تجاوزنا منتصف الليل بكثير، الباصات تتجه لأريحا، الليل حال بيننا وبين رؤية ملامح الوطن.

وصلنا بيت البلدية وكان المشهد رائعاً جميلاً وعظيماً.

رجال وشباب وصبايا وأطفال جاؤوا إلى مقر البلدية لاستقبالنا، سلّموا على كل واحد منا، ووضعوا في أعناقنا عقود الورد، والكوفية الفلسطينية، الفرح يعم المكان.. الحمد لله على السلامة أهلاً بكم في ربوع الوطن، يتعرف عليك بعض المستقبلين، بخاصة على عبد الرحمن أبو القاسم ندخل القاعة: الأكل قد برد لأنه جهز للتناول الساعة السابعة والنصف وها نحن في الواحدة صباحاً.

رغم أني لأول مرة في حياتي أبقى فيها دون طعام من الساعة الرابعة بعد ظهر السبت وحتى الساعة الواحدة صباح

الاثنين فإني لم أحس بالجوع أو بالعطش أبداً، كنت في حالة وجودية فذة لم أشهد لها مثيلاً في حياتي.

في الثالثة من صباح الاثنين وصلنا رام الله مارين بالبيرة ودخلنا غرفنا في الفندق فاقدي الرغبة في النوم لأن الساعة البيولوجية قد تعرضت لخراب حقيقي.

رام الله

الاثنين /٩/١٢/ ٢٠١٢/

العاشرة صباحاً، الأكثرية أصبحت داخل المطعم تتناول طعام الفطور، تختلط الأصوات ولاتكاد تسمع.. «شايفين الوطن ما أحلاه..» «شايفين ما أحلى البلاد».

مع أن أحداً لم يرَ بعد «البلاد» إلا من النوافذ. لاشك أنها أحكام صادرة عن حب «البلاد».

إن استخدام كلمة «البلاد»في صيغة الجمع شائعة لدى كل الفلسطينيين في الداخل والشتات، فأنت في المخيم تسمع دائماً «سقى الله أيام البلاد»، كنا «في البلاد» و«أيام البلاد» توفي «في البلاد».

فـ «البلاد» بأل التعريف تعني فلسطين كل فلسطين. ويبدو أن الحس اللغوي عند العرب عموماً قويٌ، لأن «بلد» يشير إلى مكان محدود، ولهذا فإن الشعراء في الغالب عندما يتحدثون عن الوطن فإنما يستخدمون: «بلاد».

بلادي بلادي أنت حبي وفؤادي، بلاد العرب أوطاني، بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة، والحق أنها كلمة حميمة في صيغة الجمع أكثر من صيغتها المفردة.

خلال وقت قصير نشأت علاقات معشرية حميمة وكان

الجميع يعرفون بعضهم بعضاً قبل هذا اللقاء.

تستطيع أن تتعامل مع هذا الجمع الصغير من اللاجئين الفلسطينيين القادمين من الأردن ولبنان وسوريا نموذجاً لمجتمع الشتات.

شباب وصبايا ورجال ونساء وعلاقات مفتوحة دون أي إحراج أو تحفظ، أبناء شهداء، مناضلون، مثقفون، طلاب، خريجون جدد، طلاب، نساء ورجال، يشكلون مجتمعاً فلسطينياً مصغراً.

وضعت في مخيلتي برنامجاً خاصاً بي دون التزام ببرنامج الأسبوع الثقافي التربوي، وحضوري أصلاً حضور معنوي وليس لي في هذا الأسبوع فاعلية خاصة، لأن فاعلياته هي رحلات وحفلات وزيارات للمدن مع احتفالات خاصة.

وقد ضم الوفد فرقاً فنية من لبنان بقيادة سيدة محترمة، ومغنياً من لبنان فضلاً عن المغني الشعبي «أبو عرب».

في صباح الاثنين كان اللقاء مع الصديق يحيى يخلف مع الوفد كله، وهو شخص ودود ومهذب. وقد عشنا فترة علاقات يومية في دمشق بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان وكنا نلتقي بالمقر الجديد لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطيني في مخيم اليرموك- بيت الأستاذ محمود موعد الذي غادر الحياة مبكراً.

وقد باعدت بيننا المسافات حين ذهب إلى تونس ومن ثم إلى رام الله، وقد التقيته في عدن عام ١٩٩١ كما التقيته في القاهرة عام ٢٠٠٠ وكانت علاقات حميمة جداً، والتقيته في كل مرة كأن يأتي إلى دمشق.

وقد تحدث يحيى حول أهمية الثقافة في الكفاح الوطني الفلسطيني كما أشار إلى أهمية إعلام فلسطين في كل مجال الإبداع، تحدث يحيى عن أهمية درويش في الشعر وإدوارد سعيد في النقد وأحمد برقاوي في الفكر.

ما أن أنهى يحيى يخلف لقاءه حتى اصطحبني معه، خرجنا من الفندق الواقع في مكان ذي فضاء وخلفه أرض محتفلة بالربيع.

أتأمل الأرض الخضراء قبل أن أركب السيارة إلى جانب يحيى، ها نحن نخترق شوارع رام الله باتجاه مكان عمله، شوارع نظيفة واسعة، بيوت حجرية، محدودة الطوابق، أغلبها بني حديثاً أتأمل المارة، والمحال، أسماء الشوارع، ألتقط بعيني صوراً لكل الأماكن التي أمر بها وأختزنها في الذاكرة.

الأبنية التي عليها آثار تقادم الزمن في منتهى الجمال، أبنية تنتمي إلى عصر الحداثة الفلسطينية نهاية العصر العثماني، يشرح يحيى لي- ونحن نسير من رام الله..هذه القرية أو البلدة الصغيرة التي لم يكن عدد سكانها في بداية القرن العشرين

يتجاوز ٢٠٠٠ نسمة هي الآن مدينة بالمعنى الدقيق للكلمة من حيث البنية العمرانية وتنظيم الشوارع والمحال والمطاعم والمؤسسات الحكومية والمدنية ودور الثقافة.

فمنذ أن أصبحت مقراً للمقاطعة (وكلمة مقاطعة تعني مبنى الرئاسة) بعد أوسلو تحولت هذه البلدة إلى مكان للعمل والسكن والعمران، وإذا لم تكن من أهل المدينة أو من سكانها فإنك لن تميز بينها وبين البيرة الملاصقة لها، ندخل مقر يحيى يخلف، وهو مكتب متواضع، ينضم إلينا الشاعر غسان زقطان.

لم أشعر أبداً أني غريب عن المكان بل خامرني إحساس أني أعود فعلاً إلى مكان كنت فيه بعد غربة طويلة، بعد فترة قصيرة- يقدم لي يحيى «كرت» هاتف نقال وأصبحت الآن قادراً على الاتصال بالأصدقاء داخل الضفة وبالأسرة في الشام أمكث فترة قصيرة عند يحيى على أمل اللقاء به غداً.

أتصل بصديقي إياد البرغوثي بعد أن اتصلت بنبيلة والأولاد، سعادة إياد العامرة طلت من صوته المرحب بكل دهشة..

وحين عرف أني في مكتب يحيى يخلف قالها: «فوراً سأرسل لك «العبد»قريبه الذي يعمل معه في مركز رام الله لحقوق الإنسان- فوراً».

أودع يحيى يخلف ويسألني عن رغباتي:

– لا شيء غداً أريد سيارة تقلني إلى طولكرم، أريد أن أزور بيوتنا.

– لك ما تريد.

ألتقي بإياد لقاءً حميماً، من كان يظن أننا سنلتقي على أرض فلسطين..!.

صداقتي مع إياد البرغوثي تعود إلى خمسة وثلاثين عاماً حيث التقينا في المدينة الجامعية في لينينغراد – سان بطرس بورغ، لم يمض وقت طويل على لقائنا حتى تمت صداقة حميمة وسكنا في غرفة واحدة معاً.

كان إياد حينها شيوعياً متعصباً، وكنت أنا قد طلقت الانتماء إلى حزب البعث.

إياد آتٍ بمنحة من «الحزب الشيوعي الفلسطيني» وأنا آتٍ بمنحة من «م.ت.ف».

إياد خريج كلية العلوم قسم الكيمياء في جامعة بيرزيت وأنا خريج كلية الآداب قسم الفلسفة جامعة دمشق.

كلانا من الضفة الغربية، كلانا من عائلتين مشهورتين في فلسطين.

يخرج إياد في الصباح الباكر إلى كلية الكيمياء ويعود في ساعة متأخرة من المساء، ولهذا تراه دائم التذمر من دراسته،

فضلاً عن ذلك فهو مسؤول الحزب الشيوعي الفلسطيني في لينينغراد، وما يترتب على ذلك من اجتماعات- لامعنى لها طبعاً.

أنهى إياد الماجستير في الكيمياء، وفي إحدى الجلسات «الرايقة» قلت لإياد:

- مالك ومال الكيمياء يا رجل، أنت شخص شيوعي، تعمل بالسياسة، ومثقف، ومصيرك على ما أعتقد سيكون مرتبطاً بالعمل السياسي الاجتماعي، وإني لأعتقد أن الفلسفة تفيدك أكثر من الكيمياء، لماذا لا تنتسب إلى كلية الفلسفة وتنتسب إلى الدراسات العليا في أحد أقسامها والقانون السوفييتي يسمح بذلك، بل إن في كلية الفلسفة قسماً خاصاً بخريجي الكليات العلمية.

راقت الفكرة لإياد وذهبنا معاً إلى الكلية وهكذا كان، وصار إياد طالب دراسات عليا في كلية الفلسفة ويخرج حاملاً دكتوراه في الفلسفة، ثم عاد إلى جامعة النجاح أستاذ فلسفة- وبعد أن أمضى سنوات مدرساً في جامعة النجاح أسس مركز رام الله لحقوق الإنسان وشبكة التسامح العربية.

قادني إياد بعد التعرف على مركزه في جولة إلى رام الله، إلى بيته، حيث يسكن، إلى تلك التلال الجميلة الخضراء، إلى الشوارع وراح يشرح لي.

ياه كم جميل هذا العالم، كم هو جميل أن نتسكع في مدينة هي مدينتك، وهي وطنك.

رحت أفكر وأنا أتأمل هذا العالم الجميل كيف السبيل لأن أمضي بقية عمري هنا دون أن أقطع التواصل مع دمشق.

بعد تسكع دام ساعات يقلني إياد إلى قصر الثقافة حيث حفل افتتاح مهرجان الثقافة والتربية.

دخلت إلى قصر الثقافة وكان الجمهور جمهوراً كبيراً في البهو ينتظر دخول قاعة الاحتفالات. لم أعد أدري من أين تأتيني التحايا، وجوه أعرفها ولكني لا أعرف بعض أسماء الأشخاص الذين عانقوني.

يقودني شخص إلى القاعة ويجلسني في الصف الأمامي. يجلس في الصف الأمامي كبار مسؤولي السلطة على رأسهم الطيب عبد الرحيم الذي ألقى كلمة الافتتاح. ثم بدأ الحفل الفني، يصعد القادمون من سوريا ولبنان والأردن يلبسون الزي الفلسطيني باستثنائي طبعاً، وبيدهم مفاتيح فلسطين، كان المفترض أن يكون الفنان وديع الصافي بيننا، يكتفي وديع بكلمة مسجلة، والفتاة- الطفلة «يارا»: تغني فبكت وأبكت القاعة كلها.

ينزل عبد الرحمن أبو القاسم من درج الصالة لابساً زي أهل فلسطين الفلاحي، ويروح بصوته الجهوري والحميم يسرد

قصة المأساة.

لوحة كبيرة في المسرح مكتوب عليها:

«فلسطين لنا والاحتلال إلى زوال» وقول لدرويش: «لنا الحاضر والماضي ولنا المستقبل».

تكمن أزمة الصهيونية بل ومأزقها هنا بالذات، في هذا الوعي بالوجود. وعي الفلسطيني بوجوده، بعد أربع وستين سنة من الاحتلال يصرخ الفلسطيني في وجهه: ارحل، تقول له أجيال ولدت بعد النكبة: ارحل.

أطفال بعمر الزهور يرقصون ويدبكون ويغنون ويقولون له: ارحل، وجدان شعب ممتلئ بفلسطين.

وقائل يقول: إنْ هو إلا كلام، إلا لغة، إلا أناشيد، إلا أغان، كيف يمكن مواجهة عدوٍ واقعي بالوجدان.

دون وجدان مملوء بفلسطين لايمكن مواجهة العدو إطلاقاً، الوجدان هو الذي وقف وراء هبة البراق وثورة ٣٦ وثورة ٦٥ وانتفاضة ١٩٨٧ وما زال يقوم بالدور الرئيس في التمرد، الوجدان هو الذي زرع الشهداء على أرض فلسطين وحول فلسطين، الوجدان هو الذي يبقي فلسطين حية ومستمرة بوصفها قضية. بسبب هذا الوجود، بسبب القول الدائم «فلسطين لنا» ولدت إسرائيل مأزومة وستبقى مأزومة إلى أن تزول، فزوال إسرائيل ومأزقها رهن بزوالها، لايمكن أن تزول

أزمة إسرائيل مع بقائها.

كل طفل وشاب على المسرح يعرف اسم بلدته، شابات وشباب أولاد شهداء بنات شهداء قبور آبائهم مبعثرة في مقابر الشهداء في مخيمات اللجوء.

العدو صادر شتلة ياسمين دلال، دلال ابنة الشهيد، التي لم يتحمل العدو رؤية الياسمين بيدها في معبر أريحا.

ما الذي حمل العدو على فعل ذلك، ما الذي كان يمكن أن يحصل لو تركها وشأنها، تركها تزرع شتلة الياسمين حيث تشاء وتهيل عليها تربة دمشقية.؟ هل خاف من الياسمين وحفنة تراب. أجل خاف من الدلالة الرمزية، خاف من الوجدان، خاف من الكوفيات التي التفت حول أعناق الصبايا والشباب.

ثم صعد أبو عرب، واسمه إبراهيم محمد صالح، الذي ولد في قرية الشجرة عام ١٩٣١ وهو ابن شهيد، صعد بكوفيته القروية الفلسطينية، والثمانون لم تنل من صوته وإن نالت من عينيه.

صعد أبو عرب الذي بالكاد يمشي وبالكاد يرى وبالكاد تمتد يده المرتجفة لالتقاط شيء، أبو عرب احتفظ بصوته وذاكرته. احتفظ بالأهازيج الثورية والمواويل الشعبية. هنا اللاجئ المقيم في مخيم حمص للاجئين ينتقل من عمان إلى تونس، بوصفه مغنّي الثورة، استمر التصفيق لدقائق عند

صعوده إلى المسرح ليبدأ وصلته الأهزوجية الثورية والتي سمعتها أكثر من مرة في دمشق.

والحق إني لست مغرماً بالأهازيج ذات النغم الفلاحي أو المواويل الجبلية التي يغنيها وديع الصافي وما شابه وديع، لست مغرماً بالنغم ولا بالكلمات العادية، وفكرت في الخروج وحدي، لكن الحياء لجمني، بخاصة من أولئك الذين رحبوا بي أجمل ترحيب وهم جلوس إلى جانبي.

انتبهت إلى أن أحداً ما يربت على كتفي جالساً في الصف الثاني خلفي، نظرت إليه فإذا هو محمد المصري أبو وسيم، يا للفرحة العارمة. محمد المصري- الصديق الذي كان يعمل في مجلة الهدف وصار مديراً لتحريرها والذي كان يهتم اهتماماً خاصاً بمقالي الأسبوعي، والذي نشر لي عدة دراسات في مجلة المبتدأ الذي كان يصدرها محمد المصري الشخص المهذب والودود الذي كان يسكن مخيم اليرموك، سنوات عشر تقريباً كنت أراه في الأسبوع مرتين أو ثلاث مرات.

ياه.. تذكرت أيام «الهدف» المجلة الفلسطينية التي كانت أوسع انتشاراً. تذكرت الراحل محي الدين صابر، الشخص المهذب الذي إذا أراد أن يغير كلمة من مقالي لضرورات سياسية أو ما شابه ذلك يهتف لي ويستسمحني أن يفعل. أتذكر الراحل عمر قطيش الذي خلف صابر محي الدين، أتذكر عماد رحايمي

والذي علمت فيما بعد أن اسمه الحقيقي عريب الرنتاوي. أتذكر الكتاب الذين تحلقوا حول «الهدف». أتذكر جورج حبش الذي أصبح أقرب الناس إلي.

صافحت محمد المصري واقترحت عليه فوراً الخروج من القاعة والتسكع في رام الله، فأنا لا أريد أن أضيع وقتاً داخل الأمكنة المغلقة ذات الطابع الرسمي بشكل خاص.

ونحن نهم بالخروج فإذا عمر حلمي الغول- عمر الذي تشاركنا معاً في تأسيس مركز عيبال، والذي لاتغادر البسمة شفتيه، وقد أصبح مسؤولاً عن دار عيبال.

في مقهى جميل يطل على الشارع المزدحم نجلس أنا ومحمد المصري وعمر حلمي الغول.

أسألهما: هيا حدثاني عن أحوالكم، وما هي أخبار الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

يبتسم محمد المصري ويقول: اسمع ياسيدي: كما تعرف عدنا بعد اتفاق أوسلو، وذهبت إلى غزة وعملت مع السلطة الفلسطينية في أمن السلطة حتى وصلت إلى رتبة لواء.

- لواء.. لا أصدق.. إذاً أنت اللواء محمد المصري.

- نعم وقد تركت هذا العمل بعد احتلال غزة من قبل حماس، فبعد أن أُلقي باللائمة عليَّ وسرحت من الخدمة عدت إلى الخدمة بعد إثبات براءتي، ومن ثم طلبت إحالتي إلى

المعاش. انتسبت إلى كلية علم النفس، وحصلت على الدكتوراه في علم النفس ثم أسست المركز الفلسطيني للبحوث والدراسات الاستراتيجية هنا بعد أن نقلت من غزة إلى رام الله.

– هل أفهم من ذلك أنك الآن خارج الجبهة الشعبية..؟

– نعم أنا وعمر.

– وأنت يا عمر..؟

– قدمت من غزة، واعتقلت من قبل حماس بعد انقلابها المسلح. ثم جئت إلى رام الله، وأنا أعمل الآن مستشاراً في رئاسة الوزراء بمرتبة وزير.

أسألهم عن طلال عوكل وأحمد كنعان وأبو اصطيف وآخرين.

– كلهم خرجوا من الشعبية، ويضيف عمر الغول: على أية حال سأتصل بنايف جراد وستلتقي به وستلقي محاضرة عنده في جامعة الاستقلال.

– أسأله: من هو نايف جراد– فأنا لا أعرفه..!.

يستغرب كيف لا تعرفه وأنت تسألني عنه..! هو ذاته أحمد كنعان هو اسمه الحركي، أما اسمه الحقيقي فنايف جراد.

وفكرة الأسماء الحركية كانت شائعة في الثورة، بخاصة الاسم الذي يبدأ بـ «أبو فلان» حتى لاتكاد تعرف الاسم الحقيقي لهذا الذي يبدأ اسمه بـ «أبو».

وإني لأستطرد هنا لأورد القصة الآتية حول الاسم الحركي، وإن كانت بعيدة الشأن عن موضوعي الآن، ولكن الشيء بالشيء يذكر.

فلقد دعاني تلفزيون أبو ظبي لحوار حول الشأن الفلسطيني، في الفندق جاءني آنذاك المذيع الأشهر جمال الريان وهو من عائلة فلسطينية كرمية، وعندما سألته عن الطرف الآخر في الحوار أجابني إنه شخص اسمه «عريب الرنتاوي».

– وسألني: هل تعرف عريب..؟.

– أجبت: لا، أنا لا أعرف شخصاً بهذا الاسم، من أين جئت لي بهذا الشخص..؟.

– أجاب: لا إنه شخص معروف ولديه مركز أبحاث مهم في عمان.

حين صعدت إلى غرفتي لأستريح استعداداً للقاء التلفزيوني رن جرس الهاتف.

– أنا: ألو.. نعم مين..؟!.

– هو: أنا عريب الرنتاوي.

– أنا: أهلاً سيد عريب.

– هو: هل لديك من الوقت..؟

– أنا: لا بأس دقائق ونتقابل في البهو، ولكن ماهي العلامات التي ستعرفني بك.

– «لا تهكل هم أنا أعرفك».

نزلت إلى بهو الفندق وجلت في ناظري على كل الأنحاء وبالمصادفة وقعت عيناني على صديق قديم كان هو الآخر يعمل بـ «الهدف» حين كنا نكتب فيها واسمه عماد الرحايمي.

– صحت من فرح.. عماد.. عماد ما الذي جاء بك إلى هنا..؟

– وبعد ترحيب متبادل: قلت له إني أنتظر شخصاً أسمه عريب الرنتاوي.

– أنا عريب الرنتاوي.

–عماد الرحايمي هو عريب الرنتاوي، ولكن أحتاج إلى وقت طويل حتى أتعود على استخدام اسمه بوصفه هو ذاته عماد، ولهذا فطوال الحوار وأنا أناديه يا أخ عماد ثم أعود لأصحح عفواً عريب.

والحق إن استعادة الاسم الحقيقي ذات دلالة مهمة في التحول، تحول الواقع وتحول الشخص.

فالاسم الحركي هو اسم نضالي، ينطوي على خوف من العلن، ومرتبط بالانتساب إلى الحركات الكفاحية الخطيرة.

عماد الرحايمي بعد أن ترك الجبهة الشعبية وعاد إلى الأردن وصار صاحب مركزٍ للأبحاث عاد إلى اسمه الحقيقي العلني عريب الرنتاوي. إنه لم يعد خائفاً من أحد، لم يعد في مرحلة الكفاح والنضال، لم يعد عضواً في الجبهة الشعبية،

وقس على ذلك أحمد كنعان الذي عاد إلى اسمه الحقيقي نايف جراد.

إنه هو الآخر لم يعد عضواً في الجبهة الشعبية، هو الآن رئيس جامعة، هو الآن نايف جراد.

توديع الاسم الحركي توديع لمرحلة في الحياة، ربما توديع للمرحلة الأجمل.

والحق إني شعرت بالانزعاج لخروج هذا الكادر المهم من الجبهة الشعبية، وقد كانوا من ذوي الفاعلية الحقيقية، وأعضاء في تنظيم يتسم بالنزاهة والإخلاص، متمثلين سلوك قائدهم الدكتور جورج حبش.

ليل رام الله أشبه بليل دمشق، المقهى مليء بالشباب والصبايا والكهول، والجو مفتوح، تأتيك التحايا من كل جانب، نسائم رام الله الربيعية تشعرك بنوع من البرد الخفيف، الأصدقاء الذين تكاثروا حول الطاولة يبثون عواطفهم النبيلة.

أعود إلى الفندق في ساعة متأخرة من الليل، أدخل فأرى بعض الأعزاء من الوفد جالسين في مقهى الفندق، أنضم إليهم وأنظر من خلال الزجاج إلى ليل رام الله.

فلسطين تحيطني من كل جانب: اللهجة، المكان، الزمان، الحب، وأنا في انتظار اليوم الآخر.

الرحلة إلى طوباس
وعناق ذنابة

الأربعاء / ١١/ نيسان

أفتح النافذة المطلة على الشارع العام، أعب من الهواء وأتأمل الأفق، أفق رام الله المليء بالبيوت المتكئة على قمم التلال، أنزل إلى الصالة يظهر إسماعيل تلاوي، هذا الشخص الذي يضج بالحيوية والفرح، لم ينل منه العمر الذي يبدو أنه قد تجاوز العقد السادس.

إسماعيل هذا يتوحد في الفاعلية التي ينظمها ويشرف عليها، يعانقني إسماعيل بكل حرارة، ويسألني بكل ود كيف كان حفل الافتتاح البارحة. أشيد بالحفل، وأشيد بإسماعيل وبجهده، يفرح بالكلمة الجميلة ويستأذن لترتيب الصعود إلى الباصات المتجة هذا اليوم إلى طوباس. غيّرت من المخطط الذي رسمته في ذهني وكان أحد بنوده أن أتصل بيحيى يخلف كي يرسل لي سيارة تقلني إلى بلدي- طولكرم وما حولها من قرى يسكنها آل البرقاوي.

فالذهاب إلى طوباس أمر يستحق تغيير برنامجي- فإن لم أذهب إلى طوباس في هذه الرحلة - فقد لا أراها.

يسحرك الطريق إلى طوباس، ويصدق عليها قول الشاعر

«يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما» الجبال أخفت جسدها بالزهور المتنوعة، والأوراق تتمايل رقصاً على أنغام النسائم.

نيسان فلسطين طقس من طقوس أعياد الخصب والجمال، فأنّى اتجهت رأيت شغب الطبيعة وقهقهتها.

أجلس إلى جانب إسماعيل تلاوي الذي يقود السيارة بنفسه ونشوة نجاح أسبوعه الثقافي التربوي بادية على وجهه.

يحدثني إسماعيل قائلاً: بعد قليل سنصل يا دكتور إلى نبع الباذان.سترى أنه أشبه بالخيال، هناك سيكون باستقبالنا جمع من الأصدقاء والمسؤولين، سنتناول مناقيش الزعتر فطوراً بزيت الزيتون البلدي، سترى يا دكتور ما أجمل البلاد.

نصل قمة جبل تتفجر منه الينابيع وتنحدر إلى وادٍ أخضر، إذا أغمضت عينيك وتصل إلى وادي الباذان وتفتحهما عند الوصول وكنت من أهل أنطاكية أو من زائريها فستحسب نفسك في تلال أنطاكية وينابيعها.

على إحدى القمم مكان استراحة، تجلس فتجري من تحت قدميك الينابيع، نيسان لم يترك لوناً من ألوانه إلا ورصع بها التلال والوديان.

في استقبالنا رهط من أهل الوادي ومسؤولي المنطقة، يتقدم العديد من عبد الرحمن أبو القاسم وأبو عرب مسلمين

طالبين التقاط الصور معهما.

وكالعادة تلقى الكلمات والتي تتحدث عن العودة والتحرير والنهايات السعيدة للشعب الفلسطيني.

يتصدر أبو عرب المنصة وينشد بعضاً من مواويله، وبعد أن انتهت مراسم الاحتفال يقدم لنا الفطور مناقيش الزعتر وفطائر الجبن.

والحق إنني لا أحب مناقيش الزعتر ولا فطائر الجبن، غير أن تقديم مناقش الزعتر طقس وطني وتأكيد هوية: الزعتر رمز من رموز فلسطين، يذكره الشاعر درويش ويعنون قصيدته «أحمد الزعتر» ويسمي لاجئو لبنان مخيمهم بمخيم تل الزعتر، ورغم أن الزعتر نبات منتشر في كل المناطق الجبلية المتوسطية ولكن ما أن يذكر الزعتر حتى يذكر الزعتر الفلسطيني، ثم زيت زيتون جبال نابلس، والقمح من سهول فلسطين.

الفلسطيني كي يعلن ذاته يستحضر الرموز ويخلقها تماماً كما الثوب الفلسطيني والحطّة الفلسطينية.

حين اعتمر أبو عمر الحطة والعقال، فإنما يؤكد انتماءه الفلسطيني.

حنظلة الذي كان يرمز لكاريكاتير ناجي العلي صار أيضاً رمزاً عند الشباب والشابات الفلسطينيين والفلسطينيات. ويعلق حنظلة على الصدور.

نتناول طعام الفطور على صوت خرير الجداول وفي إطار الفرح الغامر البادي على كل الوجوه والمنبعث من الكلام.

لايفسد عليك فرحك إلا تذكر الرحيل المبكر عن فلسطين، هاقد مضى يومان على الرحلة ولم يبق إلا أسبوع واحد، بعد أسبوع ستشد الرحال من حيث أتيت.

إنه لأمر لاعقلاني أبداً، عدو منحك حق الزيارة إلى وطنك، أي عالم منحط هذا..!.

يوصيك إسماعيل التلاوي قائلاً: نرجوكم أن تصحبوا التصريح معكم، أجل منحنا العدو تصريح زيارة إلى الوطن، تذكر أمر كهذا يفسد عليك فرح الرحلة كلها، لو أن الطبيعة والأصدقاء والمدن والأهل والأرض تنسيك هذه الحقيقة المرة.

– نسأل إسماعيل ونحن نتأمل الوادي الأجمل: ماذا لو أنّا بقينا هنا ولم نعد.

– لاشيء ولكن تكون مخالفاً وباستطاعة العدو أن يرحلك إذا ما اكتشف أمرك.

نغادر وادي الباذان ونبعه الساحر إلى الفارعة بل إلى ما كان يسمى سجن الفارعة.

نصل مركز الشهيد صلاح خلف، المركز هذا كان بالأصل مركزاً للقوات البريطانية أيام الانتداب، ثلاثينيات القرن الماضي، ثم تحول إلى ثكنة للجيش الأردني بعد نشأة المملكة

الأردنية الهاشمية حتى عام ١٩٦٧ وبعد الاحتلال حوّل العدو هذه الثكنة إلى مركز عسكري ثم إلى سجن في مطلع الثمانينيات.

تسلمته السلطة بعد اتفاق أوسلو في عداد تسلمها لمحافظة نابلس عام ١٩٩٥، وجعلت السلطة منه مركزاً لإعداد الكوادر الشابة باسم مركز صلاح خلف.

تدخل بناءً مربعاً ومسوراً داخله إحدى وعشرون غرفة، أطلق الفلسطينيون عليه المسلخ أيام تحويله إلى سجن من قبل العدو، في هذا المبنى المطل على العالم مارس العدو أبشع أنواع التنكيل والتعذيب ضد المقاوم الفلسطيني، المقاوم الشاب والشيخ والطفل.

يشرح لنا المشرف: هذا صف من الزنازين التي أكلت من أجساد أبنائنا.

هنا غرفة التحقيق حيث مارس العدو كل ما من شأنه أن ينال من كرامة الفلسطيني السجين، هذا مهجع لنوع آخر من السجناء.

أية مفارقة أعجب: محتل يجعل من مكان مشرَّع للريح ويطل على الأخضر سجن لأبناء الوطن الذين يقولون له لا.

الفارعة سجناً، مكان لاختطاف الفلسطيني من الفضاء من بيته وأرضه لأنه يقول للصهاينة كما قالها درويش: «خذوا

موتاكم وارحلوا..».

الفلسطيني هنا لاتهمه تعقيدات المؤرخين وبحثهم عن تاريخ فلسطين، لايهم ماذا يقول السياسي هذا أو ذاك.

إنه يعرف حقيقة ناصعة وساطعة وواضحة ومتميزة ألا وهي: إنه صاحب الأرض وهذا وطنه وهو الوحيد الذي يملك حق العيش فيه. إنه هو وحده الذي عاش ويعيش على هذه الأرض دون انقطاع منذ ألفي عام.

بين قول عدونا «كنا هنا» وقول الفلسطيني «أنا مستمرٌ هنا» فرق في الوجود ووعي الوجود ومعناه.

اليهودي قابع في تاريخ أسطوري والتاريخ الأسطوري قابع في مخيلته.

ولهذا هو كان هنا، فيبحث في الكتب القديمة ويبحث عن قبور علَّه يجد ما يبرر عنصريته في تحويل ماضٍ إلى وعي بالحاضر.

فيما الفلسطيني هو ابن الماضي والحاضر والمستقبل، إن وجوده الموصول يمنحه ثقة بأن أمله سيتحقق لا محال، واللاجئ واعٍ لوجوه بوصفه انقطاعاً قسرياً عن صيرورة الزمن التي لا تنفصل.

إنه المكان هو هو من حيث هو واقع مادي، لكنه ليس هو في معناه ودلالته الآن.

المكان السجن هو وعي المحتل بالمكان، إنه لم يرَ في هذا المكان واحة للحياة بل قبراً للفلسطيني الحي.

العدو الذي لاينتمي إلى هذا المكان يجعله مقصلة «اللا» ولكل من ينطق بـ «اللا».

فيما الفلسطيني يعيد الحياة الحقيقية إلى هذا المكان الذي تحميه الطبيعة بكل ما جادت به من جمال.

السجن الذي جعله عدوك يأكل أراوح الشباب ها هو الآن يمنح روح الشباب الأمل.

واسمه مركز صلاح خلف.

تستعيد ذاكرتي صورة هذا الرجل أول مرة أراه كانت في دمشق عام ١٩٧١، والمرة الوحيدة التي صافحته فيها كان ذلك في الجزائر عام ١٩٧٣ حيث كان يتابع مؤتمر الاتحاد العام لطلبة فلسطين في قصر المؤتمرات بمنطقة سيدي فرج ولم أره بعد ذلك أبداً.

هذا الرجل– المناضل المولود في يافا عام ١٩٣١ واللاجئ إلى غزة، كان واحداً من دهاة قياداتنا الفلسطينية.

اغتالته جماعة أبو نضال في تونس عام ١٩٩١ وقيل إن الموساد هي التي اغتالته.

ومهما كانت اليد التي امتدت لاغتيال أبو إياد من جهة انتمائها فهي يد موسادية بامتياز. والحق أن أيدي الموت التي

امتدت إلينا متنوعة جداً، لكنها يد واحدة، يدٌ عدوة.

وأنت تنظر إلى وجه أبو إياد تتذكر أن أغلب قادة فتح التاريخيين قد قضوا قتلاً واغتيالاً:

كمال عدوان، يوسف النجار، «كمال ناصر»١، أبو علي، أبو إياد صلاح خلف، أبو الهول، أبو جهاد، ماجد أبو شرارة، سعد صايل.. وأخيراً أبو عمار.

كما هم أغلب قادة حماس والجهاد والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تتأمل صورة أبو إياد المرسومة رسماً والمعلقة على جدار مدخل المركز فترى وجهاً سمحاً وطيباً وليس في قسماته أية قسوة وتصنع، وليست صورته هي الموحية بهذا فقط بل إن وجهه في الحياة هكذا كما أذكره.

والحق أن الثائر في حقيقته هو هكذا شخص سمح أخلاقي كريم معتد بذاته حر.

ولو تأملت وجه أبو عمار وجورج حبش مثلاً فسترى الوجه النموذجي للثائر كما هو حال وجه إرنست تشي غيفارا، فيما لو تأملت صور ووجوه الطغاة الجنرالات على وجه الخصوص الذين يحكمون أوطاننا العربية فسترى ملامح الغباء والقسوة والحقد والحركات المرضية.

بعد أن انتهينا من الجولة في مركز أبو إياد وتجولنا في المناطق المجاورة اصطحبنا الأخ إسماعيل التلاوي إلى سهول

طوباس المطلة على الوادي – أنا وعبد الرحمن أبو القاسم – ما أن رأيت سهول القمح والسنابل تتمايل طرباً على أنغام الهواء العليل حتى وجدتني أدخل حقول القمح وأقوم باللعب كأنني طفل أعود إلى سهول حوران. يلتقط إسماعيل لي الصور كما يلتقطها لعبد الرحمن أبو القاسم.

أحد مواطني الفارعة يصر على إسماعيل تلاوي أن يتناول طعام الغداء عنده.

نزور بيتاً مزروعاً في قلب الليمون والزيتون، أهل البيت يرحبون والصدق مطل من أعينهم، الكرم الممزوج بالكبرياء والحب حب الظهور أيضاً، يظهر في طعام قدم لأشخاص ستة ولكنه يكفي لعشرين شخصاً. يسألني أحد المضيفين:

– دكتور أحمد هل أنت من برقة..؟

– لا.. أنا من طولكرم، من ذنابة حصراً التي لم أرها في حياتي.

– يعني أنتَ من البرقاوييين الإقطاعيين..!؟

– أضحك وأقول له.. ربما غداً سأذهب إلى ذنابة.

– ولماذا غداً، هيا بنا الآن، خلال ساعة نكون في ذنابة. أي في الثالثة سنكون هناك.

– وبعفوية فائقة أجبت: هيا بنا.. يا الله.. وأخيراً سأدخل بيتنا وأرى ذنابة.

الطريق إلى ذنابة

أجلس في المقعد الأمامي من السيارة الفارهة- المضيف وبكل شهامة- يقود السيارة بسرعة فائقة، وعبد الرحمن أبو القاسم يجلس في المقعد الخلفي ويلتقط الصور للجبال والمساكن.

ران علي صمت. أسمع أصواتاً ولا أكترث، أنا في الطريق إلى ذنابة التي طالما حدثني عنها والدي، أنا في الطريق إلى ضاحية ذنابة التي لأول مرة لن أشعر بالغربة ولن يقول لي أحدٌ أنت ضيف هنا.

أتخيل والدي الذي لن أزور قبره في ذنابة فقبره في مقبرة الشهداء في المخيم، مع أنه ليس شهيداً، وإنما تكريماً لحضوره العاصف في حياة الناس شاؤوا أن يكون قبره بين قبور الشهداء.

إني في حالة غريبة ولا شبيهة لها، فقد يتفهم المرء أن شخصاً غادر بلدته وعاد إليها بعد طول غياب، يتفهم المرء شخصاً ولد خارج وطنه مغترباً ثم عاد من اغترابه إلى بلد أجداده بكل بساطة وسهولة، لكن الأمر مختلف معي، فأنا الآن في بلدي، ترى هل أنا لاجئ الآن.

قررت أن أفكر عقلياً وأقلل من انفعالاتي، لقد خفت من صدمة رؤية بيتنا.

نمر من قلب نابلس، أنظر على جانبي الطريق إلى نابلس القديمة وتطل علي نابلس الجديدة، آخذ نظرة كلية دون الاهتمام بالتفاصيل، البيوت الحجرية تمنحك إحساساً بالطبيعة الحميمية للبناء، فأنا أشمئز من البيوت الإسمنتية ولهذا أحب مدينة حلب وفنها المعماري، انظر دكتور هذه جبال عيبال، وهو جبل قمته عالية يطل على نابلس.

أتذكر دار عيبال التي أسسها جورج حبش وتحلق حولها عدد كبير من المثقفين والكتاب الفلسطينيين والعرب، والحق إنك أنىّ تجولت بعينيك في ربوع الضفة ستشاهد قمم التلال والجبال والوديان والسهول التي تنام بين جبلين، بل إن منطقة نابلس قد أطلق عليها منطقة جبل نابلس وتضم طولكرم ونابلس وجنين وقلقيلية وسائر مدن الضفة الغربية، في الطريق إلى طولكرم وبيتنا على مقربة منها لافتة مكتوب عليها «كفر اللبد».

خجلت من صاحب السيارة أن أطلب منه الدخول أولاً إلى كفر اللبد حيث لآل البرقاوي هناك قلعة- قصر بناها الشيخ مصطفى البرقاوي.

وتابعنا المسير بالسيارة، وكلما دنوت من طولكرم ازدادت كمية الأدرنالين في دمي.

ثم دخلنا طولكرم.

النظرة الغشتالتية الأولى: مدينة واسعة، ممتدة، جديدة ومزدهرة، صاحبنا الذي يقلنا لايعرف أسماء المناطق والشوارع في طولكرم.

تجاوزنا الشارع العام العريض قليلاً وما هي إلا دقائق معدودة حتى قال لي صاحبي:

– دكتور هذه ذنابة.

وقع الخبر علي متناقض التأثير، الحزن يلفني، الفرح، التوتر، الدمع يجول في عيني. ها أنا في ذنابة التي لا حدود بينها وبين طولكرم، بل قل إن هي إلا ضاحية من ضواحيها. نظرت حولي وأمامي وقلت لصديقنا:

– أرجوك أنا سأعرف بيتنا دون أن يدلني أحدٌ عليه.

– ولكن هل عشت فيه سابقاً..؟

– لا ولكني أعرفه وأعرف موقعه تفاصيله.

– يا أخي انظر كل بيوت ذنابة القديمة متشابهة تقريباً.

– لا: إلا بيتنا فهو مختلف!

– قلت له اسمع اصعد إلى ذاك البيت العالي، إنه هو فالطريق

إلى بيتنا صعوداً.

– يا أخي «خلينا نسأل..».

– لا لا تسأل هو..

– قف هذا بيتنا، ها هي أقواسه وأحجاره الكبيرة وارتفاعه صرخت وأنا أجهش بالبكاء الشديد والعالي، هذا بيتنا، هذا بيتنا، نزلت من السيارة قبل أن تتوقف، كدت أختنق جف اللعاب في فمي، ركضت وتركت خلفي عبد الرحمن أبو القاسم ومضيفنا الذي أقلنا، دخلت البيت الكبير أولاً، ويبدو أنهما لم يكونا على ثقة من حدسي.

في الجانب الأيمن من البوابة وهو المصطلح الذي يطلق على بيتنا بيت طارئ جديد.

قرعت الباب، طل شخص أيقظته من النوم، أسمر البشرة سمين الجسد.

لم ألق عليه السلام كالعادة، بل بادرته بالسؤال:

– كيفك «شو اسمك»..؟

تفحصني بكل هدوء وربما استراح حين رأى وجهي شبه مبتسم:

– اسمي أحمد برقاوي.

– وأنا أحمد برقاوي، نظر إليَّ ملياً وهجم علي معانقاً..

الدكتور أحمد ابن سيدي نسيم.

شعرت بالإعياء، جلست على حجر، وطلبت كأساً من الماء، وراحت عيناي تجولان بالمكان وأنا أنظر أكثر إلى الأعلى.

لحق بي عبد الرحمن بآلة التصوير وصديقنا وراحا يضحكان بكل دهشة.

وفيما أنا جالس ازداد عدد القادمين والتفوا حولي.

عبد الله شخص من الذين تبقوا في البوابة حارساً لبيت الأهل يعمل في الشرطة الفلسطينية، يعانقني هو الآخر.

– أرجوك.. أريد أن أصعد إلى بيتنا.. أصعدني إلى حيث عاش أبي طفولته وظلت جدتي لولو حتى وفاتها تقيم فيه.

أتأمل في أنحاء البيت الواسع وأمتلئ فخراً أمام الصحب، هو ذا درج شبه مهدم، باستثناء طرفه اليميني، ولكن الصعود مخاطرة.

أحمد يضحك ويقول لي:.. ابن عمي.. اصعد.. فلقد وضع يديه على حافة درجة ورجليه على حافة درجة أخرى.. كيف أصعد لايهم امشِ على جسدي، ها أنا الآن جسر لك.. امشِ ابن عمي امشِ..

كيف لي أن أمشي على جسده..

– لا.. لا أنا سأحاول الصعود بكل تؤده.

– لا..لا هذا صعب عليك، اصعد ولا تهتم.

باب خشبي قديم، مغلق بشكل قابل للفتح بناء من العقد، أدخل الطابق الأول المطل على الدنيا على فلسطين، على يافا، على برج بني عامر.

– هنا أمضت عمرها الشيخة لولو – قال أحمد وصمت. أصعد بعد تجوال إلى الطابق الثاني، النوافذ أقواس حجرية وفيها زخرفة أميرية.

غرفتان واسعتان طابعهما روماني مع أنهما بنيا في القرن الثامن عشر.

أجلس على الأرض– أرض إحدى الغرف ثم أجلس على حافة النافذة المطلة على العالم ذاته، أتحسس الجدران الحجرية.

أعب من الهواء بعد أن فتحت الشبابيك، وكنت أردد في صمت: عائد أنا إليك أيها البيت لأعيد لك الحياة، عائد حتماً.

أطل على ذنابة على المسجد الذي كان يشرف عليه جد أبي الشيخ أحمد الذي وصفه لي أبي بنوع من الحب وتحدث عن جمال هيئته وبهائها.

أنزل كما صعدت، ويشرح لي أحمد.

هذا بيت أبو زكي، وهذا بيت إسماعيل، وهذا بيت عقاب، وهذا بيت الشريف وهذا بيت فلان.

بيت البرقاوي هذا كان يضم أهم شيوخ آل البرقاوي،

يقال إن الأمير موسى البرقاوي قد احتله من آل بركات في ذنابة وأعاد بناءه وأقام سوراً حوله، وساعد على تحصينه الشيخ ظاهر العمر عربوناً حيث تزوج الشيخ داوود أحد شيوخ البرقاوي ابنته، وقد أرخ ذلك على جسرٍ حجري سقط قبل خمسين عاماً.

وعندما تكاثر آل البرقاوي هجروا هذا البيت تقريباً وبنوا بيوتاً جديدةً ذات هندسة معمارية مشابهة.

نجلس في بيت أحمد ونشرب الشاي ويبدأ الحاضرون من آل البرقاوي يتحدثون عن تاريخ العائلة وقصص بأسها وظلمها وكأنهم فخورون بما سببه آل البرقاوي من ظلم.

ويبدو الظلم واضحاً حينما تغادر البوابة إلى القلعة الملاصقة لها وهي قلعة الأمير موسى البرقاوي أو الشيخ.

ولقب الشيخ آنذاك يعني الأمير، ولهذا كان يطلق على الشيوخ أحياناً الأمراء.

ويبدو أن القلعة كانت مكان إقامة الشيخ الأول أو شيخ المشايخ ومكان مقاومة أي اعتداء خارجي على ذنابة ووادي الشعير الذي كان تحت نفوذ آل البرقاوي.

وقلعة الشيخ موسى هذه واحدة من عدة قلاع كانت تابعة لآل البرقاوي كقلعة شوفة وقلعة كفر اللبد وقلعة المدحدرة وكل قلعة ارتبطت باسم شيخ، ففي الوقت الذي ارتبطت قلعة

شوفة التي سأحدثك عنها أيها القارئ العزيز بالشيخ ناصر البرقاوي ومن ثم الشيخ عيسى، ارتبطت قلعة كفر اللبد بالشيخ مصطفى ابن الشيخ عيسى، وارتبطت قلعة المدحورة بالشيخ خليل والشيخ غازي وقلعة ذنابة بالشيخ موسى.

والشيخ موسى هذا هو أخو الشيخ عيسى، فحين علم بإعدام أخيه الشيخ عيسى في دمشق ذهب مع بعض مقاتلي البرقاوي وحلفائهم خلف أخيه للانتقام من الذين وشوا بأخيه من البدو، ويقال إن سيلاً هائجاً قد أغرقه وأخذه في منطقة حوران ولايعرف أحد أين دفن.

ويبدو أن هذه قلعة بنيت في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وذات فن عمارة متقدم لاسيما وأنها صغيرة بالقياس إلى القلاع الرومانية القديمة وفيها من الزخرفة ما لايخطر على بال، نفتح باب القلعة، الأرض مليئة بنبات «القريس».

– احذر ابن عمي أحمد هناك بئران في الأرض.

– آخذ حذري وأخف للنزول إلى الأقبية تحت الأرض.

– احذر مرة أخرى، منذ زمان لم ندخل هذه الأقبية ذات العقود الضخمة والتي قال لي أحد سكان ذنابة من آل دبلح إنها كانت للسجن والإعدام.

أصعد إلى الطابق الأول بعد أن تجولت في الغرف السفلى والقاعات التي بنيت بحيث تواجه أي عدوان، فهناك فتحات

للقنص بالبارودة ربما.

الطابق الثاني هو الآخر عقود وشبابيك مطلة على الفضاء، أحجار النوافذ جميعها مزخرفة، القبب المتهدمة تحتفظ بألوانها ورسوماتها.

تطل من شبابيك القلعة الصخرية على عالم فسيح جداً، حيث تطل عليك يافا والمروج الخضراء حيث كل شيء ساطع بفعل الشمس المائلة إلى الغروب.

أسأل الأخ عبد الله البرقاوي وأنا أطل على هذا العالم الفسيح هل تتذكر «ستي لولو» لا أتذكرها، ولكنهم يتحدثون عنها الشيء الكثير بحكمتها ودينها وثرائها، فالحجة لولو كانت محجة لكل طالب ولا ترد أحداً رحمها الله.

أعرف أن جدتي لولو ذات تاريخ تراجيدي كأي امرأة برقاوية تترمل في ذلك الزمان، فهذه العائلة لا تزوج لأحد غريب إلا إذا كان في مستوىً مساوياً لمستواها، كما أنها لا تتزوج من عائلات إلا المثيلات لها.

فإذا كان والدي قد ولد عام ١٩١٢ في ذنابة ومات أبوه وهو يبلغ الخامسة من عمره، فهذا يعني أن جدي قد مات هناك ١٩١٧– ١٩١٨ تقريباً، وإذا كان سن زواج المرأة آنذاك بين الخامسة عشرة والعشرين في أكثر تقدير، فإن جدتي تكون قد ترملت وهي في بداية العشرين من عمرها.

ابنة العشرين ونيف لاتتزوج أبداً من أحد بعد عبد الله باشا البرقاوي الذي كما تقول رواية أبي كان حين يخلع قبعته الجندرمية تهر منها ليرات الذهب.

وإذا طلب منها أن تساعده على خلع جزمته تجيبه.. عبد الله لاتنسَ أني بنت الشيخ رشيد، وهو أحد مشايخ قلعة شوفة، لولو هذه ما أن شبَّ ابنها نسيم حتى غادرها دون عودة إلا في زيارات قليلة.

ويبدو أن أمي كانت تبادل لولو الكره، كيف لا وبديعة محمد أديب الجغليط البسطامي ترى نفسها أرقى من تلك المرأة الأمية، بديعة المتعلمة لاتستطيع أن تقبل تعجرف امرأة لا امتياز لها سوى أنها برقاوية وبنت شيخ، ولهذا فإن جدتي كانت تحاذر زيارة أبي حتى في فلسطين.

لا أذكر كم كان عمري حين نقشت صورة جدتي في ذهني عندما زارتنا في نوى.

فأنا لا أذكر منها سوى قامتها الطويلة وثوبها الخمري وشالها الأبيض.

وقد علمت فيما بعد- أن أمي رفضت أن تعود إلى طولكرم كما أرادت جدتي، وسافرت جدتي إلى طولكرم ولم تر أبي حتى ماتت هناك، لكنها قبل أن تموت سجلت البيت باسم نسيم برقاوي وحرمت ابنتها الوحيدة التي اهتمت بها «وضحى».

أذكر أنه في عام ١٩٦٧ دخل والدي البيت في نوى كالعادة ظهراً، وجلس على غير عادته على «الكنبة» ونحن في انتظاره لتناول طعام الغداء. نظر إلينا نظرة فيها شيء من الحزن وقال: «الحجة أعطتكم عمرها» ستكم لولو «توفيت».

لاشك أن جدتي لولو التي تجاوزت الثمانين عاشت حياة صعبة جداً، وحيدة والبعد عن ابنها الوحيد لابد أنه ولّد لديها حزناً شديداً.

وحتى الآن لا أدري كيف تحمَّل والدي هذه السنوات دون أن يرى أمه، لماذا لم يكلف نفسه ولو زيارة قصيرة إلى طولكرم، ومع ذلك فإن جدتي سجلت البيت باسم أبي وربما الأراضي التي تملكها كلها.

فكرت بزيارة قبر جدتي «لولو»، لأول مرة أفكر بزيارة القبور لكن لا وقت لدي، ولماذا فكرت..؟.

إنها أم، أم أبي التي ولدت وعاشت وماتت في فلسطين، أخرج من قلعة الشيخ موسى البرقاوي التي كانت مقراً رسمياً تدار منها شؤون المنطقة، وفي ذهني ترميمها كي تستعيد رونقها وجمالها كما حصل مع قلعة شوفة وقلعة كفر اللبد، اللقاء الحميم من الأهل منحني روحاً جديدة وإحساساً بالوجود الممتلئ بالمكان، فها أنا أتجول في ذنابة أنتقل من بيتي إلى

قلعتي أتأمل بيوت الآخرين، يقترح علي عبد الله وأحمد أن أبقى في ذنابة لأرى بيت الشيخ إبراهيم وليقوموا بما يجب القيام به من الضيافة، وأعطيهم وعداً بالعودة.

أغادر ذنابة وأنا ممتلئ بالوجود الأصيل، بالفرح بالكبرياء لفترة أحسست أن أناي المتفردة قد لوثت بالماضي.

ومالي ومال الماضي، أنا ابن الحاضر أنا ابن ذنابة الحاضرة في ذاتي. ذنابة التي منحتني لأول مرة أرضاً صلبة وإحساساً بالثبات، لأول مرة أشعر أني لست لاجئاً.

ولكن لم أشعر بقوة القرابة كما شعر أولئك الذين استقبلوني استقبالاً حميماً، فأنا -في الغالب - خارج علاقاتي مع إخوتي وأخواتي لا أشعر بأية حاجة لقرابة الدم أبداً، دون أن أذكر الحب المطلق لأفراد أسرتي الصغيرة.

ألوّح لذنابة كما لو أني ألوح لوداع حبيبتي، مشيت قليلاً في أزقتها الملاصقة للبوابة والقلعة.

أودع الناس والأقرباء ونمضي راجعين إلى رام الله، في طريق العودة لم أعد قادراً على مقاومة الرغبة في رؤية بيتنا في كفر اللبد والذي هو الآخر يأخذ شكل القلعة كما روي لي وكما شاهدته من خلال الإنترنت.

وبنوع من الإحساس بالذنب تجاه مضيفنا من الفارعة

الذي كانت السعادة تفر من عينيه كلما نظر إلي، والدهشة تظهر في كلامه الرقيق بعد أن شاهد ما شاهد، سألته فيما إذا كان لديه وقت للمرور بكفر اللبد.

لم يتردد أبداً وقال بنوع من الحماس الشديد طبعاً ولو دكتور ممكن أبقى معك طول الوقت، أدخل كفر اللبد، النظرة الأولى كفر اللبد تختلف عن ذنابة.

إذ يبدو أن ذنابة كانت مكاناً لعائلات مشهورة على مستوى فلسطين كـ «آل سيف، آل الخواجة، وآل الخريشة، وآل سمارة»، ولهذا فيها من البيوت التاريخية التي تعود إلى العصر الإقطاعي العثماني الكثير الكثير وإن كانت بيوت البرقاوي هي المعالم الأرأس فيها.

أما كفر اللبد فللوهلة الأولى ترى قرية وزي القرية ويبدو أن المعلم الأهم فيها هو قصر الشيخ مصطفى البرقاوي، هذه المرة دخلت القرية وسألت امرأة عن قلعة البرقاوي، لم نصرف أي وقت للوصول إليها.

تأملنا قصراً منيفاً قامت السلطة الفلسطينية بترميمه وجعله مكاناً سياحياً ومعلماً ثقافياً.

القصر واسع جداً، سورٌ عالٍ، بوابة القصر مزخرفة، داخل القصر عشرات الغرف العقدية والدهاليز المبنية بناءً محكماً،

لكن أكثر حداثة من بيوت البرقاوي في ذنابة.

بعد أن انتهينا من تأمل القلعة وانتشينا بالمكان وازددت إحساساً بالوجود القوي مررنا برجل كهل وسألته:

– مرحباً ياعم.

– أهلاً وسهلاً.

– قل لي يا عم هل هناك أحد من آل البرقاوي يسكن هنا في كفر اللبد..؟.

– لا يا عم كلهم رحلوا كانوا يسكنون في هذا القصر.

– ولماذا رحلوا..؟.

– هم أصلاً ليسوا من كفر اللبد، كانوا حكاماً كان صاحب هذا القصر رجل ثري جداً، من زمان تركوا كفر اللبد ورحلوا إلى طولكرم وذنابة والأردن.

يحكي عنهم قصصاً كثيرة ،كانوا أقوياء وقساة والله ياعمي..

لم أشعر بالخجل، فأنا لا علاقة لي بكل ما كان، والحقيقة أني لم أسمع مدحاً مباشراً أو غير مباشرٍ لهذه العائلة. ويبدو أن العصر الإقطاعي كان يتميز بالقسوة الشديدة وأن علاقة هذه العائلة بالفلاحين كانت سيئة.

وتقسيم البلد إلى برقاوي وفلاحين تدل على التمايز الطبقي

آنذاك.

ولقد تفهمت أكثر بعد هذه الرحلة إلى ذنابة وكفر اللبد لماذا كان والدي لايكن الاحترام للفلاحين، بل ولا يثق بهم مع أنه في النهاية ابن عائلة سكنت القرية، حتى طولكرم آنذاك حيث بيت الشيخ ناصر الحاكم فيها هي قرية. وكره الفلاحين كانت الصفة المشتركة الوحيدة بين أبي وأمي.

أترك كفر اللبد وأنطلق إلى رام الله حيث انتابني شعور بأني من رام الله، فرام الله هي المكان الذي يشع بالحياة التي أريد.

في الطريق إلى رام الله نتعرف إلى نابلس أكثر دون أن نقف بها.

ثم نزلنا عند رغبة الصديق عبد الرحمن أبو القاسم لمشاهدة قبر يوسف أو القبر الذي يعتقد أنه قد دفن فيه.

وهو مكان بسيط وجديد بالقياس إلى بيوت البرقاوي، وقد قال لنا أحد من الذين جاؤوا مسلمين على عبد الرحمن أبو القاسم إن هذا القبر ليس قبر يوسف ولاهم يحزنون، إنه قبر شيخ دين من نابلس أقيم له هذا المقام احتراماً له.

على أية حال لم أكترث كثيراً بهذا المعلم الخالي من الجمال، وأنا بالأصل لا أحب يوسف لأنه كان قاسياً جداً على المرأة التي أحبته. وديواني الأول يحتوي على قصيدة «براءة»

ومطلعها:

«ما أنا يوسف يا بني أمي..»

في ساعة متأخرة من الليل الجميل وصلنا رام الله، ويبدو أن التعب قد أخذ مأخذه منا.

عدت إلى رام الله وأنا ثري إلى الحد الذي لم أتوقعه في يوم واحد أرى وادي الباذان والفارعة وسجن الفارعة وطوباس ونابلس وطولكرم وذنابة وكفر اللبد، ياه ما أسعدني.

إلى دير استيا وسلفيت

الخميس ١٢/٤/ ٢٠١٢

ما البرنامج اليوم يا إسماعيل..؟!.

– اليوم سنذهب إلى دير استيا لنزف عروسين قادمين من مخيم اليرموك مع الوفد، حيث قررا أن يكون عرسهما في فلسطين، وبعد الانتهاء هناك احتفال بالوفد في سلفيت.

– حسناً، سنرافقكم هذا اليوم.

مها وثائر من مخيم اليرموك وهما في مقتبل العمر، حين نظرت إليهما قدرت أنهما دون الخامسة والعشرين. أكثر أو أقل لا يهم..

لم أسألهما ما الذي حدا بكما للقيام بطقوس العرس في فلسطين، لأنه سؤال لا معنى له، لكني أسأل نفسي أنا، ما الذي يحمل فتى وفتاة على ذلك..!؟.

إن فكرة إقامة العرس في فلسطين بالنسبة إلى لاجئين فكرة أسطورية جميلة.

فكرة تمنح العرس جمالاً وذكرى وقيمة خاصة جداً جداً، العروسان على أرض فلسطين والزفاف سيكون على أرض فلسطين وليلة الدخلة ستكون على أرض فلسطين بالنسبة

للاجئين هذا نوع من الامتياز لا يتوافر للجميع.

كأني بحبه لعروسه قد توقد أكثر في الوطن، سيكون لديه قصة دائمة، ستحدث هي دائماً أن بكارتها فُضّت على أرض فلسطين، والعرس قد جرى في دير استيا والزفاف تم في الهواء الطلق، وليلة الدخلة كانت في رام الله. العروسان على مبعدة من قريتهما المحتلة قرب صفد لكنهما على أرض فلسطين الآن، والتحضيرات على قدم وساق ويقول الإعلان على الفيسبوك: «١٢/ نيسان/ ٢٠١٢ البلدة القديمة دير استيا وسط البلدة– الدوار الغربي دير استيا شمال سلفيت. فلنشارك بكل فاعلية في زفة العرس التاريخي الأصيل. عروسان من مخيمات الخارج اختارا إقامة زفافهما في البلدة القديمة، بلدة دير استيا».

الزمان: الخميس ١٢/ ٤ الساعة الثالثة عصراً.

المكان: ساحة الشهداء أمام البلدة القديمة في دير استيا.

وصلنا دير استيا وكان أهلها قد استعدوا أتم الاستعداد للقيام بإجراء العرس الفلسطيني.

لم تدهشني مراسم الزفاف فإني قد رأيتها بحذافيرها في قرية نوى في حوران دون زيادة أو نقصان، ياه.. ما هذا التشابه التام..!.

إن طقوس عرس واحدة في قريتين لابد وأن يكون أهل القريتين من منبع أنثروبولوجي واحد، من شعب واحد، ذلك أن التراث الشعبي أحد أهم الدلائل على وحدة الشعب.

لاشك أنك إذا سافرت من نوى مباشرة عبر الجولان أي عبر الرفيد فإني أتخيل أن تكون المسافة بين نوى ودير استيا أقرب من المسافة بين نوى وحمص.

الأزياء واحدة لدى الرجال، ندخل البيت، أي بيت العريس المفترض في ليلة العريس مع أصدقائه يقوم بالاغتسال، حيث يتولى الشباب غسله مع الأهازيج، والرجال ينتظرون في الغرف السفلية وساحة البيت، وفي الوقت نفسه العروس في بيت أهلها المفترض أيضاً تخضع هي الأخرى للتزيين والغسل.

يزف العريس كما تزف العروس راكبين على ظهر حصانين، حصان للعريس وحصان للعروس، وثوب العرس مزخرف وتضع ما يسمى بـ «العرجة» على رأسها، و«العرجة» عبارة عن حطة مسورة بليرات من الفضة أو الذهب المزركشة بالألوان.

أما العريس فيلبس اللباس الفلاحي التقليدي الحطة والعقال والدامر، يصل العروسان إلى الساحة على ظهري حصانين والأهازيج تتعالى من الرجال الذين يسيرون خلف

العروسين ومن النساء اللواتي يسرن خلف الرجال.

يدل العرس الفلسطيني بل قل القروي الشامي على الحرية الطبيعية والمساواة والتسامح والوئام المجتمعي.

فالدعوة إلى العرس عامة، كما الدعوة لتناول الطعام المنسف، والتجمهر الذي يضم النساء والرجال، فضلاً عن ذلك فإن جميع النساء سافرات إلا ما هو موضوع على الرأس من شال أو «إشارب».

ولست أدري لماذا يصر الأصوليون على إلباس المرأة الفلسطينية القناع.

لقد تذكرت وأنا أرى نساء دير استيا النساء اللواتي يظهرن على شاشة التلفزيون في غزة وهن عبارة عن أكياس سوداء، وأسأل من أين جاء إلى فلسطين هذا الزي.

العرس الفلاحي الشامي استمرار لأعياد تموز حيث الجميع منخرط في الغناء والرقص دون أن يعتدي أحدٌ على أحد دون أن تظهر من أي رجل إساءة لأية امرأة، فالجميع هنا يعرفون بعضهم بعضاً.

تخترق أذنيك أصوات النساء بالأناشيد التقليدية ذات الدلالة الوطنية.

وأسأل كيف لهذا الشعب أنْ حفظ كل هذه الأهازيج..؟

أتأمل العرس وأشعر بالفرح وتأكيد فكرة وحدة بلاد الشام. لا.. لايمكن تخيل الإجرام الذي ارتكبته بريطانيا وفرنسا في تقسيم بلاد الشام وإعطاء الحركة الصهيونية الجزء الأكبر من فلسطين.

أنهينا مراسم الزفاف لننتقل إلى سلفيت حيث بانتظارنا احتفال كبير على شرف القادمين من بلاد الشتات الفلسطيني، احتفال سيدعى إليه جميع المسؤولين وقادة التنظيمات.

من خلال الساحة التي امتلأت بالجالسين تجد فوراً فرقاً بين دير استيا وسلفيت وبين سلفيت ورام الله.

لم أتجول في سلفيت، وإنما مررنا بها مرور الكرام، حين اتجهنا نحو مكان الاحتفال وجدنا مدخلين واحد للرجال وآخر للنساء، واصطف الحفل صفين اليمين للرجال واليسار للنساء.وقد امتلأت الساحة الملعب بالمتفرجين، لكن لم ألاحظ وجود مقنعات.

اتجهنا إلى مدخل الرجال أنا وعبد الرحمن أبو القاسم، وكان الترحاب بنا حميماً. لكني والحق يقال ضمرت في نفسي أن لا أكمل البقاء لمشاهدة الاحتفال، لأني وكما علمت سأسمع مرة أخرى أهازيج أبو عرب ومواويله.

والذهاب إلى رام الله خير لنا، حيث أن هناك أصدقاء

كثيرين من الواجب رؤيتهم.

لم أبذل جهداً في إقناع صديقنا العزيز عبد الرحمن في العودة إلى رام الله، اعتذرنا من رئيس البلدية الذي وفر لنا سيارة إلى رام الله، كان السائق سائق سيارة أجرة من سلفيت، شاب في مقتبل العمر.

– لو سمحت خذنا من طريق جميل نرى من خلاله أشياء وقرى وجبال لم نرها في طريق القدوم.

بدأ الليل يغطي جبال الضفة، والسائق يسير بنا على طريق ضيقة تمر من خلال الجبال الخضراء.قرى سرعان ما تشعر أنها غافية على سفوح التلال والجبال، تمر من هذه القرية أو تلك بالكاد ترى بشراً يسيرون، كعادة القرويين فإنهم يأوون باكراً إلى بيوتهم.

أنوار خافتة، أنوار المآذن، رائحة الشجر، النسيم، لا أحد سوانا يسير على هذه الطرقات أبداً ورغم ذلك شعرنا بالأمان الشديد.

يبدو أننا نؤمن بالأيديولوجيا والأساطير دون أن ندري، وأنه لن يقف أحدٌ في وجهنا نخترق هذه الدروب الضيقة الخالية من الناس ونحن في النهاية تحت الاحتلال، ويمكن للمحتل أن يفعل ما يريد، بل ربما تكون هناك عصابة من أهل المنطقة ولا يشعر بالخوف والخطر!.

يبدو أننا نحن الذين لم نعش في كنف الوطن لاجئين سرعان ما شعرنا بالأمان داخل الوطن، كأننا عدنا إلى رحم حيث لا خطر أبداً وأنت داخل الوطن.

وفي كل مرة ندخل رام الله من جهة بير زيت نمر من نصب تذكاري لصدام حسين حاملاً بارودة بيد واحدة مرفوعة إلى الأعلى ومعتمراً «بورنيطة أوروبية».

يحب الفلسطينيون في الضفة– على الأقل الذين التقيت بهم وتحاورت معهم– صدام حسين وقيل لي إن إسرائيل دمرت هذا النصب مرة أو أكثر، وأنا أعرف أن أهل مخيم اليرموك يحبون صدّاماً.

علاقة الفلسطيني بصدام ناتجة عن علاقة صدام بفلسطين فقط، بصدام الذي ردد وحبل المشنقة على رقبته: عاشت فلسطين حرة عربية، صدام الذي ساعد الفلسطينيين مادياً، صدام الذي أطلق الصواريخ على «إسرائيل»، صدام هذا يرى فيه الفلسطيني واحداً من أبنائه، بل إن مئات الآلاف من الفلسطينيين الذي عاشوا في الكويت وساهموا في بنائها فقدوها وطردوا منها بفعل تأييدهم لصدام.

فالفلسطيني لا يسأل عن ديكتاتورية صدام أو تهوره، بل لايراه إلا رجلاً أعدم من أجل فلسطين وأعدمه الأمريكيون

وعملاؤهم وعلى رأسهم نوري المالكي، يقول لي سائق التكسي عندما سألته عن رأيه بصدام: يا أخي رمانا المالكي وعصابته على الحدود، طردونا من العراق بعد أن كان الفلسطيني مساوياً للعراقي في الحقوق أيام صدام يكفي هذا يا أخي.

نصل الفندق والسائق الشاب الشهم ينزل معنا هو الآخر، ويأخذ صورة تذكارية مع «أبو القاسم»، ثم ندعوه لتناول القهوة، يغافلنا ويدفع ثمن القهوة.

يتصل- والساعة تقارب الثامنة- الدكتور عبد الكريم البرغوثي، وعبد الكريم صديق حميم وذو نفس عزيزة وكريم.

تعرفت على الدكتور عبد الكريم في عمّان في ندوة للجمعية الفلسفية الأردنية، ثم توالت لقاءاتنا في المؤتمرات ونمت علاقة صداقة قوية بيننا رغم فارق السن.

نستقل سيارة عبد الكريم كي نرى رام الله في الليل من كل زواياها، مازالت هناك أرض وتلال بريئة في رام الله لم يمسها بشر، ومنها يمكن أن ترى قرى ومدن فلسطينية.

المكان يحمل معنى وجودياً بشكل عام، بل إن واقعة أنك تمشي على أرض علمتك المدرسة والأم والأب والأيديولوجيا الوطنية والقومية على أنها أرض مقدسة فهذا أمرٌ يخلق لديك شعوراً بالنصر والكبرياء.

تطل على الأنوار البعيدة، لكنك لا تجد صعوبة في التمييز بين أنوار المستعمرة وأنوار القرية.

– انظر يقول لي – عبد الكريم– هذه الأنوار التي تراها هي أنوار القدس.

تبدو القدس على مسافة قريبة منا، والضفة أصلاً مزروعة بالمدن والبلدات المتقاربة، والقدس لاتبعد عن رام الله بالعين المجردة إلا بضعة كيلو مترات.

والقدس بالنسبة لي كأي مكان في فلسطين، هي لي وحدي بل لاتتسع إلا للفلسطيني. لكنها المدينة التي أمضت أمي فيها سنواتِ أربع في دار المعلمات وذكريات أمي عنها أصبحت جزءاً من ذاكرتنا.

لك أن تتخيل المسافة التي قطعها عمر من المدينة إلى القدس ليتسلم مفاتيحها من رجال كنيسة القيامة، والمكان الذي جلسوا فيه حين كتبوا العهدة. لا أدري من كتب العهدة بيده، ربما كاتب ما شغله أنه كاتب، ربما معاوية بن أبي سفيان لأنه من كتبة الوحي.

أتخيل عمر ومعاوية وخالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص في اجتماع مغلق يتناقشون في شأن القدس وما هي التعهدات التي سيقدمونها لأهل إيليا من

المسيحيين، لاشك أن هناك مكاناً جلسوا فيه وقد يكون داراً من دور القدس.

أتخيل عمر بهيئته وسلطانه وبعد نظره يطرح عليهم مشروع العهدة الأولى والذي يتضمن كثيراً من التسامح مع أهل إيليا والمسيحيين حصراً.

وأتخيل خالداً عبوساً متوشحاً سيفه وقد نزع الدرع عن جسده قائلاً: لا يا أمير المؤمنين هذا كثير وعلينا أن نفعل بإيليا كما فعلنا في دمشق، وعلى البطريرك أن يسلم مفاتيح القدس دون أية شروط فنحن أهل القدس والرومان محتلون.

أتخيل عمرو بن العاص يقول ما رأيك يا أمير المؤمنين أن نجعل من بيت المقدس الذي عرج منها الرسول إلى السماء وتكريماً لها مقراً لك، فهي كما ترى قد بنيت من الحجارة وفيها الماء والشجر والطقس الجميل، ومالنا ومال عهدة نقطعها لأهلها لا نستطيع بعدها أن نلغيها.

فينبري معاوية للرد على عمرو وخالد قائلاً: إيليا شأنها شأن دمشق الشام، فمن شاء من أهلها أن يبقى فليبقَ ومن شاء من أهلها أن يرحل فليرحل ولن تمضي سنون قليلة حتى تمتلئ بنا ويدخل أهلها الإسلام هرباً من الجزية.

أعطهم الأمان ولتكن العهدة بكذا.. وكذا.

أما عبد الرحمن بن عوف فقد كان صامتاً.

استمع عمر إلى الجميع وأخذ برأي معاوية وأضاف بنوداً أخرى.

أتخيل ذلك كله وأنا أستعيد اللوحة المعلقة على جدار صالون البيت في دمشق وهي عبارة عن نص العهدة العمرية وصورة إلى جانبها لمسجد عمر.

يقلني عبد الكريم إلى شارع آخر، لنصل في النهاية إلى مطعم جد جميل.

رائحة الخبز الخارج من فرن المطعم تعطر المكان، وبعفوية شديدة أقول: ياه ما أطيب رائحة خبز فلسطين.

لاشك أن خبز فلسطين شأنه شأن أي خبز في بلاد الشام ولكن ألم أقل إن هناك أمراً ما في داخلنا يجعل من كل شيء في فلسطين ذا خصوصية.

– يقترب النادل منا ويقول: «شو بتحبوا توكلوا..؟».

– أسأل وماذا عندك من خيارات..؟.

– وصلنا اليوم سمك طازج من يافا.

يرن في أذني اسم «يافا» فأستحضر أمي ابنة يافا، عاشقة يافا، أمي التي حدثتني دائماً وتقريباً كل صباح عن يافا، عن المنشية والعجمي وشارع اسكندر عوض والمنارة ومدرسة الزهراء حيث علمت وسينما الحمراء، عن البحر.

وبدون أي تردد طبعاً- من سمك يافا- قلتُ لاشك أن سمك يافا لن يختلف عن سمك طرطوس أو صيدا فأنواع السمك المتوسط واحدة، لكن هذا السمك له صفة تقع على القلب سمك يافا تماماً كبرتقال يافا.

يحملك لفظ يافا على العيش في قلب المأساة، فحين صعدت إلى أعلى مكان في قلعتنا في ذنابة نظرت إلى الغرب ورأيت البحر، وقال لي أحدهم هناك يافا.

ها هي يافا على مقربة مني، قد لاتتعدى المسافة بين يافا وذنابة عشرين كم، لكنها مسافة لا تقطع بأية وسيلة، إنها بعيدة إنها محتلة، ليس باستطاعتي أن أرى الأماكن التي زرعتها أمي في ذاكرتي.

أية حالة لا معقولة في تاريخ البشرية بيت أمي وجدي الذي يبعد بضعة كيلومترات عني هو الآن بيت غريب، مستعمر، محتل، إني لأتساءل: كيف يبني الصهيوني علاقته بالمكان؟ سأرجئ الإجابة عن هذا السؤال إلى وقت آخر.

يأخذنا الحديث إلى مواضيع لا علاقة لها بفلسطين، بل بالفلسفة والاتحاد السوفييتي والأصدقاء المشتركين.. أودع عبد الكريم البرغوثي أمام الفندق وأدخل بهوه.

على الطاولة يتحلق زعل أبو رقطة مقدم البرنامج الشهير في تلفزيون فلسطين والكاتبة نعمت خالد والدكتور سليمان

برقاوي والأخ أبو عماد وخالد المحاميد وزوجته وأنا أراهم لأول مرة ونعمت صالح، تختلط الأحاديث مرة عن حماس ومرة عن إسرائيل ومرة عن الوضع السوري ومرة عن الذكريات الفردية ومرة عن الانطباع عن الرحلة حتى الآن، وعن محمود درويش ياه.. كم هي الموضوعات التي تشغل الفلسطيني، أو كم هي الموضوعات التي يمكن أن يطرحها الفلسطيني لتصير موضوع نقاش.

د. سليمان البرقاوي طبيب تعرفت إليه في دمشق حيث كان يعمل في أحد مشافي الثورة في دمشق، من مدينة برقة لا أدري ما إذا كانت هناك درجة من القرابة بيني وبينه ولو كانت بعيدة وهو على ما أعتقد من مؤسسي حزب العمال هو وشقيقه التوأم عبد الرحمن برقاوي.

نعمت خالد الروائية الفلسطينية صاحبة روايتي: «البدو» و«ليلة الحنة» امرأة ذكية ومثقفة وعفوية غير متصنعة، وقوية حد المباشرة بالقول. وإذا كان السفر فعلاً امتحاناً للكائن فالسفر أظهر نعمت بكل أخلاقها الاجتماعية الصادقة.

زعل أبو رقطة شعرت تجاهه مباشرة بأني أعرفه منذ زمن بعيد وأنا أراه للمرة الأولى، إنه يلغي المسافة فوراً بينك وبينه، أو قل لقد ألغيت المسافة فوراً بيني وبينه بشوش الوجه، يناقش بكل هدوء ودون تعصب.

نعمت صالح، تعرفت أول ما تعرفت عليها في الباص المنطلق من عمان سيدة ذات سلوك ارستقراطي، ومهذبة فضلاً عن أنها مشغولة بالشأن الفلسطيني من أخمص قدميها حتى قمة رأسها، عبر جمعية الحنونة للثقافة الشعبية والتي تشغل أمانة سرها، هي الأخرى سرعان ما بدت المعرفة بها وكأنها تمتد إلى عقد من السنين أو أكثر.

خالد محاميد: محام من فلسطين ١٩٤٨ مشغول إلى جانب المحاماة بتأكيد هوية الفلسطيني فضلاً عن أنه شاعر وزوجته الكريمة تقاسمه همومه الوطنية بكل حب وصدق.

وكما قلت ننتقل من موضوع إلى آخر وبسرعة ودون مقدمات وكالعادة يحتل الخلاف بين فتح وحماس المساحة الأكبر من الحديث، يسألني خالد محاميد بعد أن أعرف أني من ذنابة –طولكرم وأمي من يافا وما الذي رماك خارج البلاد..!.

– أقص عليه قصتي.

– ينظر إلي ويقول لي: سأزرعك في يافا.

ويفتح جهاز الموبايل ويريني درويش على صخرة، أنظر إلي: يصورني بآلة التصوير التي لاتفارقه، ويقول: غداً سأذهب إلى يافا وسأطبع صورتك على صخرة وسأضعها في أجمل شوارعها وألتقط الصورة لك وأنت في يافا.. هكذا فعلت مع محمود درويش.

إلى شوفة

الجمعة /١٣/ ٤/٢٠١٢/

تحتل شوفة مكانة في نفسي كالمكانة التي تحتلها ذنابة، فهي المركز الأهم لعائلتنا، حيث كانت من أعمال الشيخ ناصر البرقاوي في القرن السابع عشر، ويأتي على ذكرها كل من أرخ للعائلة إلى جانب ذنابة وطولكرم وكفر اللبد، وياصيد والمدحدرة، لكن المؤرخين يتوقفون عند قلعتها الشهيرة والتي تسمى قلعة البرقاوي، وجدتي لولو هي بنت الشيخ رشيد أحد أمراء هذه القلعة وهي كذنابة مازال أقاربي يسكنونها، وحصل أن رأيت في تلفزيون فلسطين وأنا في دمشق برنامجاً عن قلعة البرقاوي وترميمها كما أشرت سابقاً.

ويبدو لي أن البحث في الجذور العميقة هاجس أصيل لدى البشر.

صباح الجمعة في ١٣/ ٤/٢٠١٢/ أنا وعبد الرحمن أبو القاسم في انتظار الصديق إياد البرغوثي الذي سيقلنا إلى شوفة.

إياد البرغوثي المعتد هو الآخر بجذوره العائلية يقلنا أولاً إلى دير غساني حيث تسكنها أغلبية من آل البرغوثي وهي

مسقط رأس إياد البرغوتي وموطن طفولته ودراسته.

من قال إن اللاجئ الفلسطيني أحمد برقاوي الذي التقى بابن الضفة الغربية في لينينغراد عام ١٩٧٦ ونمت بينهما الصداقة سيتجولان معاً في دير غساني وشوفة. بل لم تخطر على بالي وباله واقعة كهذه، ولكن الحياة تأتي بما لايخطر على بال.

يأخذ اللقاء في دير غساني- والأمر كذلك- طابعاً حميماً بحيث لا تستطيع أن تصدق أن ما يحدث قد حدث.

نصل دير غساني قرية وادعة تفوح منها رائحة الربيع، إنها على مرتفع جبلي، تغريني بيوتها القديمة المبنية من الحجر، وقفت مندهشاً أمام ساحة تذكرك بساحات القرون الوسطى في البلدان الأوروبية.

نصل بيت أهل إياد الجديد المقابل للبيت الأجمل القديم، حيث العقود، وحيث معصرة الزيتون الحجرية القديمة والأخرى الأحدث ولكنها هي الأخرى قديمة.

نتأمل بيت صالح البرغوثي ويبدو أنه كان أحد الزعماء المهمين للعائلة والمنطقة، وهو مرمم ترميماً جيداً حيث الاتساع والحجر والمداخل الجميلة، داخل البيوت «حواكير» من البرتقال والأشجار الأخرى، هدوء القرية يغريك بالبقاء فيها.

ندخل بيت إياد، أمه القبرصية المعمرة تستلقي على السرير محتفظة بوعيها ذي التسعين عاماً، أقبل يدها وأتساءل ترى كم تختزن هذه الذاكرة من أحداث ووقائع فلسطينية، ماذا لو أنها كانت قادرة على أن تسجل وقائع الحياة اليومية كما سجله البديري الحلاق الدمشقي.

يتوافد كثيرون من آل البرغوثي للسلام وتحيتنا، وبالمناسبة فهذه العائلة لليوم تنتج عدداً لا بأس به من النخب الفلسطينية الفاعلة، من بشير البرغوثي ومصطفى وإياد ومروان مروراً بحافظ ومريد. وانتهاء بسهام البرغوثي وزيرة الثقافة.

فضلاً عن أسرى وشهداء وفاعلين اجتماعيين، كما أنهم كانوا فاعلين في الأحزاب التقليدية كحزب البعث والحزب الشيوعي.

ويبدو أن نفوذ هذه العائلة انطلاقاً من بيوتها وتاريخها كان محدوداً داخل منطقتها في العصر الإقطاعي الذي انتهى تقريباً بعد الاحتلال الإنجليزي لفلسطين.

بعد أن تجولنا لساعة تقريباً داخل القرية وبيوتها القديمة التي تحتاج إلى ترميم، وتأهبنا للمغادرة وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية عشرة أصرّ عبد الرحمن أبو القاسم أن يصلي الجمعة في جامع القرية خوفاً من أن يتأخر عن الصلاة في شوفة.

تودنا له كي يقلع عن هذه الفكرة لكن قوة إيمانه حالت دون أن يرضخ لمشيئتنا.

اصطحب مجموعة من الشباب الشيوعيين السلفيين من البراغثة والذين عادوا للصلاة مع عبد الرحمن أبو القاسم إلى الجامع القريب من بيت إياد.

قررنا أنا وإياد استغلال هذا الوقت- ريثما ينتهي عبد الرحمن من صلاته- في التجوال والاستمتاع بمناظر الربيع الخلابة، والتأمل في الوديان الخضراء والقمم الملونة ونسائم دير غساني تخفف من وقع الشمس التي أصبحت قادرة على أن تحملنا على اتقائها.

ندخل بيتاً لأحد أقارب إياد دون استئذان كعادات القرابة في القرية نأخذ قسطاً من الراحة منتبهين إلى صوت خطيب الجمعة علّه ينتهي من خطبته سريعاً كي نستمر في رحلتنا.

ومن الطريف أن الشيخ خطيب الجمعة بدأ أول ما بدأ بعد البسملة بالترحيب بالممثل الكبير ابن فلسطين القادم من الشام عبد الرحمن أبو القاسم. وهو يدل على بساطة إسلام القرية الفلسطينية بالأصل.

الإسلام الذي تشوهه الحركات السياسية وتحوله إلى أيديولوجيا متعصبة، ومما يدل على بساطة التدين في دير

غساني أنك ترى النساء يتنقلن بكل بساطة ويسلمن بكل عفوية، وتطل عليك امرأة من سور البيت وترحب بنا.

أنهى خطيب الجمعة خطبته وانتظرنا عبد الرحمن، لكننا لم نحسب حساباً لأولئك الذين يرغبون بالتقاط الصور التذكارية معه بواسطة موبايلاتهم.

بعد الثانية جاء عبد الرحمن ضاحكاً فرحاً بكل ما لاقاه من حفاوة الأهل حتى لايكاد يصدق ما لاقاه من حب.

وقبل أن نأخذ الطريق السريع إلى طولكرم- شوفة، عرجنا على تلة خضراء فيها نصب تذكاري للشهداء وأسمائهم، وجلهم من آل البرغوثي، وإلى جانب هذا النصب هناك ضريح لولي من الأولياء لم أعد أذكر اسمه.

وأضرحة الأولياء الصالحين المتفردين بقبور على التلال ظاهرة منتشرة في كل بلاد الشام وهي أضرحة تُنال منها البركات، والفن المعماري للضريح واحد تقريباً، بل إن طول القبر الذي يكاد يصل إلى أمتار ثلاثة ظاهرة عامة وصفة لكل قبور الأولياء فضلاً عن أثواب القبر الخضراء بعامة.

وكما دلل عرس دير استيا على وحدة تقاليد الأفراح تدل قبور الأولياء على وحدة التقاليد الدينية، فضلاً عن وحدة تقاليد الأتراح في كل بلاد الشام.

حين تطل من التلة المزينة باللوحة المرمرية المكتوبة عليها أسماء الشهداء وإلى جانبهم الضريح على فلسطين تشعر أن لا وجود للأفق، بل لاترى الأفق وإنما قمم تداعبها السماء ولطخات بيضاء من الغيم فيما رداء الأرض يشبه رداء الأولياء الأحياء.

تختزن فلسطين طاقة روحية كبيرة جداً سرعان ما تمنحك جزءاً منها فتشعر بالنشوة والقوة وركوب البراق.

لأول مرة أرى زهرة تخرج من قلب صخرة، وربما شاهد درويش هذا المشهد السحري حين قال: «وسافروا لم يحرموا أبريل من عاداته..

يلد الزهور من الصخور..»

في قصيدته مأساة نرجس، ملهاة الفضة، إنك لاتستطيع أن تتمالك نفسك حين ترى صخرة مضجعة على جنبها ومن جنبها تطل زهرة بيضاء وأخرى حمراء فاتحة وأخرى بلون شفاه امرأة شقراء.

تنزل إلى سفح التلة فتتضوع رائحة الزعتر البري والميرمية، تتساءل: ما علاقة الصهيوني القادم من بلاد الصقيع بهذا المشهد الذي يشعرنا بأن هذه الأرض هي أمنا فعلاً. ما أن تنحني لتقطف زهرة أو نبتة وتمد يديك إلى التراب

الحميم حتى تشعر أنك طفل بكل معنى الكلمة وأنك لا تستطيع أن تغادر المكان.

أنظر بعيني إلى البعيد البعيد وألتفت إلى اليمين فأرى عبد الرحمن منشغلاً بآلة التصوير فأصيح بكل حرقة: تعرف يا عبد الرحمن الاعتراف بالعدو على هذه الأرض سلوك لا أخلاقي بالمطلق، ولا إنساني بالمطلق، يجب أن يزول هذا العدو من أرضنا، ويرحل عن أرضنا، بل أي عيب مطلق أن تبقى إسرائيل عائشة حتى هذه اللحظة من التاريخ، يرد عبد الرحمن– ابن صفورية – بنوع من الحزن وبصوت مليء بالحسرة: «شايف.. شايف يا دكتور ما أحلى بلادنا، آه يا مين رجعنا للبلاد، هاي بلادي».

ها نحن في السيارة نتأمل نيسان جبل نابلس في طريقنا إلى شوفة، ندخل شوفة من طريق قديم يمر ببلدة صغيرة اسمها خربة شوفة دقائق وندخل البلدة أو قل شبه مدينة.

ندخل حارات شوفة وأحس أن إياد وعبد الرحمن هم ضيوفي الآن، انتابني شعور بالمالك، ابن البلد، كيف لا وأنا باستطاعتي أن أقول بكل اطمئنان: هذه بلدتي. فجدي الشيخ موسى ولد هنا وجدتي الحجة لولو ولدت هنا وجدة أبي عبلة ولدت هنا.

يسأل إياد: «وين قلعة البرقاوي..؟» إنها أمامنا، ننزل أمام قلعة مهيبة وهي في الوقت نفسه مجموعة بيوتات على الشمال من واجهة القلعة لوحة كبيرة: قلعة البرقاوي- بنيت في القرن السابع عشر، نسير إلى باب القلعة فنجده مغلقاً، يتجمع حولنا بعض السكان ويتعرفون علينا ويتداعون للاتصال بالموظف الخاص بالقلعة الذي عينته السلطة بعد ترميم القلعة، نتصل بالموظف على هاتفه النقال الذي يعرفه أكثر المتحلقين حولنا دون مجيب.

ترى هل يعقل أن آتي إلى شوفة دون أن أدخل القلعة وبيت جدتي لولو وأم جدتي عبلة وأب جدتي الشيخ رشيد، هل يعقل أن لا أصعد إلى أعلى مكان في القلعة لأطل على فلسطين كلها.

سألت أحد الناس: أين يسكن آل البرقاوي هنا..؟ يقول أحدهم حارة البرقاوي في الطرف الشرقي من البلدة ،كلهم رحلوا من القلعة ومنذ زمان.

امرأة تتدخل وتقول: لا على مقربة منا بيت طارق برقاوي زوجته برقاوية من الشام.

نمشي إلى بيت طارق البرقاوي، وهو بيت جديد من الحجر ومن طابقين يأخذ شكل الفيلا الغربية بامتياز، والفيلا الغربية مختلفة عن الدار حيث الفضاء داخل الأسوار عبر فسحة أشبه

بالنافذة المطلة على السماء، فيما الفيلا الغربية فالفضاء حولها ومن خارجها.

أطرق الباب فتطل علينا نورا برقاوي الفتاة التي ولدت في دمشق وعاشت فيها وكانت ذات زي حديث غير أنها الآن تلبس الحجاب لكن الحجاب لم يمنعها من الاستقبال الحميم لنا جميعاً ريثما يأتي طارق المشغول يبدو في أرضه.

كان اللقاء مدهشاً حقاً حميماً جداً مع أني لم أر طارق في حياتي.

انطلقنا إلى القلعة التي سرعان ما أجاب الموظف طارق قبل الدخول أتأمل الجدران العالية جداً والأحجار الكبيرة والخالية تقريباً من النوافذ باستثناء ما يسمح للنظر من فتحات إلى العالم الخارجي.

في آخر الجدار الشمالي هناك درج يقودك إلى جامع قديم جداً اقتطع من القلعة.

في أسفل القلعة قبر الشيخ ناصر البرقاوي الاسم الذي يتردد بوصفه صاحب القلعة وفخر المشايخ المكرمين والمتوفي سنة ١١٨٦ هـ، والقلعة المؤلفة من أقبية وطابقين تحتوي على خمس وعشرين غرفة كبيرة، ومعصرة زيتون، وبيوت للعبيد وإسطبلات للخيل، ومخازن المؤمن، وبئر كبيرة في الطابق الأول، أصعد الدرج الحجرية وأتفقد الغرف غرفة غرفة، أستعيد

فكرة لعبة الحياة، كم مرّ على هذه الغرفة من أشكال الحياة كم عرفت من أجساد وضحكات ومآسٍ ورعب وخوف.

من هذه القلعة هب الشيخ غازي البرقاوي الملقب بالشعلة لقتال جيوش نابليون بونابرت الغازية واستشهد، من هذه القلعة انطلق الشيخ عيسى البرقاوي ليقود الثورة ضد إبراهيم باشا وهزم وأعدم في دمشق، من هذه القلعة نفي شيخان إلى إسطنبول.

أتساءل في أي بيوت القلعة عاشت جدتي لولو وأمها عبلة التي سمُيت ابنتي عبلة تيمناً باسمها واحتراماً لمشيئة أبي الذي أراد هذه التسمية، وتبين فيما بعد أن لا اسم أليق بابنتي من هذا الاسم، لم تمضِ سنوات على خروج طارق برقاوي -الذي صار دليلنا- على خروجه من هذه القلعة التي كان يسكن فيها هو وأهله.

أصعد إلى الطابق الثاني، الأقواس- العقود- تسحرني، تحس أن الزمن يعود بك إلى الوراء كثيراً، ثم أمرر يدي على الجدران أربت على أكتافها وكأني أقول لها: برافو أحسست أن الأحجار قد ملأت يدي بالحياة، أشعر أن الحجر يردد «أهلاً أحمد» أرى الأبواب الخشبية تبتسم.

فأنا لا أدخل قلعة تاريخية سكنها الرومان أو الصليبيون أو الأيوبيون أنا أدخل بيتنا، هنا سكن أهلي، أنا من هنا.

أتخيل والدي وهو يأتي إلى هنا عند خاله الشيخ محمد قاسم والذي سمي أخي الأصغر باسمه، أو إلى عند جدته عبلة، إنه جلس هنا، ومرّ من هنا ونام هنا، بين شوفة وذنابة ثمانية كم وكذا بين ذنابة وكفر اللبد، وبين كفر اللبد وشوفة، كانت العلاقة يومية بين هذه البلدات وطولكرم.

كم مرة مشت الأقدام على الطرقات القديمة إلى هذه البيوت وتنقلت من بيت إلى آخر، كم من امرأة عاشت في هذه القرية ولم تخرج منها حتى ماتت أو حين انتقلت إلى بيت آخر، أية مزحة مزعجة للتاريخ تلك التي تجعل عنصرياً صهيونياً كـ «شمعون بيرس» ولد في بولندا عام ١٩٢٣ وجاء إلى فلسطين مع أسرته، أحق مني بفلسطين، أحق من شخص يعرف عشرين جداً له في فلسطين ويقف أمام بيت أهله الذي سكنوه ثلاثة قرون تقريباً وبلا انقطاع.

منطق القوي يجعلني زائراً لبيتي، لذنابة ولشوفه ولكفر اللبد ولطولكرم حيث في كل بلدة من هذه البلدان لي أثر وأرض وبيوت وتاريخ ويجعل من أفّاق كـ «ليبرمان» وزير خارجية لدولة على أرض لا يعرفها أصلاً وليس له أي مكان فيها سوى قول أسطوري لإله سخيف، هل يعرف الأوروبي أن هذا المجرم ولد في بلد ملدافيا عام ١٩٥٨ وجاء إلى فلسطين عام ١٩٧٨

وتعلم اللغة العبرية في فلسطين.

«ليبرمان» هذا لص مجرم محترف عنصري بامتياز ومحتّل، وليس هذا فحسب وعلّي أن أعترف بوجوده.. يا للخزي.

أنظر إلى غرف القلعة- البيت إني لم أرَ مثله في كل الأماكن التي ذهبت إليها، وأسأل الموظف هل هناك بيوت شبيهة بهذا البيت، يجيب ربما ولكن ليس في هذا الكبر والاتساع والهيبة، فالقلاع البيوت كانت وقفاً على عائلات قليلة جداً كعائلة جرار وعائلة طوقان، لكن هذه القلعة البيت وبعد ترميمها هي من البيوت النادرة.

بيت- قلعة مرمم لكنه خالٍ من السكان، لم يعد بعد كثرة الأولاد والأحفاد من آل البرقاوي في شوفة- قادراً على استيعاب العدد القليل منهم، وكذا الأمر حصل في بيوت ذنابة وقلعتها وكفر اللبد وقلعتها وطولكرم ودار السواد.

ترتسم الدهشة على وجه إياد وعبد الرحمن قبل أن نصعد إلى أعلاها حيث القباب التي تمر منها إلى الجهات الأربع وترى لمعان البحر من بعيد.

حين صعدت إلى سطح القلعة عبر درجتين، خاف علي بعض المرافقين، ذلك أني إذا زلت قدمي قليلاً نحو اليمين فأنا لا محال واقع إلى أسفل القلعة.

لكن إغراء الصعود، مع ما يحتاجه من جهد، دفعني لأن أصعد دون أي إحساس بالخوف أبداً، بل كنت على ثقة مطلقة بأن مكروهاً ما لن يصبني، أحسست أن المكان يحميني.

أنا الآن في أعلى مكان، والقلعة بنيت في أعلى مكان، أنا الآن كائن مجنح أطير فوق البيوت والقمم والأشجار، لكن أن تصبح ديارك تاريخية معالم تاريخية ومناطق سياحية وثقافية يضعك من المتناقض من الشعور.

هو ذا أنتَ، هو ذا تاريخك، هو ذا بيتك، لكنه الآن ليس بيتك، ليس لك وحدك، لا أستطيع أن أضع سريراً في غرفة تطل على العالم وأنام فيه. لا أستطيع أن أضع طاولتي وكرسياً وأستل قلمي وأكتب قصيدة وأنا أنظر إلى البحر. من شروط العقد عقد الترميم أن المبنى لن يعود إلى العائلة إلا بعد خمسين عاماً، وكذا الحال مع بيت كفر اللبد وبيت طولكرم، أصبح منذ زمان ملك للبلدية، أما بيت ذنابة فلقد شاءت المصادفة أن أرى إعلاناً عن نية السلطة فرزه لإحدى الجهات الحكومية ورفضنا أن تمتد له أية يد، وبقي كما هو أملاً أن نعود إليه لنرممه نحن ونسكن نحن.

في شوفة أنت في الماضي، في الأثر الذي صار كتاباً للقراءة، صحيح أنه أثرك أنت، أثر أجدادك، أثر فلسطين، تأكيد لهويتك، لكنه أثر حتى بالنسبة إلى طارق هو أثر، رغم أنه

عاش فيه طفولته ومراهقته.

وبالمقابل هو رمز انتماء، رمز حضور قوي لا يبلى مع الزمن، يزيد من ذاتيتك الوطنية، وكرامتك واعتزازك، يمنحك المكان قوة احتقار لعدوك، يمنحك المكان قوة الحضور الأبدي ويقنعك بفكرة الزوال الأبدي لعدوك، أهمُّ بالنزول، مرة أخرى دون إحساس بالخوف.

أودع شوفة والأقارب وأنا مغمور بالكبرياء والحب وليس في ذهني سوى سؤال واحد: كيف السبيل إلى العودة الدائمة إلى هذه البلاد، كيف؟ أودع شوفة وأتذكر قصة أم الأمين البرقاوي التي كانت تتحدث عن معركة مع الجندي العثماني حاول دخول شوفة وماذا قال الزجال:

من باب شوفة لبرية... مشى الوالي على رجليه
شوفة ما كانت عالبال.. تقتل من عسكر عثماني
قولوا لبنات الشام.... يطمسن الحنة باسخام

وتنتهي بالقول: ياحبيبي يا أحمد: البرقاوي عمره ما انضام.

هذه المرة سندخل نابلس وسنلقي عليها تحية أطول أو هكذا توقعت نابلس في ذاتي، دمشق الصغرى كما يقول ياقوت الحموي.

نابلس جبل النار، نابلس كنية لعائلات دمشقية ولبنانية

وفلسطينية، نابلس المكان الذي عقد فيه المؤتمر السوري الأول، نابلس الكنافة النابلسية، والصابون النابلسي.

نابلس الاجتياحات المتكررة من قبل العدو لها، نابلس محمد عزة دروزة وبسام الشكعة وإبراهيم طوقان وفدوى طوقان وعادل زعيتر.

نابلس في يوم الجمعة ساكنة الشوارع تكاد تكون فارغة من المارة، والمحال كلها تقريباً في الشارع الرئيس مغلقة باستثناء محال الحلويات.

دعونا نتأمل نابلس التاريخية القديمة.لكن التأمل في السيارة لا يشفي الغليل، فنابلس تحتاج إلى يوم خاص، وكنت وعدت صديقي الدكتور عبد عساف الأستاذ في جامعة النجاح أن أزوره وأقضي يوماً كاملاً بضيافته.

نخترق شوارع نابلس، وأنظر إلى التلال التي زرعت بيوتاً، وتلك التي مازالت بريئة وبمنأى عن يد الإنسان الذي تغول في أنانيته وتحقيق مصالحه.

مرة أخرى استمتع بالليل الجاثم على الطبيعة- ففضاء الليل يمنحك إحساساً بالوحدة، بامتلاك الطبيعة، ورؤية ما تسمح به أنوار السيارات. وكأنها تختلس النظر إلى الطبيعة من ثقوب النور، ونحن بدورنا نشاركها اختلاسها هذا، ومرة أخرى هذا ليلٌ فلسطيني، ليل ربيع فلسطين.

لاشك أنني أنا الذي أمنح هذا الليل معناه، أنا المفعم بالحب إلى الليل نفسه ليل فلسطين ليس ليلاً فيزيائياً، ليس ظلاماً، إنه ليل المكان الذي طالما حلمت بأن أكون فيه، ومرة أخرى ينظر إلي عبد الرحمن ويقول لي: «شايف يا دكتور ما أحلى البلاد». أنتبه إلى إضافة أل التعريف «البلاد» لم يقل «ما أجمل بلادنا» أل التعريف هناك تنطوي على معنى خفي أن فلسطين وحدها البلاد.

نصمت صمت التأمل بالليل ورام الله تستقبلنا في كل مرة بوجهها البشوش.

نحن على موعد في الثامنة أو التاسعة لم أعد أذكر مع السيدة سهام البرغوثي وزيرة الثقافة الفلسطينية التي ستقيم حفل استقبال وعشاء لكل المشاركين في المهرجان، وكنت أسمع بها لأول مرة، وأنا- والحق يقال- لا أعرف مسبقاً السيدة سهام، كما أني لم أسمع بها، فضلاً عن أني لا أعرف وزيراً للثقافة الفلسطينية اسمه سهام البرغوثي.

- سألت إياد البرغوثي: قل لي يا إياد من هذه السيدة سهام البرغوثي، فأنا لا أعرف- مع الأسف عنها شيئاً.

- إنها سيدة محترمة ومناضلة.

- وبس

- وبس

– أعرف أن إياد شخص ساخر وخفيف الظل: ماهو مجالها الإبداعي الثقافي أو الأكاديمي.

– هذا منصب سياسي يا أخي.

وعندي أن وزير الثقافة الفلسطيني يجب أن يكون أحد المبدعين المهمين، وهم كثيرون جداً، فمعركتنا الثقافية مع العدو لا تقل عن معركتنا السياسية والمسلحة.

ومع احترامي لهذه الوزيرة والوزيرة التي قبلها أو الذي كان في الحكومة الحماسية فإن قضية فلسطين تحتاج إلى شخصية عالمية وليست عربية فقط، أما تسمية شخصية محلية سياسية غير ثقافية فهذا أمر غير محمود أبداً.

في التاسعة ندخل متأخرين– أنا وعبد الرحمن أبو القاسم– إلى مطعم ضخم، حيث طاولات العشاء مرصوفة ودالة على انتهاء طقس الطعام.

أتقدم من السيدة الوزيرة مسلماً، وتستقبلني بكل أدب جم، وأعتذر لها عن التأخير بسب إياد البرغوثي كما اتهمته.

يطلب مني أن ألقي كلمة، فأرتجل كلمة من وحي المكان الذي كنت فيه ومن الثراء الروحي الذي صرت أملكه.

وأحاول أن أبسّط كلماتي كي تكون مفهومه للجميع، لأني وجدت نفسي أتحدث بوصفي فيلسوفاً يرفع التجربة إلى المعنى الكلي.

فمما قلته:

ها أنا في المكان الذي يمنحني قوة على قوة حضوري في هذا العالم، لم أكن أشعر يوماً بمثل هذا الامتلاء بالوجود، ولا بمثل هذا الأمان الروحي الذي أنا عليه، ولأول مرة أشعر ما معنى أن يمشي المرء على أرض صلبة جداً، ما معنى أن تتخلص من وصف اللاجئ.. وهكذا.

أغادر المطعم الذي لايعني لي شيئاً أبداً وأنطلق كالطائر، وأرفع عيني إلى السماء لأتأمل النجوم القريبة مني، وكأنها على وشك أن تحط على يدي.

في صالة الفندق المحامي خالد المحاميد وزوجته الكريمة يضع على الطاولة التي أمامه صخرة وعليها صورة أحمد برقاوي ومكتوب عليها أحمد برقاوي في يافا.

وجهي وأسمي على صخرة، والصخرة من نسختين، وحطت عند المنارة في يافا، ليلتقط خالد صورة الصخرة المطبوع عليها اسمي ووجهي وهي تتكئ على منارة يافا. أعانق خالد شاكراً ومندهشاً، وأسأله: كيف طُبعت الصورة على الصخرة، كيف فعلت ذلك..؟.

يشرح لي خالد التقنية الخاصة وفهمت أن هذا من منجزات التصوير الليزري.

أتأمل صورتي مطبوعة على صخرة من الصوان الفلسطيني

وكأني أرى وجهي لأول مرة، وأقرأ اسمي لأول مرة، تمنحني الصخرة معنى الأبد، إنها أشبه بقصائدي، أشبه بنصي الفلسفي، إنها كقلعة شوفة العصية على الزوال، إنها كفلسطين التي لن تكون إلا لي وحدي.

أصعد إلى غرفتي متأخراً، وأتناول قلمي وأبدأ بالقصيدة.

عند ضريحين:
أبو عمار ومحمود درويش

الأحد /١٣/ ٢٠١٢/٤/

استيقظت صباح الأحد وأنا ممتلئ بالفرح بسبب رحلتي الغنية، لكن روحي مرهقة من شدة المشاعر المختلطة والمتناقضة والتخيلات التي لاتحد والآمال الواقعية.

اليوم سأبقى في رام الله لأزور ضريحين: ضريح أبو عمار وضريح محمود درويش، ثم لأتجول في رام الله كي أتعرف على شوارعها ومحالها ومراكزها.

وكان الصديق عمر حلمي الغول قد أخذ اليوم زمام المبادرة ليكون دليلنا من جهة ومن ثم لنتناول طعام الغداء على مائدته.

حدثتك أيها القارئ عن عمر حلمي الغول سابقاً، لكني أضيف إلى ما قلته. أن عمر هذا الذي يحمل بين جنباته قلب الطفل كان يعمل في وزارة الثقافة في غزة، وبعد انقلاب حماس الدامي في غزة واحتكارها السلطة ومؤسساتها اعتقل عمر حلمي الغول لمدة خمسين يوماً، ثم خرج بعد أن توسطت له حركة الجهاد الإسلامي.

يحدثك عمر عن اعتقاله وظروف الاعتقال بنوع من الألم والحقدعلى حماس، وليس هناك ما يدعو حماس لاعتقال عمر، فعمر لم يحمل سلاحاً ولم يواجه، إنه من موظفي السلطة، خمسون يوماً في السجن كثيرة جداً، ابن الشعبية السابق يجد نفسه مسجوناً في بلده، إنه من أبناء غزة. بعد الإفراج عنه جاء إلى رام الله وصار بمرتبة وزير دون وزارة، يقلنا عمر من الفندق إلى حيث يعمل أولاً، ومن هناك يأخذنا إلى بيته الذي في طور الإنشاء في منطقة تدعى مدينة الدبلوماسيين.

أسأل عمر سؤالاً تفوح من رائحته المزاح: ما هذه مدينة الدبلوماسيين يا عمر «هو وقته»؟

يضحك كعادته ويجيب: اقتطع لنا أبو عمار قطعة أرض كبيرة لبناء حي سكني لموظفي السلطة الكبار ويعطى لنا بسعر الكلفة. ويضيف عمر والفرح يطل من عينيه: سيكون هذا الحي من أجمل أحياء رام الله.

كنت أتساءل ما إذا كان الوقت مناسباً لإقامة مشروع كهذا والكفاح من أجل الاستقلال وقيام الدولة المستقلة في بداياته، وميزانية السلطة تأتي أكثر ما تأتي من المساعدات الأوروبية، وليس من المعقول أن يصرف جزء من هذه المساعدات على إقامة حي للدبلوماسيين الفلسطينيين.

ولعمري إنه غريب أمر مسؤولي الحركة الوطنية الفلسطينية فليس للزهد مكان في حياتهم، مع أن الزهد الثوري شرط أساسي للثورة، وصفة ضرورية لكل ثائر.

إنك لتندهش من بيوت مسؤولي حماس في دمشق، حيث الشقق الفارهة في أرقى أحياء دمشق، قس على ذلك بيوت أغلب أعضاء المكتب السياسي للجبهة الشعبية القيادة العامة حيث الفيلات المستقلة في الأحياء الراقية، وكذلك بيوت أعضاء اللجنة المركزية لفتح سابقاً.

ويبدو لي أن الترابط بين السلطة والثروة في الوطن العربي داء عضال.

يقلنا عمر إلى «المقاطعة» أي بيت الرئاسة، ندخل هذا المبنى الجميل والضخم معززين مكرمين فلقد سبقنا خبر قدومنا أن ندخل مكاتب الرئاسة، نتوقف عند ضريح «أبو عمار» الذي قصدنا إليه.

عند ضريح أبو عمّار

الضريح بمقاييس أضرحة العظماء متواضع، تحت ضريح من الرخام غير المزخرف يرقد قائد ملأ الدنيا وشغل الناس.

فأبو عمار بطل تراجيدي بالمعنى الدقيق للكلمة، أشبه بأبطال التراجيديا اليونانية.

رجل أحيا هو وثلة من أصدقائه حال المقاومة ضد المحتل الصهيوني، وظل يقود الكفاح الفلسطيني في ظروف يحيط الموت به وبالشعب من كل جانب، لم يعرف عرفات –الذي كان يعي صعوبة ما هو بصدد تحقيقه– من أي الجهات تأتيه الطعنات، من الأنظمة العربية أو من أوروبا أو من أمريكا أو من العدو طبعاً.

لم يجر تآمرٌ على قضية في التاريخ من أبناء جلدته كما جرى مع قضية فلسطين.

مع رحلة «أبو عمار» الطويلة التف الشعب الفلسطيني حوله وتحوَّل إلى رمز كفاحه.

سجن أبو عمار في دمشق وطرد من دمشق، طرد من الأردن، طرد من لبنان من حصار لحصار عاش الرجل والقضية. سقطت طائرته في الصحراء وعاش، رأى الفلسطيني أبو عمار بكوفيته التي أخذها زياً شعائرياً وطنياً يقاتل في عمان ويوقع اتفاق وقف إطلاق النار في القاهرة بحضور عبد الناصر.

رآه في بيروت داخل الحصار يتجول في الشوارع ضاحكاً، رآه مرتحلاً على ظهر باخرة إلى اليونان.

رآه مقاتلاً في ربوع فلسطين قبل حزيران، وقائداً لمعركة الكرامة.

رآه على منصة الأمم المتحدة يلقي باسم الشعب الفلسطيني كلمة فلسطين.

رآه في جنيف وقد سافر كل أعضاء الجمعية العمومية إليها يستمعون إليه.

رآه يصافح كلنتون ورابين بتوقيع اتفاق أوسلو.

رآه محاصراً في المقاطعة يستضيء بالشمع في غرفة مظلمة.

رآه والدبابات الإسرائيلية تدمر المقاطعة وتصل إلى غرفته المظلمة.

ثم رأى الفلسطيني «أبو عمار» محمولاً على الأكتاف إلى مثواه الأخير.

أبو عمار الذي كان يسمع الشتائم بحقه مباشرة، انشق عنه بعض رفاق دربه وأسسوا فتح الانتفاضة وحاولوا إنهاءه ولم يحقد عليهم، اتهم بالخيانة بعد أوسلو من قبل الكثيرين دون أن يبالي، لم يحقد على أي فلسطيني معارض، لم يناصب العداء أي فصيل مقاومة.

عرف ضرورة حماس والجهاد للثورة وللحصول على مزيد من التنازلات من العدو.

مارس القيادة ديكتاتوراً في أغلب الأوقات، ولم يلتفت إلى

الفساد الذي انتشر في السلطة.

كتب أمام ضريح ياسر عرفات: «هنا يسجى جثمان الرئيس الراحل الشهيد ياسر عرفات الذي ولد في ٤/ ٨/ ١٩٢٩/ واستشهد في /١١/١١/٢٠٠٤/».

هذا البطل التراجيدي يجب أن ينتهي بالقتل، يجب أن يكون أبو عمار قد قتل بصورة من الصور، وبالسم على وجه الخصوص، ذلك أن قتله مباشرة بفعل قذيفة إسرائيلية أمر ذو نتائج خطيرة على إسرائيل عالمياً.

كان أبو عمار يظهر في الآونة الأخيرة بوجه متهدل وعينين منهكتين، كان الوجه يوحي بأن الرجل لم يعد هو الرجل الذي كان يتوقد حين يتحدث.

أعيد رسم المشهد في مخيلتي، مشهد دخول أبو عمار غزة وإلى أريحا وتنظيم الأشكال الخارجية للسيادة، العلم، السجادة في المطار، حرس الشرف.

دخل هذا البطل التراجيدي فلسطين بعد كفاح طويل، ليكافح من جديد بدون بندقية.

حين خسر أبو عمار البندقية في دخوله أصابه نوع من العذاب، وهو يدرك طبيعة عدوه، الانتفاضة الأولى جاءت بـ «أبوعمار» إلى فلسطين، واعتقد الرجل أن انتفاضة ثانية قد

تأتي بالدولة وعاصمتها القدس، انتصرت الانتفاضة الأولى وانهزمت الانتفاضة الثانية، كان لابد أن يموت البطل فمات أبو عمار شهيداً.

نترك قبر أبو عمار وأنا حزين حزناً وجودياً وندخل مكاتبه، ها أنا أمام أكياس الرمل التي وضعت على الشبابيك، شبابيك الغرفة التي كان محاصراً داخلها الرجل.

صوت أبو عمار يصل سمعي من خلف النوافذ: «يريدونني أسيراً أو طريداً أو قتيلاً، ولكني أقول بل شهيداً شهيداً شهيداً».

صارت هذه الكلمات بعد استشهاده ذات أثر كبير علي.

ولعمري إن موت أبو عمار هو الذي جعل منه أثيراً لدي، لم يكن في حياته ليعني لي سوى رجل شجاع ومحنك وذكي وذي أخطاء فادحة.

الموت حرره من كل شيء إلا من سمات البطل التراجيدي، أكياس الرمل تعيدني إلى حياة هذا الرجل الذي طالما حوصر مبتسماً، أكياس الرمل تعيدني إلى حصار أبو عمار في بيروت الذي أبلغه فيليب حبيب رسالة من بيغن الرسالة تقول:

«قل لأبو عمار من هو المحاصر أنا أم هو حتى يفرض شروطه علي».

أبو عمار في ظل الحصار كان متفائلاً، شارة النصر لم

تفارق يده في بيروت كما في طرابلس.

أبو عمار خانته كل العواصم ولهذا أراد أن يجد له موقع قدم في فلسطين.

لم أعرف معنى هذه الواقعة إلا و أنا في فلسطين، كان المطلوب منه بعد دخوله فلسطين أن يكون كأي حاكم عربي، مأساة أبو عمار حين دخل فلسطين أنه لم يستطع أن يجمع في شخصه بين أنور السادات وإرنست تشي غيفارا، لم يستطع أن يجمع بين رئيس السلطة الفلسطينية ورئيس فتح و م. ت. ف. إن روح الثائر لم تغادر روح المسالم والمساوم، لكن روح المسالم لاتستطيع أن تتحمل روح الثائر.

وأخيراً اختار أبو عمار أن يقتل في ذاته روح المسالم ويعلن روح الثائر بالانتفاضة الثانية.

في الانتفاضة الثانية أيقن العدو أن «أبو عمار» ليس أهلاً للخضوع وأن روح الثائر فيه لم تمت أبداً.

وهو بدوره لم يكترث بفكرة الموت، الموت شهيداً شهيداً.

نصعد إلى الطابق الثاني، هذا كرسي أبو عمار وتلك طاولته في غرفة واسعة متواضعة.

ظهر الكرسي محاط بكوفية أبو عمار، والطاولة عليها الأوراق وبعض ما تركه أبو عمار عليها.

إنه لأمر يغري أن أعرف حياة أبو عمار اليومية، كيف كان يعيش، ماذا كان يحب من الأكل، كيف كان يتعامل مع زوجته وابنته..إلخ.

ولكن يبدو أن أحداً لا يعرف إلا الشيء الشائع عنه.

التقطت صورة وأنا واقف خلف كرسي أبو عمار، ونخرج من مكتبه في الطريق إلى مكتب الطيب عبد الرحيم.

والطيب عبد الرحيم من عنتبا قضاء طولكرم، اسمه حاضر لدي واسمي حاضر لديه، وازداد وداً حين علم أني برقاوي من ذنابة وعاد وقبلني حين علم أن جدتي الحجة لولو، وأعتقد أن أمراً ما قد التبس عليه فربما الحجة لولو البرقاوي جدتي هي غير الحجة لولو التي يعرفها وهو طفل، وقد حاولت أن أدخل الشك في ذهنه، ويبدو لي أن هناك حجتين باسم لولو متشابهتين بالشهرة وامتلاك الثروة.

في مكتب الطيب عبد الرحيم الذي أظهر من الطيب ما أخجلنا، تجلس مجموعة من المسوؤلين، نتحدث بأمور سياسية ودنيوية ودينية بعفوية، والحق أن العلاقات بسيطة وسمحة داخل المكتب.

وأن هؤلاء المناضلين الذين عاشوا الحياة المعشرية بالأصل لم يغادروا عالمهم المعشري، فلا تلحظ اصطناع

الحديث، الظهور السلطوي، إنهم بسطاء و ودودن وربما خبثاء عند الضرورة أيضاً. نخرج من المقاطعة مودعين بكل اهتمام وقُبل، وقد شارفت الساعة على الثانية موعد الغداء عند عمر.

حين يجتمع الفلسطينيون يحضر الاختلاف حتى ولو كانوا جميعهم منتمين إلى جسم سياسي واحد، بل قل صار الاختلاف عادة فلسطينية والتعبير عن الاختلاف حق، لكن الخلاف بين حماس وفتح على السلطة أسس لطقس آخر في التعبير عن الاختلاف طقس النفي المتبادل هو ثمرة التمسك بالسلطة هنا وهناك.

حماس التي استولت على السلطة بانقلاب عسكري ودمرت المؤسسة الأمنية للسلطة وأسست مؤسساتها الخاصة لاتستطيع أن تقدم أي تنازل من شأنه أن يسلبها غزة.

وبالمقابل السلطة في رام الله لا تستطيع أن تنسى طعنة غزة وبالتالي فليس لحماس وجود في دائرة سلطتها.

حول طاولة الغداء عند عمر حلمي الغول الكل يشارك في الحوار المتعلق في الخلاف الفلسطيني– الفلسطيني.

لاشيء جديداً في هذا الحوار، المنتمون إلى السلطة في رام الله يكنون العداء الشديد لحماس إلى الحد الذي يجعلها العقبة أمام تحقيق حلم الفلسطينيين في دولة فلسطينية مستقلة في

غزة والضفة وعاصمتها القدس.

أحاول أن أحرف حواراً نتائجه معروفة إلى حوار حول مصيرنا ومصير إسرائيل، ولكن سرعان ما يعود الحوار حول السلطة.

والتأمل في الوضع السياسي في الضفة الغربية يجد نفسه أمام شبه استقرار أو أمام مرحلة لانعرف إلى أين تقود.

رغم الاحتلال والمستوطنات وعربدات العدو فإنك لاتجد سوى فاعليات محدودة ضد الجدار العازل، وبعض الاجتماعات برفقة المؤيدين الغربيين على سياسة الاستيطان، ولست أدري كيف يصل شعب واقع تحت الاحتلال إلى مرحلة صراع على سلطة هشة لا حول لها إطلاقاً سواء كانت في غزة أم في رام الله، إنه لأمر يدعو إلى الشفقة والحزن.

عند ضريح درويش

الأحد /١٣/ ٤/٢٠١٢/

تنتمي فكرة المزار إلى تقاليد الشرق العربي، والفرق بين القبر والمزار هو أن القبر يزار من قبل جمهور عريض من الذين يمتون بقرابة إلى صاحب القبر. المزار قبرٌ عظيم لدى طائفة،

لدى شعب، لدى فئة، قبر يحتل مكاناً خاصاً خارج مقبرة الجماعة في القرى أو المدن، وتغدو زيارة القبر طقساً أشبه بالطقس الديني، فقبر المعري منفرد، كما قبر محي الدين بن عربي، وقبر صلاح الدين، وقس على ذلك.

درويش بالنسبة للكثيرين أشبه بالولي الذي تُطلب بركاته، بل هو مزار، هذا الشاعر الذي تربع على عرش الشعر العربي أميراً بلا منازع.

فأينما ذهب وحلّ أقيمت له الاحتفالات، وجاء جمهوره- وهو من الشباب- بالمئات يستمع إلى هذا الشاعر الذي لم تشهد المنابر حضوراً كحضوره وصوتاً كصوته.

محمود درويش شاعر العرب الفلسطيني، غنيت بعض قصائده وسجلت على الأشرطة وعلى (C D)، لم يجمع الفلسطينيون على شخص كما أجمعوا على حب درويش والتعلق به، أبو عمار، جورج حبش في السياسة، ودرويش في الشعر. أتحدث عن الشعب، بل قل درويش شاعر الشعب،لم ينتصر شعب كامل لشخصية كما انتصر لدرويش، حين شوهه المسلسل أحس كل فلسطيني بأنه تم النيل منه، درويش ليس لأحد بعينه، هو للكل من المحيط إلى الخليج.

كُرس درويش شاعراً ذا مناعة ضد أي نقد بل إن أي نقد

لدرويش لا أثر له عند محبيه.

اشتهر صغيراً وخرج إلى الحياة صغيراً، ومن بين شعراء الأرض المحتلة كما سمّوا احتل درويش المكان الأبرز عن جدارة وحق «سجل أنا عربي» ألهبت كل القوميين وهو الشاعر الشيوعي.

شاعران اقتسما الجمهور العربي: نزار الذي استولى على أذواق الشباب والشابات في تجاربهم العاطفية ونزقهم السياسي، ودرويش في تجربتهم الوطنية وانتمائهم إلى فلسطين قضية.

صوت درويش الغنائي الشعري اخترق الوجدان العربي، الشفاهي عند درويش خارق، بين قراءة شعر درويش والاستماع إليه فرق كبير، والذوق الشعري العربي بالأصل، ذوق شفاهي، بل إن عيوب الشعر تختفي بالإلقاء، بخاصة الشعر الكلاسيكي الملتزم بالبحور والقوافي، فالإلقاء والقوافي والبحور هي التي منحت الجواهري لقب الشاعر الكبير، مع أن صوره عادية ومكرورة وباهتة، إنه صاحب قصيدة بحور وقافية ليس إلا.

لكن شعر درويش ليس نغماً وإلقاء فقط بل موضوعاً وصورة.

درويش مزار في رام الله، واليوم زيارة لدرويش، قليلة

هي الأضرحة التي زرتها في حياتي، لقد زرت ما قيل إنها أضرحة إخوان الصفا في تلال مصياف، وزرت ضريح صلاح الدين الأيوبي في دمشق، وضريح يوسف العظمة في ميسلون، وضريح أبي العلاء المعري في معرة النعمان، وضريح ابن تيمية في جامعة دمشق، وضريح خالد ابن الوليد في حمص، وضريح محي الدين النووي في نوى، وضريح محيي الدين بن عربي في جامع محيي الدين في دمشق.

وها أنا في طريقي إلى ضريح درويش بعد أن زرت قبلاً ضريح «أبو عمار».

تربطني علاقات قوية بأكثر مبدعي فلسطين: شعراء وروائيين وفنانين تشكيليين ونقاد أدبيين وأكاديميين.

لكن الظروف الجغرافية ربما حالت دون أن تقوم علاقة ما بيني وبين درويش، مع أن لدينا أصدقاء مشتركين كثر، وقد التقيت بدرويش مرتين في سوريا دون قصد، مرة في أمسية شعرية أحياها في صالة الجلاء، وكان اللقاء قصيراً جداً، ومرة بدعوة من وزير الإعلام السوري محمد سلمان آنذاك في نادي الشرق.

في المرة الأولى تصافحنا وعرفته بنفسي وكان ودوداً وقال لي: «معروف دكتور».

وفي المرة الثانية تحلق حوله المدعوون على شرفه ولم يتسن لأحد أن يكمل فكرة ما، وكان الجميع يتوجه إليه بالكلام.

ولكني حضرت له أكثر من أمسية على مدرج الهندسة ومدرج الجامعة وصالة الجلاء..

في المرة الثانية التي رأيته فيها كان ذا وجه مرهق دائم التحريك بشفتيه ولسانه، وشعره مصبوغ باللون الأقرب إلى الشقرة، يرفع نظارته بيده إلى عينيه، وحاجباه خفيفا الشعر، قليل الكلام وإن تكلم فبصوت أجش، ولم يكف عن التدخين.

أحسست أنه لم يكن سعيداً بهذه الجلسة، إما أنه لا يحب الجلوس مع عدد كثير من الناس، أو لأنه مرهق، لكنه كان ودوداً في نظراته مع الجميع، لم يتحدث أحد عن الشعر أو عن شعر الشاعر بل كان الحديث في السياسة ولك أن تتخيل عشرين شخصاً أو أكثر من الفلسطينيين والسوريين يتحدثون بالسياسة.

لكني أقمت علاقة متنوعة مع شعر الشاعر، فمازلت أقرأ درويش بوصفي شخصين: الفلسطيني من جهة، والفيلسوف من جهة ثانية، ولهذا عندما كتبت عن درويش في جريدة السفير كتبت نصاً فلسفياً، عندما رأيت درويش رأيته بوصفي فلسطينياً.

ولعمري إني نجحت دون إرادة مني في التمييز بين تلقّي شعر درويش فلسطينياً وقراءتي له فلسفياً، ولهذا أنظر إلى درويش على أنه شاعران وليس شاعراً واحداً، ودرويش الشاعر الفلسطيني أميز من درويش الشاعر الفلسفي.

كم كنت أفرح حين أرى الجمهور يفترش الأرض للاستماع إلى درويش، بل ويردد معه بعض قصائده، وحين أقول الجمهور فإني أعني المئات من كل الأجيال إناثاً وذكوراً، أفرح بهذا الجيل الذي يستعيد حرارته وهو يصغي إلى صوت درويش الموسيقي دون ملل إطلاقاً، وإن نعمة الحضور التي قيضت لدرويش أدخلته قلوب الناس وبسرعة كبيرة وميزته عن الجميع، إنه ببساطة يبز الجميع من هذه الزاوية كما قلت.

وإذا كان العربي يحب درويش، فالفلسطيني متعصب له، درويش وأبو عمار قادا معركة الفلسطيني بوصفهما رمزين: رمز الزعامة السياسية «الكارزمية» والبندقية، ورمز الكلمة المؤثرة والخلاقة.

ومازلت أتساءل: كيف تأتّى لدرويش قوة إيقاف جل شعره على قضية واحدة هي قضية فلسطين، إنه شاعر قضية بامتياز ولو لم تتوافر له عبقرية شعرية لما استطاع ذلك.

من «سجل أنا عربي» إلى «لاعب النرد» أحد أجمل قصائده،

مع أن حياة الذات ثرية أكثر مما نتخيل، بخاصة ذات الشاعر وتجاربه الوجودية متعددة وعميقة، هل كان باستطاعته أن يغير من تجربته؟ لا أدري.

لست الآن في معرض تقديم دراسة عن شعر درويش، وفي كل الأحوال، أعتقد بأنه حاضر في الوجدان كحضور قضية فلسطين، هل ضحى درويش بموهبته وحال دون ظهورها الأكمل بسبب وقوفه عند قضية شعبه..؟ ربما، ولكن فلسطين قضية تستحق أن يضحى من أجلها، وقس على ذلك تجربة رسام الكاريكاتور الفلسطيني الأشهر ناجي العلي.

ها أنا وعبد الرحمن أبو القاسم وعمر حلمي الغول أمام ضريح محمود درويش. لوحة مرمرية على القبر مكتوب عليها: «محمود درويش /١٣/ آذار /١٩٤١- /٩ /آب /٢٠٠٨/، وحول القبر مساكب زهور يغلب عليها اللون الليلكي.

الضريح جزء من مجمع ثقافي كبير بني بفن معماري يليق بالعظماء.

تحت التراب يقيم الآن شاعر لم يبلغ السابعة والستين من العمر، أمضى منها أكثر من سبعة وأربعين عاماً في كتابة الشعر، تحت هذا الرخام كائن ملأ الدنيا وشغل الناس بكل نزقه وخوفه وشجاعته وعشقه وآلامه وأفراحه، تحت هذا

الرخام يقيم لاعب النرد.

رحيل المبدع خسارة للحياة فكيف إذا رحل ومازالت تسبح في حبره عشرات القصائد.

أسأل صديقي عبد الرحمن الذي رغب في أخذ صورة لنا عند الضريح، وأي معنى لهذه الصورة، وأي ذكرى تلك التي تعنيها الصورة أمام القبر.

يبدو أن هناك وعياً خفياً لدى الكائن بأن العدم نسبي، فهل محمود الحي هو محمود الميت ذاته، طبعاً لا، بل إن محمود الراحل أغنى في الوجدان من محمود المقيم، هكذا هي الحياة. تلتقط الصور التذكارية مع الضريح، وفي اللحظة ذاتها أستحضر الحزن العميق الذي حطم قلوب الكثيرين ممن أعرفهم.

نترك القبر خلفنا وندخل متحف درويش، وهو بناء كبير تسمع في كل أنحائه صوت درويش دون توقف وهو يلقي قصائده، فأنّى اتجهت ترى وجه درويش وتسمع صوته.

في القاعة التي تحتوي على بعض أشيائه، خزانة زجاجية تحتوي على وثائق رسمية، كبطاقة هوية وجلاء مدرسي، وأمرّ من أمام هذه الأشياء دون اكتراث لأنها لاتقول شيئاً عن درويش، أخطو إلى الأمام طاولة وكرسي، قيل لي إن درويش قد

حملهما معه من باريس، إنها الطاولة نفسها التي كتب عليها والكرسي الذي جلس عليه. تشي الطاولة بذوق رفيع وحنين إلى عصر الحداثة، وكذا الكرسي.

قد لا يعرف الكثيرون العلاقة الحميمة التي تقوم بين الكاتب وكرسيه وطاولته، ولست أدري ما إذا كنت قادراً على تعميم تجربتي.

ففي مكتبي في قسم الفلسفة الذي يضم طاولات ثلاث إحداهما للدكتور يوسف سلامة والأخرى للدكتور سليمان الضاهر لم أستطع أبداً أن أجلس على الكرسي وأكتب على الطاولة، الكرسي والطاولة لا ينتميان إلى الفن، ولهذا فتشت عن طاولة قديمة من طاولات جامعة دمشق التي يعود عمرها إلى خمسين سنة وكرسي يليق بها، كلا الطاولة والكرسي مزخرفان.

وكذا في البيت حيث طاولتي وكرسي من فئة الأرابيسك، أتخيل الصداقة التي قامت بين درويش وهذه الطاولة الجميلة والكرسي الأنيق، أتخيل الأوراق المبعثرة وصحن السجائر والكتابة والتوقف عن الكتابة و«التشخيط».

هذه الطاولة التي شهدت ولادة القصائد ها هي الآن وحيدة للفرجة، إنها في زاوية لا شغل لها سوى أن تعرض ذاتها أمام

الزائر، الكرسي هذا لن يجلس أحدٌ عليه إلى الأبد، لن ينتظر أحدا ،كنت أتساءل في إحدى قصائدي:

« ماذا لو كان للشجر عيون..».

والآن أسأل ماذا لو كانت لهذه الطاولة عيون، ولهذا الكرسي عيون؟ فكيف ترانا، وكيف يرانا؟.

أنتبه إلى الخزانة القائمة خلف الكرسي، ثلاثة أقلام أو أربعة لست أذكر تستلقي على الرفوف. أدرك من فوري أن درويش أقام علاقة خاصة بالقلم، فالأقلام هي أقلام حبرٍ سائل ومن النوع الفاخر، وأنا مازلت أظن أن احترام الكتابة لاتكون إلا بأقلام الحبر.

عدد كبير من الكتاب يكتبون الآن بالأقلام الناشفة أو بأقلام الرصاص أو ما شابه ذلك. من النادر أن تجد الآن من يكتب بقلم الحبر الفاخر.

أدرك المتعة التي كان يحس بها درويش وهو يضم القلم بين أصابعه وتنساب ريشته الذهبية على الورق. القلم محبوب بالمعنى الدقيق للكلمة، بل إنك لا تستطيع- إن كنت تحب قلمك- أن تهديه للآخر.

أمام أقلام درويش تشعر بحزن وجودي، ذلك أنك تشعر بيتم القلم، أجل إذا كانت علاقة القلم بك يومية، قلم بعينه، في

غيابك عنه يصير القلم يتيماً لا أب له أو أم.

لكل قلم من أقلام المبدع قصة، إنها مجموعة أولاد أناملك، لكل قلم مأثرة، بل- لمن لا يعرف- هناك طقس لاغتسال القلم من الحبر الذي يتراكم عليه ويضر بصحة إنسيابه.

يعتقد بعض الكتاب أنها العادة، عادة الكتابة بالقلم الفاخر، فجمال القلم يغدو جزءاً من طقس الكتابة، حيث طقس الكتابة متكامل جداً بشكليه الخارجي والداخلي.

يمنحك القلم الحميم إحساساً خاصاً بأناك، أنه أنا لا يشبهه أنا آخر، فيغدو القلم الخاص جزءاً من أناك الخاص.

لست أدري ما إذا كان لدرويش هواية اقتناء الأقلام الفاخرة، لكن الأقلام التي رأيتها تشير إلى خصوصية القلم عند درويش، انتقلت من القلم إلى خزانة تحتوي على صفحات من شعر مكتوبة بخط درويش وبأقلام الحبر.

لقد أدهشني خط درويش الأنيق والجميل والمفهوم، إنه أشبه بخط والدي، ربما كانت هذه الأوراق أوراق قد بيضت لأنها خالية من الشطب. أقول أدهشتني لأن خطوط المبدعين بعامة خطوط جميلة لكنها غير مفهومة، وإذا صدقنا أن الخط معبر عن الشخصية فإن شخصية درويش منظمة حذرة وباطنية.

ونحن لا نعرف الكثير عن حياة درويش الخاصة، أو

على الأقل أنا لا أعرف، ولم أقرأ لأحد عن حياته، والمسلسل السخيف الذي عرضته إحدى الفضائيات لا يقول شيئاً عن حياته الخاصة.

كل ما أعرفه عن درويش أنه عاش طفولة فقيرة ومعذبة، وعمل في مطعم، ثم عمل صحافياً في جريدة الاتحاد، وانتسب إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي عام ١٩٦١، سافر إلى موسكو للدراسة عام ١٩٧٠، لكنه لم يستسغ ذلك فعاد إلى القاهرة واشتغل في جريدة الأهرام وقرر عدم العودة إلى فلسطين، ترأس مجلة شؤون فلسطينية بين عامي ١٩٧٣ و١٩٨١، ثم صار مديراً لمركز الأبحاث، غادر بيروت بعد غزوها من قبل العدو، تزوج من الفتاة الدمشقية الأرستقراطية رنا قباني عام ١٩٧٧، وهي فتاة جميلة ومثقفة، لكننا لاندري ما إذا كان قد عاش معها قبل الزواج تجربة حب أم لا ولاندري أيضاً أسباب الطلاق بعد سنتين أو ثلاث سنوات من الزواج، ثم تزوج من المترجمة المصرية حياة الهيني ثم انفصلا دون أن نعرف تفاصيل حياته معها وتفاصيل انفصاله.

عاش في باريس عشر سنوات بين ١٩٨٥ و١٩٩٥، انتخب عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ثم استقال بعد اتفاق أوسلو، أصيب بأزمة قلبية عام ١٩٨٤

وأجريت له عملية جراحية عام ١٩٩٩، وفي يوم السبت /٩/ آب/ رحل درويش بسبب العمل الجراحي في القلب.

نعرف أنه عاش تجربة حب قوية مع فتاة يهودية اسمها ريتا وكتب عنها قصائد جميلة تدل على هوىً جارف. والناس يعرفون قصيدته التي مطلعها بين ريتا وعيوني بندقية والتي كتبها في الستينيات، ويبدو لي أنه لم يحب حباً عاصفاً غير ريتا، والحب الصاعقي هذا إذا ما بقي دون برود من أحد الطرفين وصار الانفصال ثمرة ظروف قاهرة لايزول أبداً.

وعندي أن الذي يعيش تجربة حب صاعقي يحتاج إلى وقت طويل كي يعيش تجربة حب مثيله أو قد يمضي العمر كله دون استعادة التجربة، وإذا عدنا إلى ديوان أعراس الذي كتب درويش قصائده بين ١٩٧٥ و١٩٧٦، وقرأنا قصيدة الحديقة النائمة سنجد أنفسنا أمام هذا الحب العاصف بعد ثلاثة عشر عاماً في صورة:

أحبك ريتا. أحبك. نامي وأرحل
بلا سبب كالطيور العنيفة أرحل
بلا سبب كالرياح الضعيفة أرحل
أحبك. ريتا.أحبك نامي
سأسأل:

أما زلت نائمة

أم صحوت من النوم....

ريتا ! أحبك ريتا

أحبك...

بعد ثلاثة عشر شتاء، بعد ثلاثة عشر عاماً يردد درويش ست مرات في مقطع من قصيدة كلمة أحبك، وخمس مرات اسم ريتا، أي أن درويش ظل يحب ريتا حتى وفاته حباً صاعقياً.

هذا لايعني أن درويش لم يحب بعد ريتا، بل إنه لم يعش تجربة العشق والهوى التي عاشها مع ريتا مع امرأة أخرى، وقد قالت لي السيدة نعمت خالد عندما سألتها إن كانت تعرف شيئاً عن تجربة درويش في الحب إنها علمت أن درويش قد أحب امرأة تونسية ولست أدري.

ولكن قصائده في سرير الغريبة قصائد الحب وليست قصائد هوىً، أما حياته في باريس فإنها سمحت له بفسحة تأمل بتجربته، بحياته بوجوده وهذه الفسحة أثمرت وعياً جديداً لديه للشعرية.

وربما كانت تجربته مع الموت واحدة من أعمق التجارب التي عاشها والتي صاغها في الجدارية.

أجل: حين امتلأ درويش بكل أسباب الرحيل رحل.

ودعت درويش ومتحفه وضريحه وأنا فخور بكتابي: «كوميديا الوجود الإنساني».

درويش الذي عاش الوجود تراجيدياً، محملاً لغته الهم الفلسطيني، درويش الذي- لا أدري كم كان مشدوداً للحياة- لكني أعتقد أنه يحبها ولكن ليس بطريقة الصعلوك، درويش الذي سيقيم إلى الأبد في بيته المزار، سيزار إلى الأبد بوصفه رمزاً من رموز التراجيديا الفلسطينية والكفاح المبدع للفلسطيني.

محمود درويش الذي كان يعشق اللعب بالنرد، لن تستطيع أناملـه أن ترمي النرد على مسرح الحياة شعراً عظيماً.

رحل درويش وكتبت رثاءً له يوم موته أقول:

« سرق الموت نشيداً عربياً لازِمتُه فلسطين، مات النشيد، امتطى براق الموت، لوح دون أن يحمر وجهه خجلاً من دمعة أحمد العربي، وحيداً صار أحمد بلا نشيد.

صبرا تستعيد السؤال: أكل هذا الموت لنا..؟

في الظَهر نُطعن بالمدى ليلاً، بالصدر نطعن في وضح النهار، وغزة تنام على وجعين، تمر على موتين، فهل آثرت الرحيل كي يستفيق الفلسطيني على الموت البهي..؟.

أتراك أعلنت الموت كي نتذكر أحمد العربي والمحاصر بين

بندقيتين الأولى لنا والثانية لنا.

مات النشيد بعد أن صار أناشيد الحزن الفلسطيني، أناشيد الأمل الفلسطيني، أناشيد العشق الفلسطيني، أناشيد الحياة.

أي جرح نازف نحن يا محمود، روائيين ننزف، شعراء وموسيقيين ننزف، وفيلسوفاً ومحاصراً وشهيداً ننزف.

جرح ينفر ورداً أحمر، حتى إذا كانت آخر قطرة من الورد عزفنا لأنفسنا موسيقا الوداع الأخير.

مات النشيد وها نحن أولاء نشيعه على أكتافنا لقلبونا.

أيها الفلسطيني، أي قلب قلبك هذا..؟ قلب يصنع الحياة وقلب مقبرة.

تبعثرت أجسادنا في كل الأمكنة، وتتجمع قلوبنا الراحلة في القلوب.

أنهكنا الموت يا محمود من أجل أرض تستحق الحياة، ستسألك فلسطين وهي تلقي عليك النظرة الأخيرة..!

أكل هذا الموت لي..

أيها النشيد الراحل إلى قلبي، دعني أسر إليك في لحظة وداعك قائلاً:

إني أحب القمح لكني أحب الورد أكثر..».

مع النخبة في مركز حقوق الإنسان

الأحد /١٥/٤/ ٢٠١٢/

حول طاولة بيضاوية كبيرة تحلقت نخبة من أهل الفكر والأدب في رام الله، وأضيفت إلى الصف الأمامي من الطاولة كراسٍ كثيرة لأن القاعة لم تتسع للضيوف. وإياد برغوثي فرح بهذا العدد الكبير، ويعتذر لأن القاعة بالأصل لم تشهد مثل هذا الازدحام، وكان هذا نوعاً من المديح والتقريظ لي.

وجوه كثيرة أعرفها وربطتني بها علاقات حميمة في دمشق، أراها من بين الحاضرين، أسلم على العدد الأكبر من الحاضرين مصافحاً.

إن وصف الشعور لهو أشق مهمة يقوم بها المرء، بخاصة ذلك الشعور المتعلق بالانفعال أو بالانفعالات المتناقضة، فها أنا أقوم بأول نشاط لي في فلسطين، لأول مرة سأتحدث فيها أمام جمهورٍ فلسطيني من النخبة الفلسطينية التي تعيش تجربة الكفاح ضد المحتل.

أنا الذي اعتليت المنصات محاضراً في الفلسفة والفكر، أنا الذي ألقيت المحاضرات في الأردن والمغرب ومصر والبحرين والإمارات وعمان وبيروت وطرابلس وعدن وصنعاء، ناهيك

أني زرعت سوريا ذهاباً وإياباً في مدنها وقراها محاضراً، أنا الذي حاضرت في برلين ومدريد والنرويج، أنا هذا لم أعتلِ منصة في فلسطين، فلسطين لم تعرفني متحدثاً، ولم أعرفها محاضراً، إنها المرة الأولى التي ستحتضنني رام الله– فلسطين وستسمعني نخبها وجهاً لوجه.

أن تتحدث في رام الله يعني أنك في المكان الذي لا يستطيع أحد أن ينظر إليك بعين الريبة إذا ما تحدثت بشكل نقدي وتمردي، فأنا الآن لست ضيفاً، أتأمل الوجوه وجهاً وجهاً، زحمة المكان تمنحني سعادة، وكل محاضر يسعد بازدحام المكان.

أجلس بين الأصدقاء شاعراً بالقوة والحضور أتدفق بلغتي الشاعرية في موضوع تاريخي مهم: «أثر الثورات العربية على القضية الفلسطينية»، وأحلل بنية النظام السياسي العربي عموماً الذي لاهاجس له سوى السيطرة واحتكار القوة والثروة بعيداً عن أية أهداف وطنية أو قومية أو إنسانية، نظام لا يفكر بفلسطين إلا مشكلة يجب التخلص منها لأنها شكل فاقع من الأشكال الدالة على عجزه، فضلاً عن أنها تبرز فضيحة هذا النظام أمام الناس الذين مازالوا مشدودين وجدانياً إلى فلسطين.

وأخلص إلى نتيجة: أن الثورات العربية بعد استقرار نظامها السياسي القائم على خيارات الشعب الحرة ستعيد للقضية الفلسطينية حضورها و«ستجد إسرائيل نفسها في مأزق لم تشهده من قبل».

كانت المحاضرة طويلة والنقاش جرى بجوٍ من الألفة والمستوى العالي في الفهم، لم أتوقع أبداً أن أرى هذا العدد من الأصدقاء القدامى، لم أتوقع هذا العدد من الدعوات إلى البيوت.

كنت أعتذر بلطف شديد، لكن بعضهم لم يقبل اعتذاري أبداً، وحملني على أن أحدد موعداً الآن.. الآن.

أحاول جاهداً أن أتخلص بكل احترام ولكن عبثاً، فأعطي موعداً لهذا وموعداً لذاك، ولكني أخلفت معظم المواعيد فيما بعد.

نعود إلى الفندق أنا وعبد الرحمن أبو القاسم لنأخذ قسطاً من الراحة، لأننا على موعد مع يحيى يخلف هذا المساء.

مساء رام الله الربيعي يضج بالحياة، إنه ليس مساء مدينة شبه محتلة، يطرح عليك مساء رام الله بمطاعمها ومقاهيها وشوارعها التجارية المزدحمة سؤال الحياة، مساء رام الله يذكرك بمساء مخيم اليرموك الذي هو الآخر نموذج للحياة المتفجرة بالنشاط وكأن سكانه ليسوا بلاجئين.

يبدو لي أن قوة الحياة عند الفلسطيني التي اكتسبها خلال فترة طويلة من تناوب الموت والحياة، تناوب الانكسار والانتصار، من تناوب الأمل والتشاؤم علمته كيف يستمتع بالحياة وهو يكافح معرضاً حياته للخطر.

المقاهي القريبة من أرصفة الشوارع المليئة بكلا الجنسين تصوغ عالماً من الفرح اليومي.

ندخل أحد المقاهي أنا ويحيى يخلف وعبد الرحمن أبو القاسم، تحس مباشرة أنك معتاد على ارتياد هذا المكان، عدد الذين يمرون مسلمين محيين كثير جداً، «دكتور أحمد أنت هون شوها المفاجئة»، ثم يحضنني، «مين عبد الرحمن أبو القاسم يا مرحباً ممكن أن نأخذ صورة معك».

– أسأل يحيى– والجلسة حميمة جداً– كيف ترى المستقبل يا أبا الهيثم.؟

– كل هذه المستوطنات التي رأيتها ستزول حتماً، والدولة الفلسطينية آتية لاريب وعاصمتها القدس الشريف، والإسرائيليون يعرفون ذلك.

إنك ولا شك تفرح أمام تفاؤل كهذا، أتراه تفاؤل روائي على عجلة من أمره، ويريد أن يشهد هذا الحدث العظيم.

وأنا بدوري أشاطره هذا التفاؤل بل وأكثر من ذلك، إذ لدي

يقين مطلق أن دولة إسرائيل إلى زوال حتماً، لايمكن أن يعيش هذا الجسم الغريب في قلب هذه المنطقة، وكما أردد دائماً: «إسرائيل موجودة بفضلنا وليس أنفاً عنا نحن العرب».

– وأسأل: أتراه قريب هو اليوم الذي سيشهد ولادة الدولة وعاصمتها القدس دون مستوطنات مع الاحتفاظ بحق العودة..؟.

– قريب جداً– يجيب يحيى.

تمتلئ المقاهي بالرواد والتحايا تتكاثر، نقوم بتبادل الحديث عن الذكريات في الشام، ونتطرق إلى الأصدقاء المشتركين، ويحيى لا يذكر أحداً إلا ويطري عليه، فهو نادراً ما يذكر أحداً بسوء، دون أن يعني هذا أنه لا يوجه النقد إلى هذا أو ذاك:

– أتدري يا يحيى، مساء رام الله جميل ما رأيك بالسير على الأقدام كي نملأ عيوننا بالمكان.

– كما تشاؤون، ولكن لدي اقتراح آخر، ما رأيكم أن نتصل بأحمد دحبور.

– أحمد دحبور هنا– أسأل..؟.

– أجل جاء من أيام واستأجر بيتاً في رام الله.

– أعتقد أني تركته في حمص وكان مريضاً جداً.

– هو الآن أحسن.

– يتصل يحيى بأحمد دحبور، ويسعد أحمد دحبور: إنه بانتظارنا.

أحمد دحبور– الولد الفلسطيني، الذي مازال يحتفظ بطفولته، أحمد دحبور هذا المولود في حيفا عام /١٩٤٦/ واللاجئ أولاً إلى لبنان، ومن ثم اللاجئ إلى سوريا والعائش في مخيم حمص، هو الشاعر الذي كتب باللغة الفصيحة واللغة المحكية، كتب أحمد أغاني الثورة الفلسطينية.

في عام ١٩٧١ تقريباً –لم أعد أذكر على وجه التقريب– كنت أقف عند محطة الباص في شارع فلسطين حي التضامن قرب سينما النجوم حين اقترب مني شخص وراح ينظر إلي بإمعان:

– عفواً، مرحباً.

– أهلاً وسهلاً، خير.

– أمر مستحيل.

– ما هو المستحيل..؟

– أنت هو صورة طبق الأصل عنه، إنك آل باتشينو في فلم العرّاب.

– لم أكن حينها قد شاهدت فلم العرّاب، ضحكت وقلت له:

أنا أحمد برقاوي- طالب في قسم الفلسفة.

- أهلاً أحمد، هل هناك قرابة مع عبد الله برقاوي.

- أجل عبد الله هو أخي الأكبر.

- عبد الله صديقي.

من يومها صار هناك ود بيني وبينه، وكنت آراه دائماً إما في المخيم أو في دائرة الثقافة والإعلام، أو في دعوة في بيت أخي عبد الله، إلى أن غادر إلى فلسطين بعد أوسلو وقبلها إلى تونس.

ظلت صورة أحمد دحبور في مخيلتي الولد الفلسطيني الوسيم، عيناه واسعتان بريئتان، وقسمات وجهه متناسقة، دائم الابتسام، متواضع ومهذب.

أذكر قصيدته « العودة إلى كربلاء» وأحفظ جزءاً كبيراً منها، أذكر أحاديثه البريئة، وشغبه الجميل وقصص العشق.

غاب عني طويلاً ولم أره، كم كنا سعيدين حين دخلت مطعم «الجريون» في القاهرة ورأيت أحمد عام ١٩٩٩ ولكن كان وجهه متعباً وشعره صار أبيض بالمطلق.

ثم غاب أيضاً إلى أن أبلغني أحد الأصدقاء أن أحمد دحبور في مشفى الأسد في دمشق والتابع للجامعة.

هرعت إلى المشفى رأيت هذا الولد الفلسطيني يصارع من

أجل الحياة، على السرير، خراطيم التنفس والجسد المرهق مزروع «باللزقات»، عيناه غائرتان.

رآني فابتسم وحاول النهوض، لم يساعده هذا الجسد الذي طالما مرح في سهول الحياة، لم أستطع أن أتمالك نفسي:

– أحمد لا أريد أن أزعجك كثيراً، سأعودك مرة أخرى أرجو أن ترتاح.

– وبصوت بالكاد يخرج من حنجرته المتعبة رحب، أومأ بعينيه.

وقبل أن أخرج من المشفى، سألت من كان في الغرفة، ما إذا كان أحمد يحتاج أي شيء.؟، فقيل لي: لا، فالدكتور رياض نعسان آغا قد تكفل بعلاجه بشكل كامل.

عدتُ مرة أخرى لأعوده، فقيل لي خرج، وعلمت فيما بعد أنه عاد إلى مخيم حمص.

يستقبلنا أحمد دحبور متثاقلاً، بشوش الوجه، عينان مرهقتان، وابتسامة متعبة، ووجه يفيض بالحب، يؤكد لي منظر أحمد ماكتبته في كوميديا الوجود الإنساني، فالعدم يلاحقنا منذ اللحظة التي نغدو فيها بيضة ملقحة في رحم الوجود الأم، ففي النهاية الرحلة هي رحلة إلى العدم.

كأي مريض يحدثنا أحمد عن مرضه، عن تحسن صحته،

وعن رغبته في الإقامة في رام الله بدل غزة، وأن ثمن بيته في غزة فيما لو باعه ثمن بيت في رام الله.

يسألني عن الشام، عن أخي عبد الله، عن أشياء عامة، ثم نخوض- كالعادة- نقاشاً في السياسة.

ليل رام الله الذي يلف البيت بهدوء يضفي على البيت البسيط نوعاً من العزلة، وأحمد بصوته الضعيف يحدثنا عن ذكرياته، عن نصوص أغانيه الوطنية، عن قصصه اليومية في الشام والقاهرة، نخرج من بيت أحمد دحبور وأنا مثقل بهمه الفردي، فالجسد هو الإنسان، وهذا الجسد المثقل بكل أسباب العدم يقاوم لأنه يحب الحياة.

هذا الجسد الذي كان يمضي الليل ساهراً شروباً راح يترنح من شدة الألم، وعندي أن المبدع يجب أن لا يمرض ولا يستحق المرض، يجب أن لا يرى ذاته على هذا النحو.

أحمد دحبور الذي أوقف جلَّ شعره على القضية يرى نفسه الآن في معركة مع الحياة.

وإنك أيها القارئ لتندهش من كم الشعراء الفلسطينيين الذين جعلوا من فلسطين همهم الأساس وأبدعوا شعراً هو في مجمله عن حياة الفلسطيني وقضيته ومصيره وآلامه وآماله ورحلته في الحياة، درويش، أحمد دحبور، خالد أبو خالد،

سميح القاسم، توفيق زياد، يوسف الخطيب، أبو سلمى وكثيرون لا أذكر أسماءهم الآن، وكذلك إبداع الروائيين الفلسطينيين.

فالروائي يحيى يخلف، ما خلا نجران تحت الصفر، فإن رواياته وقفاً على فلسطين الحياة والأمل، من «تلك المرأة الوردة» إلى «تفاح المجانين» و«بحيرة وراء الريح» وانتهاءً بـ «ماء السماء» وروايتيه التسجيليتين «تلك الليلة الطويلة»و «يوميات الاجتياح والصمود».

وكذا الروائي رشاد أبو شاور من «العشاق» وانتهاءً بـ «الرب لم يسترح في اليوم السابع».

وقس على ذلك الروائيين الآخرين الذين لا مجال الآن لذكرهم، غير أن اللافت للنظر أن الإبداع الفني من الرواية والشعر والمسرح والفن التشكيلي يؤكد هويته الفلسطينية، بل قل طبع الهوية الفلسطينية.

نودع أحمد دحبور ونعود إلى فندقنا المليء بالضجة ونتحلق حول الطاولة الكبيرة في البهو ونبدأ وصلة الحوار الذي لاينتهي إلا في ساعة متأخرة من الليل.

بين أحضان
مدينة شعب الجبارين

الاثنين /١٦/٤/٢٠١٢

كان اللقاء الأول لقاءً بجبال أريحا الجرداء كما أشرت، ولقد استقبلتني بكل حنان الجبال، الجبال نهود الأرض، وجبل أريحا نهد الأرض الأول، عدت إلى النهد الأول وكلي عطش إلى قطرة الحليب الأولى، أريحا نهد وطولكرم حضن وبيت لحم مهد وفلسطين كل فلسطين رحم، كل جبال فلسطين نهود أرضعت البشر الحب والحضارة، كل جبال الشام نهود أبقت على الحياة والسمو، جبال الشام مسكونة كلها بالتاريخ وقصص الزمان الغابر، يعتقد أهل الشام أن قبر هابيل وقابيل يقع على قمة جبل قاسيون، جبال الخليل، جبال القدس، جبال نابلس، جبال أريحا، جبل عامل، جبل حرمون، جبل الفرنلق، لكل جبل حكاية، على كل جبل قلعة، وكل قلعة تحكي قصة تاريخ هذه البلاد.

أحمد كنعان يتصل، أحمد كنعان صديقي القديم، تعارفنا في دمشق، أيام الهدف ودار عيبال في بداية الثمانينيات، كان آنذاك عضواً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، حاصل على

الدكتوراه من الاتحاد السوفييتي، أحمد شخص مؤدب وصموت ومثقف ومن منطقة طولكرم.

يتصل أحمد وقد علم بوجودي في فلسطين، بعد الترحيب وإظهار الفرح بلغة حميمة يقول: «دكتور أحمد نريدك هنا في جامعة الاستقلال لإلقاء محاضرة في الموضوع الذي تشاء، وبالمناسبة كان عمر حلمي الغول قد أخبرني أن نايف جراد سيتصل بك»، وعندما سألته من هو نايف جراد أجاب بدهشة: «ولو.. لا تعرف نايف جراد..! صاحبك يا رجل ومن بلدك، هو الآن رئيس جامعة الاستقلال»، أفكر وأحاول التذكر، وأجيبه: «أخي عمر لم أتذكر اسم هذا الشخص»، يستدرك عمر ويقول لي: «آه.. أنت تعرفه باسم أحمد كنعان». نتفق أنا وأحمد كنعان أي نايف جراد على أن تكون محاضرتي يوم /١٦/٤/٢٠١٢/ الساعة الثانية ظهراً.

لم أسال الدكتور أية أسئلة حول مكان الجامعة لأنه أبلغني بإرسال سيارة تقلني من الفندق.

في اليوم نفسه يتصل بي الدكتور نايف ويبلغني أن السيارة ستكون الساعة الثانية عشرة أمام الفندق.

– لماذا سترسلها في هذا الوقت الباكر، أرسلها قبل نصف ساعة على الأكثر «اعتقاداً مني أن جامعة الاستقلال تقع في

رام الله».

– لا.. أصلاً تحتاج إلى أكثر من ساعة للوصول إلى أريحا.

– إلى أريحا..؟

– نعم.

كنت قد ضربت مواعيد لقاء مع عدد من الأصدقاء، ورحت أعتذر منهم، لكنّ هناك شاباً جاء من مخيم اليرموك وحبيبته من الخليل كان قد أحبها في إحدى الزيارات، كنت قد وعدته أن أذهب في عدد أفراد «الجاهة»لنخطب له حبيبته، وقد أزعجني أني قد لا أستطيع الذهاب معه أولاً وعدم رؤية الخليل ثانياً، لكني مع ذلك وعدته أنه إذا ما أنهيت محاضرتي باكراً سآتي إلى الخليل وحدي.

لاشك أنها ليست حالة عادية أن يحب لاجئ من مخيم اليرموك ومن قرية فلسطينية محتلة فتاة من الخليل ويتوج هذا الحب بالخطوبة، إنها الدلالة الرمزية نفسها التي كانت لعرس دير استيا الذي حدثتكم عنه.

فعاطفة الحب هنا مزيج من الوطنية والانتماء والهوية والإعجاب والأشياء الأخرى المتعلقة بالمرأة والرجل.

على باب الجامعة يستقبلني توفيق الطيراوي رئيس أمناء الجامعة ونايف جراد وعدد من الأستاذة.

أعانقهم وأشد على يدي نايف وتوفيق الطيراوي، أنظر إلى توفيق الطيراوي وأبتسم بل أقهقه وأسأله أتذكر يا توفيق حين زرتك في السجن في دمشق.

أجل: إنها قصة من أصعب القصص في تجربة الفلسطيني، لم أدرِ في أي عام بدقة كان ذلك ربما كان في عام ١٩٨٦ أو ١٩٨٧ وإليكها كما جرت.

الدكتور حامد خليل عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة دمشق، بعثي، كانت عواطفه مع صلاح جديد، لكنه عاد إلى النشاط داخل الحزب، يقيم علاقات صداقة مع عدد كثير من الفلسطينيين واليساريين السوريين، وظل وفياً لأفكاره اليسارية، وقام بجهد أساسي في تأسيس الأسبوع الثقافي لقسم الفلسفة في سنوات الثمانينيات والذي شارك فيه جل رجالات الثقافة العربية والسورية.

فقد كانت اللجنة المنظمة لهذا الأسبوع تتألف من: حامد خليل، وصادق العظم، أحمد برقاوي، خضر زكريا، غانم هنا، وقد شارك في إلقاء المحاضرات: عزمي بشارة وهي المرة الأولى التي يدخل فيها سوريا بدعوة من جامعة دمشق وبواسطة الدكتور حامد خليل وهي التي فتحت له الطريق إلى دمشق، محمد عابد الجابري، عبد الرزاق عيد، يوسف سلامة،

عصام الزعيم، ومحمد الأطرش، جمال باروت، ماهر الشريف، نايف بللوز، طيب تيزيني، نبيل مرزوق، فيصل دراج، حليم بركات، ناصيف نصار، فهمية شرف الدين، جورج طرابيشي، سمير أمين، خليل عبد الكريم، محمد سعيد عشماوي، رفعت سعيد، محمود أمين العالم، نصر حامد أبو زيد، خلدون النقيب، أحمد الربعي، علي الدين هلال حليم بركات، جودت سعيد، محمود عبد الفضيل، الطاهر لبيب.. وآخرون لم تسعفني الذاكرة بإيراد أسمائهم.

لقد كانت سنوات من الحيوية حيث شارك جمهور كان يفترش الأرض، وجرت نقاشات عميقة، وبغياب حامد غاب هذا التقليد- حامد هذا كان يرغب بأن تكون العلاقة الفلسطينية -السورية على أكمل وجه كما قال، ولهذا اجتمع بي وبالدكتور فيصل دراج، واقترح علينا أن نرتب لقاءات بين مسؤولين سوريين ومسؤولين فلسطينيين. واتفقنا أنه من جانبنا أنا وفيصل وبالاتفاق مع ماهر الطاهر وأبو نضال مسلمي بترتيب الجانب الفلسطيني وهو- أي حامد يرتب الجانب السوري.

سألني يومها حامد: هل صحيح- كما تعتقد القيادة السورية- أن جميع الفلسطينيين يؤيدون أبو عمار ويحبونه،

فأجبته:قل أغلب أبناء الشعب الفلسطيني وأغلب المنظمات هم هكذا، فأبو عمار رمز يقود الشعب الفلسطيني، وبالتالي العلاقة مع أبو عمار مهمة جداً.

ربما كان الدكتور حامد مكلفاً بهذه المهمة من قيادة سياسية وليس من أجهزة أمنية– لا أدري.

نحن بدورنا رتبنا له لقاء مع زهدي النشاشيبي ونايف حواتمة، ومع أبو علي مصطفى، وعندما جاء دوره، رتب لقاء مع أحمد درغام عضو القيادة القطرية.

في أحد الأيام اتصل بنا حامد وقال رتبت لكم لقاء مع شخصية مهمة جداً في هذا البلد، وهو أهم من رجالات السياسة وصاحب قرار.

– من هو يا حامد..؟.

– إنه شخص يدعى مظهر فارس، رئيس فرع فلسطين، وهو برتبة عميد، وهو فاعل جداً.

قادنا الدكتور حامد إلى بناء قرب كلية الآداب، وتجاوزنا بوابة عريضة بصحبة أحد الحراس أو الموظفين، صعدنا درجاً نظيفاً جداً على حافة الدرج مساكب صغيرة مزروعة بالزهور. دخلنا غرفة فاستقبلنا رجل قادنا بدوره إلى صالون كبير على الباب يقف رجلٌ ببزته العسكرية قصير القامة على ما

أذكر أو تهيأ لي أنه قصير، صافحنا بحزم، وراح حامد يعرف: الرفيق أبو نضال مسلمي عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الرفيق ماهر الطاهر عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الدكتور أحمد برقاوي أستاذ الفلسفة في جامعة دمشق، الدكتور فيصل دراج كاتب فلسطيني.

رحب بنا الرجل وجلسنا على كراسٍ مرصعة بالصدف الأصفر على ما أظن، فأثاث المكتب أثاث دمشقي مزخرف- أرابيسك يوحي بالأبهة، بدأ الأخ أبو نضال مسلمي وهو أكبرنا سناً وأكثرنا نضالاً قائلاً:

«نحن سعداء بهذه الزيارة ونرجو أن تسهم في تعميق العلاقة السورية- الفلسطينية» ثم راح يشرح أهمية العلاقة هذه، وبعد أن انتهى من إبراز أهمية العلاقة قال: «علينا أن نبحث بصراحة في أزمة العلاقة الحالية، لنعرف الأسباب ونتصور الوصول بها إلى ما يجب أن تكون».

لم يدع العميد أبا نضال يتم حديثه وقاطعه فوراً بلغة آمرة ولهجة عنفية: «عفواً أنا هنا في مكتبي لا حديث في السياسة، ألم تلتقوا بالمستوى السياسي قبل أن تأتوا إلي، أهلاً وسهلاً بكم، كل ما أستطيع أن أفعله لكم هو أن أسمح لكم بلقاء

السجناء الفلسطينيين والاطمئنان على أحوالهم فقط».

سادت حالة من الصمت، ابتسم أبو نضال مسلمي ابتسامة الإحباط، ولم يجب بشيء، أنا وفيصل نظرنا إلى بعضنا بعضاً نظرة دهشة.

ماهر الطاهر هو الآخر كأن على رأسه الطير، حامد خليل أصيب بحالة من اللاتوازن، لم يلتفت إلى أحد وأطرق رأسه أرضاً.

بإشارة من العميد مظهر فارس مع كلمة تفضلوا قمنا واقفين وخرجنا نازلين الدرج مع شرح مستفيض من العميد عن طريقة سقاية النباتات المبتكرة من قبله حيث يوضع الماء في المسكب الأعلى وينحدر ماراً بالمساكب كلها، وبعد أن أظهر لنا عبقريته وصلنا إلى ساحة.

تقدم منا شاب أسمر، نحيل، عيناه مليئتان بالكآبة والحزن والغضب، شاحب الوجه يرتدي لباساً عادياً وليس لباس السجناء، كان وجهه بالنسبة لي مألوفاً جداً، ولست أدري أين رأيته، نظر إليه أبو نضال مسلمي وبكل عفوية خاطبه: ها.. توفيق أنت هنا.. وتصافحنا.. إنه توفيق الطيراوي.

هذا العميد المتعجرف جداً، هذا الكائن الذي يعيش بلا قلب، يعرض علينا بكل قسوة سجيناً فلسطينياً لا ذنب له سوى أنه

منتمٍ إلى فتح، أربعة من الفلسطينيين: إثنان يعملان بالسياسة وآخران يعملان بالثقافة ومن كتاب الهدف يقفان وجهاً لوجه أمام سجين فلسطيني طُلب منه أن يتحدث عن ظروف سجنه المريحة والرائعة، طلب منه أن يشكر سجانه على هذه النعمة التي هو عليها.

أربعة من الفلسطينيين خرجوا من باحة السجناء مودعين رجلاً لم يستطيعوا أن يفعلوا له شيئاً.

خرجنا جميعاً كسيري الخاطر، حامد خليل وبكل خيبة أمل راح يشرح لنا عن صدمته ودهشته مما حصل معتذراً لنا عن هذا الموقف الذي وضعنا فيه، ودعنا حامد بكل أدب جم، افترقنا، أبو نضال مسلمي وماهر الطاهر ذهبا وشأنهم، عدنا أنا وفيصل إلى المخيم، مشينا في أزقته مستعيدين المشهد وفجأة انفجر كلانا بالبكاء، وفشلت محاولة حامد كلها.

بعد أكثر من ربع قرن ألتقي بتوفيق الطيراوي بوصفه رئيس مجلس أمناء الجامعة الأكاديمية الأمنية، جامعة الاستقلال، أستعيد ذلك المشهد أذكره به، يبتسم، ابن السبعة والثلاثين عاماً الذي قبع في السجن سنوات أربع ونيف هو الآن ابن أربع وستين سنة، آثار الزمن تطل من صوته، وانحناءة بسيطة من ظهره.

ألتقيه في أريحا مدينة الفلسطينيين الجبارين، اكتشفت وأنا أدخل جامعة الاستقلال أنها جامعة تخرج الكوادر الأمنية الفلسطينية، ويرأسها الصديق الدكتور نايف جراد، وفيها عدد من الدكاتره في اختصاصات متعددة، علم نفس، علم اجتماع، تاريخ..إلخ.

أنا لا أقول إن ليس هناك ضرورة لبناء جامعة تخرج قوى الأمن الداخلي، بل على العكس أن يكون رجل الأمن الداخلي خريجاً جامعياً وممتلكاً حداً من الثقافة أمر يقيم علاقة إنسانية بين رجل الأمن والمواطن، على عكس الحالة الحاضرة حيث رجل الأمن أقرب إلى التوحش منه إلى الحضارة، ولكن يجب أن تبنى مقابل هذه الجامعة الأمنية ثلاث أو أربع جامعات أهلية علمية وأدبية وتكون الدراسة فيها مجانية. المهم أني دخلت بناء ضخماً ذا عمارة جميلة، القاعة واسعة، أكثر من مئتي طالبٍ وطالبة باللباس الأخضر، والأساتذة كلهم، يقدمني الدكتور نايف، أعتلي المنصة وأنا ممتلئ بالثقة التي يمنحني إياها الوطن، أحس بالحرية المطلقة، إنها المرة الأولى التي أعتلي فيها منصة على أرض الوطن، منصة هي تحت إشراف السلطة، لكني لا أحس أبداً بسطوتها علي، ولا بنتائج سلبية جرّاء قولي ما أومن به.

وهكذا بدأت محاضرتي والتي هي بعنوان: «فلسطين من القضية إلى المشكلة» أعرّف لهم معنى فلسطين قضية، فلسطين قضية هي واضحة ومتميزة بذاتها، وطن محتل من حركة استيطانية عنصرية إجلائية هي الحركة الصهيونية في مرحلة الاستعمار التقليدي وفلسطين قضية- بهذا المعنى- لا تقود إلا إلى التحرير والعودة.

والأساس الذي قامت عليه كل حركات المقاومة الفلسطينية هو التحرير: منظمة التحرير الفلسطينية، حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح»، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، طلائع حرب التحرير الفلسطينية، الجبهة العربية لتحرير فلسطين، جبهة التحرير الفلسطينية.

المتأمل بأسماء هذه الحركات جميعها سيجد أن كلمة التحرير حاضرة فيها جميعاً، والأهم أن كلمة التحرير جزء لا يتجزأ من معنى منظمة التحرير وأهدافها.

فيما فلسطين مشكلة: يعني أنها مشكلة مع طرف آخر وتتطلب حلاً مع الآخر، المشكلة تفرض حلاً بين مختلفين على الحق واقتسام الحق، فيما القضية هي صراع الحق الفلسطيني مع اللاحق، لأن الحق لايناقض الحق.

وبالتالي فإن اتفاق أوسلو هو ثمرة النظرة إلى فلسطين

بوصفها مشكلة، وهي ناتجة عن رؤية النظام العربي الرسمي إلى فلسطين كمشكلة، فالنظام العربي وقد حوّل فلسطين مشكلة وراح يقيم العلاقات مع العدو ترك الفلسطيني يحل المشكلة وحده، وبالتالي لابد من العودة إلى فلسطين قضية، أي إذا كانت أزمة فلسطين في تحولها إلى مشكلة فإن العودة إلى فلسطين قضية يحرر فلسطين من الأزمة.

تحدثت طويلاً، وبعد أن انتهيت قام الأخ توفيق الطيراوي وقال بالحرف: «إنني أعمل في الشأن الفلسطيني منذ أكثر من أربعين عاماً، وقرأت عن القضية، واستمعت إلى الكثير، وأحب أن أقول لكم إنني اليوم قد استفدت كثيراً، وهي رؤية جديدة وتحليل لم نألفه من قبل».

وجرى حوار طويل بيني وبين الطلاب والأساتذة، بعد الاستراحة، أخذني الدكتور نايف جرار في رحلة إلى أريحا، وأية رحلة أجمل من رحلة في أرجاء أريحا.

أول ما ذهبنا إلى أريحا القديمة الواقعة على تل يطل على نهر الأردن، هذه المدينة- كما يعتقد بعض الآثاريين- هي أقدم مدينة في العالم حيث يعود تاريخها إلى عشرة آلاف عام قبل الميلاد، وهناك من يقول إن أريحا هذه قد بناها أجدادنا الكنعانيون عام ٦٥٠٠ قبل الميلاد، وأنا أميل إلى الرأي

الثاني، فاسمها «أريحا» والكلمة بكل معانيها آرامية ومن ثم عربية، فسواء كان معناها القمر، أو الرائحة الزكية، أو المكان الواسع فهي ذات أصول آرامية- عربية.

ومن الطريف أن أريحا في إدلب الاسم والمعنى نفسه وتعني المكان الواسع، والغريب أن جبل الأربعين في أريحا إدلب يساوي جبل الأربعين في أريحا فلسطين.

ترى لماذا هناك مدينتان تحملان الاسم نفسه والجبل نفسه..؟

وقد ذكرها الفرزدق بـ «أريحاء»:

شياطين البلاد يخفن زأري.... وحية أريحاء لي استجابا

وقد ذكرها الهذيل بـ «أرْيح»:

فليت عنه سيوف أريح إذا... باء يكفي ولم أكد أجد.

وقال أريح موقع في فلسطين.

أما القول إنها سميت على اسم أريح بن مالك بن أرفخشرين سام بن نوح، فهذا كلام البلهاء الذي يصدقون هذه الخرافة السلالية التوراتية.

إنها مدينة أجدادنا الآراميين- الكنعانيين الذين لقبوا بالجبارين، ولهذا كان يحلو «لأبو عمار» أن يطلق على الشعب الفلسطيني شعب الجبارين.

وقد ساء قليلي العقل أن يطلق أبو عمار على الفلسطينيين شعب الجبارين انطلاقاً من وعيهم الأسطوري- الخرافي بأن الكنعانين كانوا كفرة جبارين وأن الله قد سلط عليهم اليهود المؤمنين.. إلخ، الكنعانيون- الفينيقيون خالقوا الأبجدية، بانو المدن والقرى يقارنون بقبائل بدوية متخلفة ليس لهم أثر في الحضارة، جمعوا أساطير البلاد وضمنوها كتابهم انطلاقاً من وعي زائف.

أبو عمار حين كان يطلق علينا لقب «شعب الجبارين»، إنما ليؤكد استمرار تاريخنا وانتماءنا العميق لأرض فلسطين، ليؤكد أننا نحن المستمرون بلا انقطاع على هذه الأرض.

أصعد التل الذي بنيت عليه أريحا القديمة ويسمى تل السلطان، أمشي على دروب الطين، أتفقد بيوت أريحا وأتخيل أريحا المستطيلة والمستديرة التي أصبحت أطلالاً، أتأمل برج أريحا، وأتخيل الآرامي وهو يراقب الأفق، لم يخالجني أي إحساس بالفرق بين قلعة البرقاوي في شوفة وبرج الكنعاني في أريحا، كلاهما بيتي. شعب الجبارين هذا هو الذي بنى القدس أورسالم، أنتقل من أريحا إلى بناء القدس، الكنعاني الذي بنى القدس هو أنا، والقدس لي وحدي أفيض بها على العالم وأفتح أبوابها لكل من يحمل قلبه حاجاً إليها.

عشرات الرجال والنساء من ذوي السحنة الأوروبية يتجولون- هم الآخرون، في أريحا، وينظرون بنوع من الدهشة إلى هذا الزمن القديم، ربما هو بالنسبة إلى بعضهم مجرد مكان- زمان قديم صالح للفرجة ويرون المشهد بعيون استشراقية، وربما من بينهم من يصدق أساطير التوراة واحتلال أريحا الخرافي وربما لم يلتفت إليها بعضهم إلا من زاوية الطقس الجميل في نيسان.

أما أنا فكنت أتجول في مدينتي، في أرضي، وأرى بيوتي القديمة، أريحا الآرامية السورية الفلسطينية بداية الحضارة البشرية تعود الآن بكل تراثها الروحي والمادي لتعلن بداية عودة فلسطين إلى شعب الجبارين.

أنتقل من أريحا الآرامية إلى أريحا الأموية، الأميون أحد أهم حكام الدنيا ثقافة، ففي كل مكان تزوره من آثارهم تشعر بمدنيتهم وأرستقراطيتهم من دمشق إلى غرناطة، وإني لأرثي لأولئك الذين يكرهون بناة المدينة هؤلاء انطلاقاً من أحقاد قديمة كانت ثمرة صراع على السلطة وانتهى. فالمدنية التي أشادوها كافية لأن تنسينا أي صراع على السلطة القديمة، ولم يعد له من وظيفة سوى التمييز الطائفي. إني لا أتحدث فقط عن الجامع الأموي والأقصى وقبة الصخرة وقصر يزيد وقصر

هشام وقصر الحمراء والمدن المزدهرة ومدينة الحكم، وإنما أتحدث أيضاً عن نشر الثقافة وتحويل العربية إلى لغة عالمية، وعن التسامح الديني. انتقلت من برج أريحا إلى قصر هشام رمز المدينة الأموية وتطور فن العمارة والقيم الجمالية.

وهشام بن عبد الملك هذا، إذا تركنا التقويم الأيديولوجي للمؤرخين المعادين لبني أمية، واحد من أعظم ملوك العالم في عصره أو قل أعظم ملوك عصره.

ولد هشام في دمشق عام ٦٩١ م وتوفي ٧٤٣ م أي لم يعش أكثر من أربع وخمسين سنة وهو عاشر ملوك بني أمية تولى الحكم سنة ٧٢٤ حتى وفاته.

كان رجل دولة قاسياً وشاعراً شارباً للخمرة، توسعت الدولة في عصره حتى وصلت حدود الصين شرقاً وإلى الأطلسي غرباً.

أصلح أراضي كثيرة، وتوسع في العمارة وبنى مدينة الرصافة، ثم قصر هشام هذا.

والأهم من هذا وذاك جعل العربية لغة الدواوين، واتسعت الترجمة وازدهرت الثقافة.

مدحه الشاعر سعيد عقل قائلاً:

أمويون فإن ضقت بهم ألحقوا الدنيا ببستان هشام، أطلال القصر منثورة على مساحة واسعة جداً، هنا بقايا جدار،

وهناك بقايا غرف كبيرة، والأحجار لا تحصى، لكن أمرين هزّا وجداني، فسيفسائي شجرة الحياة وهي أرض غرفة استقبال أو غرفة استراحة، وتشكيل عبارة عن جدار داخله نجمة سداسية مزينة بقوس دائري.

شجرة الحياة فسيفساء أرض غرفة مربعة، الفسيفساء ملساء كأنها من قطعة واحدة، لا نتوء يذكر فيها أبداً، حاول الصانع- الفنان أن يجعلها كما لو أنها رسمت بالألوان. الرسمة عبارة عن شجرة قصيرة الساق تتفرع عنه أغصان طويلة، الأغصان مورقة الأوراق خضراء، وبعضها مائل إلى الصفرة، وبين الأغصان ثمار مستديرة ذات لون برتقالي.

على أرض الشجرة أسد يفترس غزالاً وعلى اليسار غزالان أحدهما وجهه نحو الأمام والآخر وجهه نحو الخلف، الشجرة محاطة بسور مزخرف زخرفة عربية، فيما أرضية الشجرة مستقيمة، بعد الغزلان أرضية مستطيلة مزخرفة هي الأخرى زخرفة عربية.

لا أدري من سماها شجرة الحياة، لكن تفاصيلها تدل على الحياة وتناقضاتها، جمال الشجرة التي من الصعب أن تعرف ما إذا كانت شجرة برتقال أو شجرة جميز أو ربما أراد الفنان العربي هذا أن يعرض للشجرة بصورتها المجردة، حتى الثمار

لا تعرف ما هي، إنها الشجرة رمز الحياة النباتية ورمز الجمال الطبيعي.

ثلاثة غزلان وادعة تستظل تحت الشجرة راعية، الغزلان رمز الجمال والضعف معاً محاطة بالنباتات.

الأسد، رمز القوة المقدسة عند العرب قديماً، والذي يشبه به الإنسان القوي والشجاع يفترس غزالاً، فيما الغزالان الآخران مشغولان بالحياة، وألوان الغزلان والأسد واحدة خليط من اللون البرتقالي واللون الأصفر.

ها نحن هنا، أمام رمزين: الحياة والموت معاً لا ينفصلان، إنه الافتراس من أجل الحياة، فيما الزخرفة العربية توحي لك باللانهاية، بل بالمتاهة، غزال يُفترس، وآخر ينظر إلى الأعلى عيناه نحو أوراق الشجرة وثمارها، والثالث عيناه إلى الخلف، ربما هو خائف من خطر، كل غزال مشغول بأمر ما.

أما النجمة السداسية فالمشهد هو التالي: كان هناك جدار عالٍ داخل الجدار دائرة من الحجر، داخل الدائرة سداسية من نوع خاص، مختلف عن النجمة السداسية المألوفة في الفن البابلي والآرامي، النجمة عبارة عن ست رؤوس متساوية الأبعاد والمسافات وداخل النجمة دائرة أيضاً عند كل رأس من رؤوس النجم طاقة صغيرة، جميع أحجار المشهد مزخرفة

بالخطوط المنحنية كما أن المسافة بين رؤوس النجمة هي الأخرى منحنية.

ورغم أسفاري الكثيرة وهوايتي في رؤية الأماكن الأثرية لم أر مشهد نجمة كهذه أو شكل نجمة كهذه، هذه الرؤوس المتقابلة ترسم جهات ستاً وليس أربعاً إنها أشبه بالأنثى حيث ساعدين مشرعين ونهدين وساقين منفرجين، والدائرة هي الرحم هكذا تراءى لي على الأقل.

وبمناسبة النجمة السداسية التي اغتصبت من قبل الحركة الصهيونية كما اغتصبت فلسطين، فكما ساهمت السلطات العربية بضياع فلسطين ساهمت أيضاً بضياع النجمة السداسية، من ذا الذي يصدق أن شخصاً بدوياً عاش قبل ألف وثلاثمائة من ولادة يسوع قادر على أن يخترع نجمة أصلاً، فالنجمة السداسية هي نجمة سورية قديمة، هي نجمة كنعانية قبل أن تظهر في المنطقة القبائل الهمجية.

إنها رمز الخصب الكنعاني، رمز علاقة الذكر بالأنثى، فالمثلث الذي رأسه إلى الأعلى يمثل العضو الذكري، والمثلث الذي رأسه إلى الأسفل يمثل العضو الأنثوي، وتشابك المثلثين يعني وحدة الذكر والأنثى، وقصة احتلال النجمة السداسية قصة سخيفة، فلقد اتخذها روتشيلد رمزاً لشركاته ثم وضعت

على إعلان المؤتمر الصهيوني الأول، ومنذ ذلك الوقت اعترف الغباء العربي بملكية الحركة الصهيونية بالنجمة السداسية، وإذا مررت أيها القارئ من جانب التكية السليمانية في دمشق وهو مكان ديني إسلامي ستجد أن سورها الخارجي مرصع بالنجمة السداسية ،كما أنك إذا أمعنت النظر بالزخرفة الشامية «الأرابيسكية»، ستجد أن النجمة السداسية شكل أصيل في هذه الزخرفة، ولو كنت صاحب قرار لاستعدت هذه النجمة، وأعدت إليها اسمها الأصلي: نجمة كنعان، ووضعتها على أعلام الوطن العربي.

نتجول في قصر هشام وأطلاله الواسعة، هنا جدار مهدم، وهناك بقايا غرف، أعمدة متناثرة، حمامات لاتعرف الآن، قبور الأجساد التي تنعمت بمائها الساخن، وبجو أريحا الخلاب نتساءل عن قبر هشام في الرصافة السورية على نهر الفرات، ويبدو أن هشام كان يقضي الشتاء في أريحا والربيع في الرصافة، والصيف والخريف في دمشق.

نترك قصر هشام ونتوجه إلى أريحا اليوم، إلى شوارعها ونسير متجولين في أسواقها.

نتوقف عند بائع يعرض بضاعته على قارعة الطريق، رجل تجاوز الستين على ما يبدو، أمامه علب من البخور، والكوفيات

والعُقُل، وبعض سلع الهدايا.

– نحيي الرجل بحرارة، ويبادلنا التحايا بحرارة أكثر: كيف حالك..؟

– أهلاً وسهلاً من أين..؟

– أنا فلسطيني قادم من سوريا.

يشعر الرجل بسعادة ظاهرة على كلامه ومحياه وسلوكه، أحمل علبتين من التمر وأمد له يدي بالنقود ولكنه يقسم اليمين الحاسم أنه لن يأخذ مني فلساً واحداً.

أصابني نوع من الخجل، علبتان من التمر الريحاوي الفاخر وهو غالي الثمن. وليس هذا فحسب، بل إن الرجل يلبسني الكوفية والعقال ويطلب مني أن يُلتقط لنا صورة مشتركة، وهكذا كان ولكني بكل إلحاح رددت له الكوفية والعقال.

أتأمل هذا المشهد وأتذكر المشهد نفسه في بيت لحم، وأتساءل لماذا يتصرف الفلسطيني في بيت لحم أو في أريحا وفي رام الله معي على هذا النحو.

الأمر ببساطة، يريد الفلسطيني أن يؤكد انتماءنا المشترك، أن يدلل على أننا في فلسطين والشتات شعب واحد، هؤلاء هذه طريقتهم، وللآخرين طريقتهم المختلفة.

اقتربنا من حديقة واسعة وداخلها مبنى جميل يعود إلى

بداية القرن العشرين، ومكتوب عليه «هذا المكان ملك لروسيا الاتحادية» حاولنا الدخول إلى الحديقة التي يقال إن فيها شجرة جميز معمرة جداً، بل إن البائع قال إنها تعود إلى ألف عام، لكن المكان مغلق والحارس الجالس في «الكولبة» رفض إدخالنا إلا إذا وافق المسؤول الروسي المقيم في الداخل، لأن وقت الدخول قد انتهى، دخلت المبنى وخرج المسؤول الروسي، وكلمته باللغة الروسية وكم كان فرحاً أن أحداً يحدثه باللغة الروسية، ولم يتردد أبداً بالموافقة مؤهلاً بنا، بل واصطحبنا داخل الحديقة.

أعانق شجرة الجميز الذي يعتقد الروسي أن عمرها الأكيد أربعمائة سنة فقط.

الروسي هذا يحدثك فوراً عن اغترابه، إنه موظف هنا ولكنه يعيش حياة موحشة، لا أصدقاء لا فاعليات يقوم بها، زوجته وابنته في روسيا بسبب المدرسة، يسألني بعد أن استأنس بي عبر لغتي الروسية، ما إذا كنت قادراً على أن أقيم هنا كي لا يشعر بالاغتراب، قالها مازحاً ومضمراً رغبة في البحث عن صديق يعرف لغته.

أضحك وأجيبه لا مع الأسف.

ياه: ما أعظم اللغة وقدرتها على خلق الألفة والتواصل،

أعود إلى رام الله أجيل عيني في كل الأنحاء، ولم أحس أبداً بالمسافة، بل ونسيت أصلاً أني على سفر، وكأني خلال دقائق كنت في غرفة الفندق.

في المساء كنا على مائدة الفنان عماد حمدي وهو ممثل مسرحي مشهور، دمث إلى حد الدهشة، وعلى شرف عبد الرحمن أبو القاسم كان العشاء الفلسطيني.

وعلى المائدة الفنان وليد عبد السلام مدير المسرح الفلسطيني، قال: إنه لم ينم البارحة وذلك بسبب أن جنوداً صهاينة قد قرعوا الباب الساعة الثانية ليلاً، صرخ وليد عبد السلام مين فأجاب الجنود لا تخف نحن جيش الدفاع الإسرائيلي.

انفجرنا جميعاً بالضحك بل بالقهقهة «لا تخف نحن جيش الدفاع الإسرائيلي»، وكأن «لا تخف نحن جيش الدفاع الإسرائيلي» آتٍ لبعث الطمائنينة في سكان البيت الساعة الثانية ليلاً، وكأن هذا الجيش «الوادع جداً» ذو تاريخ من التسامح والألفة مع الفلسطيني»!! «لاتخف نحن جيش الدفاع الإسرائيلي» إذا لم يخف من جيش عنصري مجرم فممن يخاف، هل يحمل الجنود وروداً وزهوراً أم يحملون بنادق ورشاشات، ويعتمرون الخوذ ويظهرون بزيهم العسكري الكامل، يفتح

الباب والبنادق مصوبة إليه كي يطمئن أكثر ولا يدخل الخوف إلى قلبه.

– أين ابنتك فلانة..؟

– إنها نائمة ماذا تريدون منها.

– مطلوبة ومعنا أمر باعتقالها.

يعتقلون الفتاة ويذهبون بها إلى حيث لايدري أبوها وأمها، أي اطمئنان أكثر من هذا الاطمئنان الذي أعطي للعائلة، البنت التي لم تبلغ الخامسة والعشرين تساق في الليل إلى جهة مجهولة، لتبدأ رحلة البحث عن مكان اعتقالها الذي يسمى اعتقالاً إدارياً، ولايدري الأهل إلى متى، الفتاة– الصبية ابنة فنان «مودرن» لاتحمل سلاحاً، ولاتخطط لعملية تفجير، كلما تفعله أنها تواجه الاحتلال بالكلمة فقط.

وأسأل: إذا كانت الصبية الفلسطينية تخيف عدونا إلى هذا الحد ولاتملك إلا أنوثتها وكلماتها فأي عدو ضعيف هذا.

يضحك الأب وكأن شيئاً لم يكن، لأن ابنته اعتادت على الاعتقال.

هو ذا الفلسطيني ابنة شهيد تحمل معها الياسمين إلى رام الله، معتقل لسنوات يزداد إيماناً بانتصاره، والدة شهيد تختال تيهاً بكل كرامة، أب يضحك وابنته في الاعتقال.

جدل الحزن والفرح الدائم جدل الألم والأمل الدائم، نحن فعلاً نحب الحياة، وكم كان درويش محقاً حين استعار من نيتشه قوله: «على هذه الأرض ما يستحق الحياة».

من جامعة بيرزيت إلى دير سودان

الثلاثاء ٢٠١٢/٤/١٧

رتب الصديق الدكتور عبد الكريم البرغوثي الأستاذ في جامعة بيرزيت بقسم الفلسفة لقاء لي مع طلاب الجامعة وأساتذتها عبر محاضرة بعنوان «الوعي الفلسفي للحراك العربي».

وبيرزيت في وعيي قرية أو ضاحية من ضواحي رام الله، قرية مسيحية ينتسب إليها الشاعر الشهيد كمال ناصر، والسياسي الأديب ناجي علوش، والصديق سلامة كيلة.

ولكل واحدٍ من هؤلاء مكانة خاصة في ذاتي.

سمعت بكمال ناصر لأول مرة في عام ١٩٦٤ أو ١٩٦٥ لا أدري بالضبط حين استمعت إليه وهو يلقي قصيدته في عيد ميلاد البعث في دمشق، وكان يومها والدي من زعماء البعث ومطلع القصيدة:

دربنا في العلا وحيد طويل كالأماني وكل نعمى تطول

وينهي مقاطع القصيدة بلازمة تقول: وسيبقى البعث الأصيل الأصيل.

كانت القصيدة يومها –بمعايير الأيديولوجيا –ذات شأن

كبير ولهذا حفظناها عن ظهر قلب. لكنها الآن وبمعايير الشعر والشعرية– قصيدة لا قيمة لها، وعمرها قصير جداً.

وتدور الأيام ومؤلف قصيدة: وسيبقى البعث الأصيل الأصيل يقاد إلى السجن بعد انقلاب صلاح جديد في ٢٣/ شباط/ ١٩٦٦/ حيث راح الرفاق يسجنون الرفاق.

مع تطور الثورة الفلسطينية يندرج كمال ناصر في الثورة ويُختار عضواً في اللجنة التنفيذية رئيساً لدائرة الثقافة والإعلام، في العاشر من نيسان عام ١٩٧٣ يقوم العدو الصهيوني بعملية إرهابية ويغتال إلى جانب كمال ناصر كمال عدوان ويوسف النجار وكان عمره آنذاك خمسين عاماً.

سماه الفلسطينيون «الضمير» لشدة أخلاقه الثورية الحميدة، أذكر أننا يوم المجزرة الرهيبة اجتمعنا في حرم جامعة دمشق وانطلقنا في تظاهرة غاضبة من حرم الجامعة متجاوزين حي الحلبوني وفجأة سارت وراءنا شاحنة محملة بجنود أو شرطة بخوذ وهراوت ونزلوا من الشاحنة كالكلاب المسعورة وراحوا ينهالون علينا بالضرب، وكان عددنا يتجاوز المئات، نصفنا من الطالبات وكانت يومها أيضاً قيادة الاتحاد مؤلفة من أربعة صاعقة وثلاثة فتح وواحد قيادة عامة وواحد جبهة شعبية. وقد قدمنا استقالتنا جميعاً

وكنت أحدهم من قيادة الاتحاد، ولم تفلح معنا طلبات العودة يومها كنا: وليد جابر عادل مغاري، محمد قويدي من فتح، أحمد برقاوي، عودة أبو حليب، سمارة، سهيل نور صاعقة، عبد الفتاح غانم قيادة عامة، أما الآخر من الجبهة الشعبية فلم أعد أذكر اسمه، وبالمناسبة فإن مصائر هؤلاء التسعة تلخص السيرورة الثورية، فجابر صار متفرغاً في أحد مؤسسات فتح، وعادل مغاري انشق مع أبو موسى وخالد العملة ووصل إلى عضو لجنة مركزية عندهم وقد مرض ومات قبل سبع سنين، ومحمد قويدر صار طبيباً وغاب عن الأنظار.

أما عبد الفتاح غانم فقد انشق عن القيادة العامة في السبعينيات وصار في جبهة التحرير الفلسطينية، ثم انشق عن جبهة التحرير وأسس جبهة لم أعد أذكر اسمها، وقد رأيته آخر مرة قبل سنوات أربع في مزرعته الكبيرة في ريف دمشق في اجتماع في الفيلا التي تخصه لمناقشة الوضع الفلسطيني، وكان قد عاد إلى الضفة بعد أوسلو.

أما عودة أبو حليب فهو التراجيديا الحقيقية، مقاتل في الصاعقة جاء من غزة، وكانت الصاعقة آنذاك المنظمة الثانية في الكبر والقوة والنشاط بعد فتح، حيث كانت تضم بعثيي الأردن وفلسطين ولبنان وسوريا، وكانت السلطة آنذاك قبل

١٩٧٠ ترفع شعار حرب التحرير الشعبية.

بعد هزيمة أيلول جاء إلى دمشق من الأردن، وانتسب إلى الجامعة، صار رئيساً للاتحاد العام لطلبة فلسطين، بقي في الجامعة سنوات طويلة دون أن يتخرج فيها.

تفرغ في أحد مكاتب القيادة القومية، اضُطهد بكرامته، أصيب بلوثة عقلية- ازدواج شخصية- دون أن يلتفت إليه أحد، صار مشرداً يسكن بيتاً في جبل قاسيون.

آخر لقاء به كان في عام ١٩٧٨ حيث رأيته في بوفيه الجامعة.

سألته عن أحواله ووضعه، فأجابني وعلى شفتيه ابتسامة غريبة.

- لقد استدعاني حافظ الأسد.

- ولماذا استدعاك ماذا قال لك..؟

- أراد مني أن أكون الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي بدلاً منه.

أدركت أن الرجل قد فقد عقله السوي، وأنه مصاب بازدواج الشخصية «الشيزوفرينيا».علمت فيما بعد أنه وجد في بيته وحيداً ميتاً متفسخ الجثة ورائحتها هي التي دلت عليه.

وهذا يذكرني بشاب- لا أريد أن أذكر اسمه، فمازال على قيد

الحياة وكان من أنشط الطلاب في فتح وذا كارزمة قيادية، رأيته بعد عودتي من الاتحاد السوفييتي وكم فرحت بلقائه وسألني أين تعمل الآن..؟

– في جامعة دمشق قسم الفلسفة.

– تمام، أريدك أن تدرس كتابي في الجامعة وتقرره على طلابك.

– نظرت إليه نظرة ريب وسألته ما عنوان كتابك..؟.

– جمهورية النساء، فهو الكتاب الذي يدعو إلى قتل جميع الرجال والإبقاء على النساء.

ودعته، وعلمت فيما بعد أنه يعيش في مكان شبه مشفى نفسي ولكن أحداً لا يهتم به.

أما سمارة فقد ترك الصاعقة وانتسب إلى فتح وعين في أحد مكاتب م. ت. ف. في الخارج. وأما صديقي سهيل نور... فقد صار مديراً للمركز الثقافي في إدلب ومات في حادث سيارة.

أما أنا فقد تركت الصاعقة وتابعت دراستي في الاتحاد السوفييتي والباقي معروف.

لعن الله الاستطراد ولكنه ممتع.

والشخصية الثانية هي ناجي علوش الذي لم أعرف أنه

مسيحي ولم أعرف أن سكان بيرزيت مسيحيون إلا متأخراً جداً، وذلك عندما زرته في بيته في دمشق وسألته عن زوجته الكريمة أم إبراهيم فأجابني أنها راحت تصلي في الكنيسة لأن اليوم هو الأحد.

– وهل أنت متزوج من مسيحية..؟

– نعم وأنا مسيحي أصلاً.

كان ناجي علوش بالنسبة لنا–نحن الطلاب– قامة فكرية ونضالية كبيرة، أذكر أنه عندما زارنا في مبنى الاتحاد العام لطلبة فلسطين تحلقنا حوله مستمعين بكل انتباه بوصفه أستاذاً. ودارت الأيام وبعد عودتي من موسكو في عام ١٩٨٠ أصبحنا أصدقاء، نزوره في بيته، وحضنا على الكتابة في مجلة الوحدة.

أول كتاب لي نشرته «محاولة في قراءة عصر النهضة» كان بفضله في دار الرواد– بيروت ١٩٨٧.

وهكذا رحنا نراه باستمرار حين إقامته في دمشق، وآخر مرة رأيته حين زرته في عمان وليتني لم أزره. فلقد وجدت شخصاً ذا جسد عاطل عن المشي، وعقل راح يفقد ذاكرته، ناجي هذا الشخص المتمرد دائماً القومي العربي الفلسطيني الفتحاوي.. نال منه الزمن.

ليس فيما كتبه ناجي علوش شيئاً يغري، ولكن سيرة حياته هي التي تتسم بقدرتها على الإغراء.

أما سلامة كيلة هذا الشخص النبيل من بيرزيت وابن أخت ناجي علوش والذي يملك قوة روحية هائلة فلقد نمت علاقة الصداقة معه في دمشق وهو العاشق لها عشقاً صوفياً.

سلامة هذا غاب عنا سنواتٍ ستاً قضاها سجيناً سياسياً في سجون المخابرات السورية بتهمة لايمكن أن تكون عقوبتها ساعة واحدة من السجن، بل لايمكن لأحد أن يصدق أنه سجن بسبب أن مسؤول حزب العمل قد زاره وشرب عنده فنجان قهوة وخرج.

كانت علاقة ناجي علوش بالنظام السوري جيدة بسبب إرثه القومي واختار دمشق مكاناً للإقامة بعد بيروت. طُلب من ناجي أن يأتي بابن أخته لطرح بعض الأسئلة عليه لمدة لا تتجاوز دقائق.

واعتقاداً من ناجي أن مكانته لاتسمح للنظام بأن يعتقل ابن أخته اصطحبه إلى أحد فروع المخابرات، جلس ناجي ينتظر خروج ابن أخته سلامة كيلة ليصطحبه معه، خرج المحقق أو المسؤول وقال لناجي: «أستاذ ناجي لو سمحت سنحتفظ بسلامة لهذا اليوم لأن التحقيق معه لم ينته بعد».

ذهب ناجي وعاد في اليوم التالي: فقيل له: عفواً أستاذ ناجي مازلنا بحاجة لسلامة لبعض الوقت غاب ناجي وبقي سلامة ست سنوات في السجن، وحين خرج من السجن أعلن أنه سُجن بسبب مقاومته للنظام الاشتراكي، هذا الماركسي الأرذوكسي مناهض للنظام الاشتراكي.

خرج سلامة من السجن ولم يغادر دمشق إلى أن قادته المخابرات وأخرجته عنوة بعد اعتقاله وضربه.

هؤلاء الثلاثة من بيرزيت القرية الفلسطينية الوادعة القائمة على شبه جبل.

يتصل بي عبد الكريم البرغوثي بين الفينة والأخرى كي يذكرني بموعد المحاضرة، ثم يأتي مبكراً قبل ساعتين ليصطحبني إلى جامعة بيرزيت كي نتجول في أنحائها والتعرف على أساتذتها قبل أن تبدأ المحاضرة.

ندخل جامعة نموذجية في بنائها، الطلاب والطالبات منتشرون في ساحات الجامعة وحدائقها، أفرح بالعلاقات الظاهرية التي تقوم بين الطلاب والطالبات، حيث يجلسون معاً ويسيرون معاً، فالاختلاط بين الرجال والنساء أمر في غاية الأهمية ويخلق الألفة ويحرر الرجل والمرأة معاً من عقدهما الجنسية، بل ويجعل الرجل أكثر إنسانية وحباً، ويجعل

المرأة أكثر أماناً وحرية، تجعلك الجامعة بهذه الهيئة تطمئن إلى مستقبل الأجيال التي ستخوض صراعها مع العدو أو قل ستقف في وجه العدو بكل ما أوتيت من معرفة ووعي جديد بالعالم.

ندخل بناء الجامعة وأقسامها، ونصل إلى كلية الآداب، يستقبلنا الدكتور مهدي عرار عميد الكلية الذي طالما التقيت به في مؤتمر جامعة فيلادلفيا الثقافي في عمان- يستقبلني بحرارة، ويطلب مني فوراً أن آتي إلى هنا وأكون في عداد الأساتذة.

أمر على قسم الفلسفة، ألتقي بزملاء أعزاء، وأنى حللت فثمة ترحيب بي.

أدخل القاعة المليئة بالصبايا والشباب وعدد كبير من الأصدقاء، منهم الصحافي والأديب وليد أبو بكر، ورئيس اتحاد الكتاب الشاعر مراد السوداني، وآخرون لم أعد أذكر أسماءهم.

أقدم رؤية فلسفية لما يجري في الوطن العربي محللاً البنى التي استمرت فترة طويلة وتسعى نحو الاستمرار رغم أنها أصبحت عتيقة ومهترئة، وكيف استخدمت أعلى درجات القمع معاندة للتاريخ ومصابة بالصمم التاريخي، هذا الداء الذي منعها من أن تحدث أي تغيير في الحياة.

حتى تحولت مجتمعاتنا مجتمعات انفجارات، فلقد تمزق القميص ولم يعد قابلاً للترقيع فتوسع المجتمع وقواه وحاجاته صار أوسع بما لا يقاس من السلطة، والثورة قامت لا كما أرادها لينين لا ثورة بدون نظرية ثورية، الثورة ضد احتكار القوة والثروة وممارسة القوة الهمجية.. إلخ.

يجري نقاش رفيع المستوى مع الطلاب والأساتذة، واستمرت المحاضرة أكثر من ساعتين شعرت خلالها أني في أبرز لحظات حياتي وأكثر قوة في حضوري، مزهواً بالحالة كلها.

كنت والطلبة والأساتذة يتحلقون حولي كأني في جامعة دمشق أوأحد مراكزها الثقافية، ولكن هذه المرة في الرحم الأول، أفكر أني في الحالة الطبيعية باستطاعتي أن أنتقل أسبوعياً من جامعة دمشق إلى جامعة بيرزيت، كما كنت أنتقل من جامعة دمشق إلى جامعة حلب، هل يأتي يوم أقوم فيه بهذه الرحلة أسبوعياً ولمَ لا، ربما تنتهي قريباً هذه المزحة الثقيلة الظل التي اسمها إسرائيل.

في المساء نجتمع في بهو الفندق، عدد من أعضاء الوفد وآخرون ممن حضروا للذهاب معاً إلى بيت الشاعر مراد السوداني، ومراد السوداني نسبته إلى دير السودان، وهي قرية

تبعد ما يقرب من ثمانية عشر كم عن رام الله، نسير إليها ليلاً عبر طرق متعرجة جبلية.

ندخل بيتاً تراثي المنظر والعمارة لكنه جديد البناء، وهذا تعبير عن تعلق الشاعر مراد السوداني بالجذور الفلسطينية، وتأكيده الهوية مقابل من يريد لها أن تزول بفعل الاحتلال.

المدعوون يتجاوز عددهم الثلاثين، يملأون الغرف والصالونات، وكالعادات القروية المتبعة يقود مراد أو من هم من أقاربه بعض الضيوف للجلوس في صدر البيت، لكني آثرت الجلوس حيث يجلس من أقيم معهم علاقات حميمة معتذراً من أصحاب البيت، أنظر فأرى شخصاً وجهه مألوف لدي يلبس لباساً رسمياً، بزة وربطة عنق، وأسأل عنه- لأنه جالس في الصدر- فيقال لي مسؤول فتح في لبنان اللواء سلطان أبو العنين.

يدخل توفيق الطيراوي ويجلس إلى جانبي ونبدأ الحوار عن طريق أسئلتي عليه

يقول لي توفيق الطيراوي: «أخ أحمد ليس هناك في إسرائيل من اليمين أو الوسط أو اليسار من هو مع دولة فلسطينية مستقلة، عدد من اليهود الذين التقيت بهم بحكم عملي والمفاوضات مقتنعون أن وجودهم في فلسطين مؤقت، وأنه سيأتي يوم

يرحلون فيه عنها». «السلام مستحيل بيننا وبين إسرائيل ليس لديهم أي رغبة في ذلك»، «اليهود متعصبون والمستعمرات لن تزول إلا بالقوة»، «هذا صراع تاريخي طويل». «نحن دائماً نفاوض على ما كنا قادرين على الحصول عليه».

– ولكن لدى يحيى يخلف رأي آخر، إنه مقتنع بأن المستوطنات أو المستعمرات ستزول كما زالت مستعمرات غزة، والدولة آتية لاريب.

يصمت اللواء توفيق ثم يقول:

– إن شاء الله، ولكن لا أعتقد ذلك، على الأقل في المدى المنظور.

– يقف مراد السوداني وبعض أقاربه ويدعون الحضور لتناول طعام العشاء.

إنه المسخن والمنسف.

ويبدو أن المسخن ليس مجرد طعام عشاء، إنه تأكيد هوية وإذ صار طقساً للطعام الفلسطيني القح، كيف وأنت تأكله على مائدة في قرية من قرى فلسطين من قرى جبل نابلس.

إنه فعلاً ذو خصوصية، فهذا الخبز لا مثيل له إطلاقاً ولم أر مثله أبداً ويقول من هو بجانبي: «هذا خبز البلاد»، «هذا منسف البلاد يا دكتور».

كأنه يردد لازمة لنشيد: «خبز البلاد»، «زعتر البلاد»، «تمر البلاد»، «زيت البلاد»، والخطاب المستتر وراء هذا الترديد: لاشيء يساوي مافي «البلاد» كل ما في البلاد هو الأحسن.

ليس للألفاظ وقع على السمع في فلسطين فقط، بل ووقع على الذوق.

فما أن تسمع: هذا سمك يافا» حتى تجتاحك رغبة جامحة في التذوق، وتتلذذ إلى الحد الأكثر متعة، مع أن سمك يافا هو ذاته سمك طرطوس كما أشرت.

وزيت زيتون البلاد هو زيت زيتون حوران وجبل حوران، وقس على ذلك الأشياء الأخرى من زاوية طبيعية، ولكن من ذا الذي باستطاعته أن يقنع متعلقاً بفلسطين بوصفها قضية وطنية ووجدانية أن أشياءها ليست أهم الأشياء في هذا العالم. بل إنه صارت للأشياء صفات «ماهوية»: تمور أريحا، وبرتقال يافا، زيت نابلس، زعتر جنين.. وقس على ذلك.

وتحويل الأشياء إلى رموز منحها قدرة على التأثير وتأكيد الهوية. فالثقافة الفلسطينية من ثقافة الغناء والموسيقا والرقص مروراً بثقافة الطعام والأفراح والأتراح وانتهاءً بثقافة المعتقدات والأدب والفن أحد أهم عوامل استمرار الكفاح الفلسطيني، واستمرار فلسطين حاضرة بوصفها مستقبل كل

فلسطيني على هذه الأرض.

وضعف العدو أصلاً أنه مقطوع الجذور، وليس له ثقافة معيشة مرتبطة بفلسطين، إنه لايمتلك إلا طقوس دينية لاتحتاج إلى مكان محدد لممارستها.

كل جماعة يهودية جاءت إلى فلسطين وحملت معها ثقافة وطنها، فالروس هم روس بثقافتهم وقس على ذلك الجماعات اليهودية الأخرى.

فلا يمكن لليهود في فلسطين أن يكون لهم ثقافة أنثروبولوجية واحدة أبداً، لأن الثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي تحتاج إلى عشرات مئات السنين لتتكون وتستمر.

نعود من دير السودان ونحن ملأى بالحياة المعشرية وبالود وبفرح اللقاء الذي يقول أمراً واضحاً: حين يلتقي أهل فلسطين في فلسطين فإنهم يقسمون قسم العودة، ويبعثون الأمل بفلسطين وقد عادت إلى أهلها الأصليين جميعهم.

إلى بيت لحم -مهد الفادي

السبت /١٨/٢٠١٢/

تربطني بالمسيح بوصفه فكرة علاقة حميمة، وفكرة أن الإله يتجسد بشراً ليست هي المهمة، الفكرة الجميلة أن هناك إلهاً قرر أن يفدي البشر ويموت من أجلهم، أن يصلب من أجلهم، خلاصاً لهم. وسواء آمن الناس بوجود المسيح أم بفكرة المسيح فإن الأمر يبقى في حقل جمالية المعنى، معنى فداء البشر. وهذه فكرة سورية– آرامية، وبهذا المعنى فهو سوري– فلسطيني بامتياز بل واسم أم المسيح اسم سوري، ماري ومريم اسم سوري قديم يعود إلى الأسماء الآرامية حيث تعني مريم بالآرامية السيدة أو الأميرة.

فكانت بيت لحم المدينة الآرامية القديمة مهد المسيح قبلتي هذا اليوم السادس عشر من نيسان.

الأخ إسماعيل تلاوي يفرز لنا سيارة تقلنا إلى بيت لحم، الساعة الواحدة ننطلق إلى بيت لحم أنا والسيدة نعمت صالح.

تقف السيارة ثم تمشي ببطء بعد أن تجاوزنا رام الله بضعة كيلو مترات.

– أسأل السائق ما هذا الزحام..؟

– والله يا دكتور هذا أوسخ حاجز في الضفة، هذا حاجز قلنديا.

– وهل يعني هذا أننا سنقف عند الحاجز طويلاً..؟

– الحاجز الآن هو زحمة جداً بسبب أن كل السيارات الذاهبة للقدس والعائدة إلى رام الله تسير في هذا الاتجاه.

– هل سنخضع للتفتيش عند اليهود..؟

– هون مافي يهود الآن شايف هذا البرج العالي، هذا يمكن أن يكون فيه جنود العدو.

على شمال الطريق يقع مدخل مخيم قلنديا، وهو من الخارج شبيه بالمخيمات في لبنان والأردن وسوريا قبل أن تتحول المخيمات إلى مدن صغيرة.

والمخيم هو الدليل الذي لا يرقى إليه الشك على الجريمة التي اقترفتها بريطانيا وفرنسا والحركة الصهيونية بحق شعب فلسطين.

أعود إلى حاجز قلنديا الذي وضعه الصهاينة بوصفه علامة قف، فالطريق إلى القدس ليس سالكاً لك أيها الفلسطيني أبداً، حاجز قلنديا حاجز العنصرية المطلقة التي تقول للفلسطيني لا حقوق لك على هذه الأرض.

حاجز قلنديا اللغة العملية التي للأيديولوجيا الغربية والمغتربة عن كل العصور.

بل كلمة حاجز تقع على النفس موقع السجن والقهر والمنع والتعسف والقيد، الحاجز برج مراقبة وإسمنت وخوذة ورشاش وتعطش للقتل، الحاجز نفي الآخر نفياً كلياً، الآخر هو أنا الفلسطيني بالنسبة للعنصري الصهيوني، اللباس ليس زياً أو ستراً للجسد وحفاظاً عليه بل هو مكان لإخفاء شيء ما.

السيارة ليست وسيلة تنقل، إنها وسيلة تهريب ما، أمام الحاجز تعيش تجربة فقدان الحرية بشكل مطلق، عليك أن تمتثل لإرادة عدوك.

أفكر وأنا في حالة من الغضب والهيجان بما سأفعل إذا كان هناك جنود للعدو، سأتشاجر حتماً، ففي الشجار سأثبت له أنه مغتصب وأني رغم اغتصابه فأنا حر.

لا أعرف كيف ستكون نتائج الشجار لايهم ولكن يجب أن لاينسى العدو أبداً حقي وقوتي الروحية وشجاعة وجودي.

نتجاوز الحاجز دون أن نرى أحداً من أفراد العدو، ربما كان هناك نفر منهم في برج المراقبة العالي لا ندري لأنهم يرونك ولاتراهم.

لم يمض وقت طويل، وما كدنا نتأمل الطبيعة وأسماء القرى الصغيرة المتناثرة على يمين الشارع ويساره حتى وصلنا بيت لحم.

بيت لحم مكان في مخيلتي قبل أن أراها، صورة رسمتها من قراءاتي لتاريخها ومكانتها وموقعها في الضفة، هي في مخيلتي مدينة صغيرة ذات طابع روماني قديم، وحولها بيوت جديدة، كأية مدينة عربية يجب أن يكون حولها بقايا سور وبوابة كقنوات وشهبا في محافظة السويداء.

رأيتها على شاشة التلفزيون كثيراً أيام الانتفاضتين الأولى والثانية، ولن أنسى حصارها من قبل جنود العدو ولجوء المناضلين إلى كنيسة مهدها.

أعرف- مسبقاً- أنها مدينة آرامية قديمة اسمها يعني: بيت الإله الكنعاني «لخمو» إله الخبز ويعود تاريخها إلى ما قبل ألفي عام، وأعرف أن عمر قد دخلها وصلى فيها.

وبالنسبة لي المدن القديمة مدن ساحرة وأشعر بمتعة جد عميقة وأنا أتجول في أزقة تعود لمئات السنين، بل إن المدينة أو القرية التي لاتاريخ لها هي من وجهة نظري قبيحة جداً.

كم هو طقس جميل لي، يومياً تقريباً أدخل باب شرقي في دمشق، الباب نفسه الذي دخل منه خالد بن الوليد فاتحاً وأرخت هذا الطقس بقصيدة طويلة.

ففي كل مرة أدخل فيها باب شرقي أحس أنني أنا الفاتح، بل إن الذي جعلني متعلقاً حتى الهوى ببيوتنا في شوفة

وذنابة وكفر اللبد وطولكرم هو روح التاريخ الذي يسكنها، إن الأماكن تتكلم تحاور، تحزن، وتفرح.

تقف السيارة بنا قرب ساحة خلابّة أنا لا أعرف اسم الساحة في كل الأحوال سميتها ساحة كنيسة المهد، ساحة تعج بالناس، وأنت تدخلها من رام الله يكون مسجد عمر على يمينك وكنيسة المهد على يسارك.

أتخيل عمر قد صلى في هذا المكان الذي أقيم عليه المسجد هو وصحبه، أتخيل إلى جانبه خالد بن الوليد ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف وهم الذين شهدوا على العهدة العمرية.

لكن الأهم أن تتخيل الحوار الذي دار بينهم وابتسامات النصر. وكان فتح القدس وبيت لحم في شهر نيسان ٦٣٧.

لاشك أنه كان حواراً عميقاً حول مستقبل الدولة ومشكلاتها وإدارة البلاد المفتوحة، وكانوا بين الحين والآخر يتبادلون الفكاهة.

ولاشك أيضاً أن سادات قريش كلهم يعرفون الشام، بخاصة فئات التجار منهم، وربما سكنها بعضهم لفترات طويلة.

أتخيلهم قد وقفوا أمام كنيسة المهد، ودخلوا مغاراتها يحف بهم عشرات المقاتلين من لابسي الدروع، وتأملوا من الساحة

الجبال، ثم أعطى عمر الأمر ببناء مساجد مقابل كنيسة المهد، لاشك أن المسجد الذي بني أيام عمر ليس هو المسجد المنتصب الآن في الساحة، لأن المسجد جديد وقد جدد- ربما عشرات المرات، وهو كأي مسجد حديث.

أنطلق من بوابة المسجد إلى كنيسة المهد، والتي بناها يوسنيسان عام ٣٣٥.

جدار عالٍ أقف جنب الجدار ويُلتقط صورة لي، أبدو أني متكئ على جدار يمنحني الاطمئنان بالقوة، أجل أستند على جدار قوي، فأنا بدوري أنتمي إلى هذه الكنيسة كما أنتمي إلى مسجد عمر، فالساحة لاتفصل بين المسيح والفاروق بل تصل بينهما، وكل شخص طبيعي منحه التحرر من التعصب الديني أو أي تعصب آخر ويرى بعيون الحياة، يدرك حاجة البشر لأن يتعين العدل اليسوعي على الأرض عبر العدل العمري عبر ديمقراطية تتجاوزهما بدولة الحرية.

الجدار يمنحني القوة لأن جدار في بيت لحم جدار فلسطيني، وأدخل من الباب الرئيس للكنيسة، قاعة من الأعمدة المرمرية الخشب المزخرف حفراً.

عشرات الأجانب يقفون بالدور لدخول المغاور، ولو أني انتظرت لمضى علي وقت طويل قبل أن أصل إلى الأبواب التي

تفضي إلى الأدراج، ولهذا ما كان مني إلا أن وافقت على طلب الدليل السياحي بأن يدخلني من باب خلفي، ويمضي معي شارحاً تاريخ الكنيسة ومفصلاً لي معالمها.

هي ذي مغارة المهد، تنزل إليها عبر درجات، تواجهك فتحة سورت بمعدن ملون يلمع، ينزل الزائر المسيحي ويقبل هذا المكان، يقال إن هذا المكان هو الذي ولد فيه المسيح، ثم على بعد متر تقريباً شبك وراءه أنوار خفيفة يغطي الشبك مساحة تتسع لطفل فقط يقال إن هنا مهد المسيح.

إذا تخيلت الزمان الذي مضى، فإن المشهد يمكن أن يكون على النحو التالي:

حين أحسّتْ مريم بالمخاض ذهبت إلى هذه المغارة كي تولد، لابد وأن هذه المغارة كانت صالحة للعيش، ثم لفت وليدها بالقماش ووضعته في المكان الأصلح.

أتأمل الداخلين وكلهم تقريباً من ذوي السحنة الأوروبية وأتساءل وأتأمل المسيح وعلاقته بفلسطين.

ترى لماذا لا تحمل هذه العلاقة الأوروبي على جعل فلسطين مكاناً عالمياً للسلام والمحبة..؟ ما الذي يدفع الأوروبي لتأييد العنصري الصهيوني..؟.

والمسيح، أصلاً، قطيعة مع اليهودية بشكل مطلق، بل

ولا أدري لماذا يعتقد المسيحيون بالتوراة القديمة، وعندهم الإنجيل الذي طرح مفهوماً جديداً للإله الذي يكره الحرب أولاً وإله لجميع البشر ثانياً، وليس إله قوم يعدهم إن هم التزموا بأوامرهم أنه يعطيهم أرض كنعان، إنه- أي المسيح هو النقيض المطلق ليهوه، وفكرة أن المسيح ولد من غير دنس ومن روح الله لاتعني سوى أنه لا ينتسب إلى أحد ولا أحد باستطاعته أن ينتسب إليه بالدم.

إن فلسطين هذه هي المكان الوحيد في العالم الذي يعتقد فيه الناس أن إلهاً كلياً وللبشرية كلها قد ولد فيها، إن مكاناً يولد فيه الإله الكلي الذي لم يأت إلا بوصايا أخلاقية يجب أن يكون قد تحرر منذ زمن طويل من عنف الديانة القومية المتعصبة.

بل إن الفلسطيني ليشعر بفضاء واسع للطيران في العالم كله سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو ملحداً.

يأتي الغربي زائراً إلى بيت لحم، أما أنا فأزور جدي الروحي في مغارته التي ولد فيها، أنا من هنا.

بل إن كنيسة المهد هي المثال الأروع والأعظم على الحضارات العظيمة.

الروماني الذي أهدى البشرية أعظم القوانين وأعظم التماثيل

وارث المعجزة اليونانية يصير مسيحاً ويبني كنيسة المهد في القرن الرابع الميلادي ليبرز عظمة روما، إني لأفتخر جداً بأن روما والحضارة الرومانية وجدت عظمتها في فلسطين في بلاد الشام.

فكما أنا الآرامي والنبطي أنا الروماني والعربي، فالحضارة الرومانية حضارتي أيضاً، وكذا الروماني فهو الفلسطيني والسوري، إن بيت لحم وكنيسة المهد ليست هوية دينية بالنسبة لي بل هوية وطنية وإنسانية.

ياه ما أعظمني: أنا من هنا من تلك البلاد التي شهدت ولادة الإله.

أنزل إلى مغارة مشعة، صورة معلقة على الجدار إنها صورة جيروم الذي ترجم الأناجيل من الآرامية إلى اللاتينية جيروم ٣٤٧-٤٢٠ من بلاد الصرب يعرف الآرامية والعبرية واللاتينية وبالطبع اللغة العربية والسلافية، يجلس في المغارة رجل يعرف اللغة الآرامية لغة حضارة ذلك العصر المتوسطي، في فلسطين تلك المرحلة الرومانية كانت اللاتينية والآرامية والعربية والعبرية، لكن الآرامية كانت هي لغة الناس اللغة الجامعة، واللاتينية هي لغة الدولة يتكلم يسوع الآرامية ويكتب الإنجيل أو تكتب الأناجيل بالآرامية التي هي الأقرب

إلى العربية، بل إن هناك من يقول إن العربية هي تطوير للآرامية.

وعندي أن المسيحية وعي آرامي- روماني بالحياة وما بعد الحياة، وعندي أيضاً أن المسيح آرامي مئة بالمئة، أو قل فكرة آرامية منسجمة مع الثقافة الآرامية- السورية، ولايمكن أن تنتج المعتقدات الأسطورية العبرية- اليهودية إلهاً كلياً ويقوم على فكرة المحبة والموت من أجل الإنسان ويكره الحرب والانتقام.

يمر الزائرون من أمام صورة المغارة ويمضون دون انتباه، لا أحد يقف عند صورة- لوحة جيروم ليلتقط صورة معه، وحدي آخذ صورة تذكارية.

أجلس على مقعد خشبي في أحد المغاور الذي يأخذ شكل الكنيسة الصغيرة وأستمع إلى تراتيل بصوت نسائي مذهل، صوت النساء الجماعي الذي يأخذ نغماً ترتيلياً يغمرك بالحنان الأنثوي، يحاول الدليل السياحي أن يتحدث معي فأشير إليه بأصبعي أن اسكت، يمتثل الرجل لإشارتي وبعد الانتهاء من الترتيل يلتفت إلي ويقول لي: «آسف حسبتك مو مسيحي»، وأجبت: «لا أنا لست مسيحياً واسمي أحمد». ينظر إلى بدهشة ويصمت.

تشتري نعمت مجموعة من الشموع وتوقدها في مكان خاص بهذا الطقس، والدليل السياحي ينظر وفي عينيه سؤال أترى هذه السيدة ذات الشعر السافر واللباس المودرن هي مسلمة، أجيبه دون أن ينطق: والسيدة مسلمة.

ننطلق من مغارة إلى أخرى ثم نصعد إلى القسم الأحدث من الكنيسة، وندخل قاعة الصلاة، كوفية أبو عمار تزين أحد المقاعد. كم كان هذا الرجل ذكياً وإنسانياً متحرراً، إنه الوحيد من بين أصحاب المسؤولية الأولى الذي كان يحضر قداس عيد الميلاد، إنه الزعيم الذي كان ينظر إلى نفسه ممثلاً لكل الشعب الفلسطيني، وكل الشعب الفلسطيني ينظر إليه زعيمه.

على مقعد خشبي كان الرجل يستمع إلى خطبة البطريرك ويسمع تراتيل الإنجيل ويحلم بفلسطين والقدس.

ما من مدينة أو قرية إلا ولها قصة ومكانة، بمعزل عن صحة القصة تاريخياً.

دمشق هذه المدينة التي تحمل على ظهرها أثقالاً ثقيلة من التاريخ أقدم عاصمة مأهولة في العالم، المدينة التي حملت المسيحية إلى الدنيا من ذا الذي يتصور المسيحية بلا بولس الرسول ودمشق.

بل من ذا الذي يتخيل انتشار الإسلام إلى العالم بدون دمشق. أحب دمشق.

من ذا الذي باستطاعته أن يقنع أهل حلب أن إبراهيم الخليل لم يسكن فيها، الأبواب والقلعة والأسواق تحملك على راحاتها وتجلسك على كرسي الزمن.

القدس درب الذين مروا إلى السماء، كنيسة القيامة التي لم يتسنَ لي رؤيتها لأن القدس مغلقة أمامي وأنا صاحبها، درب المسيح إلى السماء، قبة الصخرة التي تضم الصخرة التي انطلق منها محمد (ص) إلى السماء، كنت أتساءل دائماً ما المعنى في الإسراء والمعراج، إنها وحدة التجربة الروحية في الصعود من المكان نفسه إلى السماء لكلا الذاتين، إنها تجربة التسامي بمعزل عن طبيعة المعتقد، التسامي الصعود إلى الأعلى والاقتراب منه.

فيما تجربة اليهودي المتعلقة بالقدس تجربة البكاء على الأطلال، والحقد على الآخر.

حين تذهب إلى بصرى الشام يستوقفك وجهها النبطي وبحركة سحرية تكشف عن وجهها الروماني ثم تريك وجهها المسيحي ثم تنكشف أمامك بوجهها المحمدي.

يأتي فلاح بسيط ويقول لك هنا بيت الراهب بحيرا اللهم ارضَ عنه، يطلب هذا الفلاح المسلم من الله أن يرضى عن بحيرا. ثم يقول لك هنا كان الرسول (ص) يربط ناقته.

من ذا الذي يقنع حورانياً من نوى أن سام بن نوح ليس

مدفوناً فيها، وهذا القبر في غرب البلد قبره، وقس على ذلك: الناصرة والخليل ونابلس والقرى المنسية في إدلب وطرسوس وأوغاريت.

أخرج من كنيسة المهد إلى الساحة مرة أخرى وأقف متأملاً، فأستحضر كنيسة الفاتيكان وتتداعى أفكاري، فبطرس هذا هو سمعان وسمعان لقبه المسيح ببطرس- الصخرة، لقد أدهشتني هذه الكنيسة بضخامتها وأعمدتها وتماثيلها وساحتها ونصب باباواتها وأقواسها وأيقوناتها.

إنك لتشعر بالسعادة وأنت تمرح في الساحة التي لاتضاهيها جمالاً إلا ساحة قصر الأريميتاج في سان بطرس بورغ.

لكن هذا كله لايساوي شيئاً أمام كنيسة المهد التي تحتوي على مغارة الولادة كما يعتقد المسيحيون، هنا في كنيسة المهد مركز الروح وهناك في روما مركز السلطة، هنا الأصل وهناك- مهما بلغت عظمة البناء المعماري- الفرع حتى كنيسة أيا صوفيا بكل جمالها وجلالها واتساعها أصغر من كنيسة المهد روحياً.

إنك بوصفك عربياً وثمرة لكل الأعراق الحضارية الكبرى التي أسست ثقافة هذه المنطقة تمتلك أعظم الأمكنة في تاريخ الإنسانية، القدس- مكة- دمشق- بيت لحم- بابل- الأقصر-

أوغاريت- أريحا أية غرابة هذه، وأية جريمة هذه أن يدعي الصهيوني أنه ينتمي إلى هذا المكان بكل عنصريته وحقده ورغبته في نفي الأشجار الخضراء بحجة بقايا جذور.

بل لو كان اليهودي مؤمناً حقاً بانتمائه لثقافة المكان بكل ما ينطوي عليه من طاقة روحية لمنحه المكان القدرة على حب الأشجار الخضراء المستمرة لا كرهها بحجة الجذر اليابس، لمنحه المكان وثقافة المكان كره الدم يسيل على أرض شهدت إشعاع الأسماء العظيمة في تاريخ البشرية: سليمان، المسيح، أحمد، بولس، عمر.

قل لي بربك أيها العالم كيف يمكن لأرض كهذه أن تحتمل عنصرية «ليبرمان».

إنها لفضيحة كونية أن يكون هذا الشيء موجوداً على أرض فلسطين، أن يكون هذا الاسم الغريب مقيماً في بيت من بيوت فلسطين.

نتجاوز الساحة ومسجد عمر إلى الشارع الرئيسي القديم والذي يذكرك بأسواق الرباط وفاس ودمشق وحلب.

المحال على طرفي الشارع، وأغلبها محال تبيع السلع الفولكلورية المصنوعة في فلسطين وبلدان عربية أخرى. ندخل محلاً متوسطاً مليئاً بالسلع الجميلة، وكعادة أصحاب

المحال تُستقبل بالتأهيل والترحيب والإطراء.

الموجود في المحل شاب وسيم طليق اللسان. بعد دقائق عرف أني قادم من دمشق، وهنا تحول إلى صاحب مضافة واستيقظت فيه نزعة الزعيم المضيف.

كرسي لي وكرسي لنعمت، الشاي سرعان ما حضر، مناقيش الزعتر وحديث الشاب عن ذكرياته في الشام وفي مخيم اليرموك على وجه الخصوص.

وأحببت أن أجامله: فحملت فنجانين من صناعة الخليل، وعبثاً حاولت أن أعطيه ثمنهما كان رفضه حاسماً. لقد أخجلني موقفه هذا، ولم أدر كيف لي أن أرد له هذا الجميل.

خرجنا من المحل للتسكع في حارات بيت لحم القديمة التي لامثيل لها تقريباً في ضيقها وفي عمارتها وفي حجرها.

بعضها مسدود وبعضها لاتدري إلى أين يقودك إنها خالية من المارة تقريباً.

وأعود إلى فكرة الزمن الإنساني، ففي كل مواجهة مع الماضي الإنساني، عمارة، مدن، أطلال، أشخاص، قصص تضعك أمام المعنى الوجودي، أمام معنى وجودك، تُطرح عليك سؤالَ معنى الحياة مع العدم، هذه الدور التي تستعيد جمالها في كل لحظة، بل وتكتسب جمالاً جديداً بسبب قدمها كم توالى

عليها من الساكنين بكل أفراحهم وأحزانهم.

هذه الحارات لو كانت لها ذاكرة لحدثتنا عن آلاف الخطى.

لا أدري ما إذا كان المسيح عاش في بيت لحم أم لا، لكن من المفترض أنه مشى في هذه الدروب الضيقة، قادة الفتح لابد وأنهم زرعوا هذه الحارات بخطوات النصر، كم من الآهات تختزن هذه الغرف الضيقة.

الدروب الملتوية التي لاتعرف نهاية لها تشعرني بالمتاهة التي أحب، فليس هناك أجمل من المتاهة التي تقودك إلى حيث لاتعرف، فتضعك أمام المفاجئ والمدهش والمصادفة.

الأزقة شرعت تفقد ضياءها مع غروب الشمس، نغادرها إلى الساحة مرة أخرى، نتفحص الساحة بسياراتها وناسها علّنا نقع على السائق أو سيارته دون جدوى.

لم نتأفف أبداً بل على العكس، فقضاء زمن أطول في بيت لحم متعة أطول.

نجلس على حافة أسوار، نتأمل المشهد الكلي لكنيسة القيامة، نستعيد صورة المقاومين الفدائيين السجناء الذين آووا كنيسة المهد طلباً للآمان من البنادق العنصرية، والصهيونية أصلاً هي حقد زائد بندقية.

آه يا بيت لحم كم من الأمم والشعوب والأفراد مروا عليك

وأنتِ أنت مالك أحدٌ سواي.

ونحن جلوس لم ندر كم من الوقت جلسنا، أطلّ السائق مفعماً بالحيوية لم نسأله أين كنت، بل بادرنا هو بالاعتذار وقال: آسف استغليت الوقت وذهبت إلى البيت، فأنا أسكن قريباً من هنا، رأيت زوجتي، نظرت إليه نظرة خبيثة فابتسم ابتسامة الفخور، أيها الفلسطيني الذي تحب الحياة ما أجملك..

العدو

السبت /١٨/٢٠١٢/

إنْ يحتل قوم أرضك ومسكنك ويطردونك ويقتلونك ويسجنونك وينفونك ويسرقون ماءك وينظرون إليك بعين التفوق، فالقوم نموذج فذ للعدو الخالص. بل – والأندر – أن عدواً كهذا يفعل كل ذلك انطلاقاً من كذبة كبرى اسمها الوعد الإلهي.

العدو–هو اليهودي الصهيوني الإسرائيلي بكل تعيناته. إنه لايكتفي بالحديث عن حقه الزائف باسم الوعد الإلهي بل وينكر عليك حقك.

إني الآن وجهاً لوجه أمام العدو.لأول مرة أكون مباشرة أمام العدو. وأنا أختزن صورة للعدو ناتجة عن الحديث عن العدو.

عن قصص جرائمه التي حدثتني عنها أمي، الجرائم التي شاهدتها في الصور والتي قرأت عنها والتي لايمر يوم دون أن تحملها إلينا شاشات الفضائيات العربية والأجنبية.

ها أنا الآن أمام العدو مباشرة، العدو الذي حددته بالكلمات السابقة.

منذ الطفولة تعلمت أن أكره الصهيوني، وصورة الصهيوني التي ورثتها عن خطاب أمي ظلت عالقة في ذهني.

أول تمييز لليهودي عن الصهيوني عندي وتحطيم الصورة النمطية التي ورثتها عن أمي كان حبي لاسبينوزا وماركس وفرويد وبرغسون، فهؤلاء اليهود الأربعة الذين تابعناهم أربع سنوات في الجامعة أولاً وصاروا جزءاً لا يتجزأ من ثقافتي الفلسفية، هؤلاء الذين مازلت أحبهم رغم أني أعمل العقل فيهم كل يوم بوصفهم أباة طغاة لابد من التخلص منهم.

يهود فلاسفة إنسانيون ألتقي بهم كل يوم وحاضرون على رفوف مكتبي.

ورغم أني ابن دمشق لم ألتق مرة بأي يهودي من حارة اليهود أو ربما التقيت دون أن أعلم أن هذا يهودي.

لكني أتذكر أن صديقي في كلية الطب أشار مرة إلى طالب في كلية الطب وقال: هذا الطالب دمشقي– يهودي.

وحين وصلت كييف عاصمة أوكرانيا عام ١٩٧٤ بوصفي طالباً يحضر اللغة الروسية في السنة الأولى من الدراسات العليا– الدكتوراه– قيل لي إن عدد اليهود في كييف كبير جداً، لكن كان من الصعب أن تميز اليهودي عن غير اليهودي في المدينة.

ما أن وصلت إلى لينينغراد- سان بطرس بورغ ودخلت كلية الفلسفة حتى راحت سكرتيرة قسم تاريخ الفلسفة تحذرني من الأساتذة اليهود، لم أكترث بما قالت إذ كان لدي يقين شبه مطلق بأن الشيوعية قد بنت أخلاقاً للسوفييتي بعيدة عن الانتماء الديني.

لكني صرت أعرف أن فلاناً من الأساتذة يهودي ولم أكن أشعر تجاهه بأي عداء.

المرة الوحيدة التي كرهت فيها يهودياً في لينينغراد كان طالباً يدعى «بافل سيف الدين» وبافل هذا أخفى - بالأصل- علينا يهوديته، وسبب كرهي له أنه حين استقبل ليونيد بريجنيف السكرتير الأول للحزب الشيوعي السوفييتي ورئيس مجلس السوفييت الأعلى الأخ أبو عمار ورآه بافل على شاشة التلفزيون غضب غضباً شديداً وقال - كما أسر لي صديقنا البولوني المشترك- «كيف يمكن استقبال إرهابي كأبي عمار».

وحين أنهيت رسالتي وسمّي الناقد الأول البروفسور إبراهام إزرايلوفيتش نوفكيف شعرت بنوع من التوتر، وحين قابلت الناقد هذا وسلمته الرسالة كان ودوداً جداً، ويوم الدفاع مدحني إلى الحد الذي خجلت فيه من مديحه.

لكني في فلسطين أنا أمام عدويّ الذي سرق وطني.

لم تكن المواجهة الأولى مع عدوي كافية لأعبر فيها عما في داخلي من كره، ذلك أنها كانت لحظة أشبه بالحلم بالنسبة لي، وكانت الرغبة والشوق العنيف في رؤية فلسطين أقوى من أن أفسدها بالحزن والتعبير عن الكره.

في الطريق من المعبر إلى رام الله لم يسمح الليل أن نميز القرى والجبال والأماكن، وسائق الباص راح يقوم بدور الدليل: هنا في هذا المكان قضى مجموعة من التلاميذ الصغار في حادث مروع، وكان جنود العدو على مقربة منهم، لم يكلفوا أنفسهم أبداً القيام بأية عملية إنقاذ لهؤلاء يقول سائق الباص التكسي.

أفكر بما قال وأسأل نفسي: لماذا افترض سائق الباص أن على العدو أن يخف لإنقاذ التلاميذ وهو عدو لهؤلاء أصلاً.؟.

لقد فكر السائق الفلسطيني وفق مبدأ القيم الكلية الإنسانية قيمة النجدة– نجدة الأطفال لكنه نسي أن بنية العدو الذهنية العنصرية لاتسمح له أن يفكر بالفلسطيني طفلاً كان أم كهلاً أم شاباً.

ففي انتفاضة الأقصى قتل العدو ١٢٨٩ طفلاً منهم ٣٣٥ طفلاً في الضفة، و٩٧٦ طفلاً في غزة و٧٨ طفلاً عن طريق

الاغتيال أي أن ١٩ ٪ من شهداء انتفاضة الأقصى هم من الأطفال. فيما قتل العدو في الانتفاضة الأولى ٢٤١ طفلاً.

في اليوم الأول وصباح رام الله هادئ كأي صباح قروي خرجت من الفندق وتجولت حوله، لم أشاهد أثراً للعدو، ثم تبين لي أن لاوجود للعدو في المدن الفلسطينية باستثناء الخليل، لكن هذا لايعني أن العدو غير قادر على دخول المدن، بل إن باستطاعته الدخول متى شاء.

وحين كنت برفقة زعل مرت سيارة جيب مصفحة وعليها شبك وبالكاد يظهر سائقها فقال لي هذه سيارة من سيارات جيش العدو، إنها داخل رام الله، إذاً العدو في رام الله ربما هو آت لاعتقال مناضل فلسطيني أو مناضلة.

ولهذا فإنك من النادر أن تلتقي بفلسطيني لم يعش تجربة الاعتقال، ويحدثك الفلسطيني واصفاً تجربة اعتقاله بنوع من الكبرياء أولاً وعلى أن الأمر طبيعي ثانياً- أي من الطبيعي أن عدواً بهذه المواصفات لابد وأن يكون الفلسطيني بالنسبة إليه موضوعاً للقتل وللاعتقال فقط.

ربما لم يشهد التاريخ أن يكون شعب بكامله موضوع اعتقال وقتل وسرقة كما هو حال الشعب الفلسطيني، كما لم يشهد التاريخ أن جماعة غريبة لاتستطيع أن تبقى إلا في حالة

عداء مع السكان الأصليين، إنها أول مرة في التاريخ يتحكم الوهم بجماعة غريبة، وهم قدرتها على إفناء الآخر مادياً.

إنها المرة الأولى في التاريخ يكون فيها كل فرد من الشعب الفلسطيني مشروع سجين أو شهيد أو مطرود.

أية قوة همجية عمياء هذه التي تحول جماعة إلى جماعة متبلدة الإحساس بالآخر وبالقيم كالجماعة اليهودية- الصهيونية.

المستعمرة- المستوطنة

السبت ٢٠١٢/٤/١٨

تشاهد وأنت مسافر بين مدن الضفة الغربية الفلسطينية مجموعة من الأبنية ذات السقوف القرميدية، أبنية يطلق عليها اسم المستوطنات أو المستعمرات أو البؤر الاحتلالية أو الاستيطانية.

من هو المستوطن أولاً..؟

يفترض أن المستوطن من حيث الهيئة كائن بشري، وإن كان يحلو للفلسطيني أن يطلق على المستوطنين «قطعان» ليساويهم بالحيوانات، ولم تكن مساواتهم بالقطعان أمر مصادفة، فسلوكهم هو سلوك حيواني بامتياز، لذلك قلت إن المستوطن من حيث الهيئة هو كائن بشري.

هذا الكائن هو يهودي قادم من أماكن متعددة من أوروبا وأمريكا ومن الحبشة. هذا الكائن آتٍ وهو يحمل الذهنية نفسها للمستوطن اليهودي– الصهيوني أوائل القرن العشرين.

أرض فلسطين بالنسبة إليه هي أرض أجداده الأوائل قبل ثلاثة آلاف سنة، وعلى الفلسطيني –ابن الأرض الساكن الأصلي أن يرحل عنها ليحل محله وبالقوة.

هذا اليهودي- الصهيوني هو بالضرورة- مشروع قاتل، مشروع مجرم، مشروع لص، وقبل أن يدنس أرض فلسطين، ما أن يصل إلى فلسطين حتى يتحول من مشروع قاتل إلى قاتل، من مشروع مجرم إلى مجرم من مشروع لص إلى لص.

إذاً هو خلو من أية قيم إنسانية رفيعة حتى من قيم الإنسان القوي، فالقوة تخلق الفروسية والكرم، بل إنه إنسان ضعيف أكثر مما تتخيل أيها الفلسطيني، ضعيف إلى الحد الذي يعشعش فيه الخوف من الفلسطيني حتى من مماته، ضعيف لأنه فارغ من القيم الرفيعة، ضعيف إلى الحد الذي لا يستطيع أن يتصور عالمه بلا سلاح قتلٍ.

إنه ضعيف إلى درجة تحوله إلى نموذج أمثل للحمق والغباء، وعندي أن المستوطن شخص انتهازي ومرتزق فضلاً عن صفاته اللا أخلاقية الأخرى التي ذكرت.

تبرز انتهازيته في كونه كائناً طفيلياً، إنه يدرك النزعة العنصرية للحاكمين في فلسطين التي صارت «إسرائيل» ويدرك أنه سيأتي إلى مكان يوفر له المسكن والعمل والدخل، لا يهم كيف ستوفر له، ذلك أن وعيه الكسول يحوله إلى مجرم مرتزق مكانه المستوطنة.

لذلك تراه مسلحاً دائماً، لاتفارقه أداة القتل، إنه لايستطيع أن ينظر إلى عيني الفلسطيني.

يقول لي السائق: انظر هذا مستوطن يمشي خائفاً، ونادراً ما ترى مستوطناً ماشياً على الطريق العام.

أما المستوطنة- المستعمرة، فما أن تشاهدها من بعيد حتى تدرك من فورك أنها عالم غريب عن المكان لا علاقة لها بالمكان إطلاقاً.

حسبك أن تقارن بين المستعمرة- المستوطنة والقرية الفلسطينية، حين ذهبت إلى شوفة لأزور قلعة جدي ناصر البرقاوي ففي الطريق إليها عبر عزبة شوفة وعلى يسار الطريق تقع عيناك على مستوطنة.

بيوت مصفوفة وراء بعضها بعضاً، المكان مسوّر، لا حركة تذكر فيها إطلاقاً، بينما وأنت تدخل شوفة تدخل العالم الحقيقي، الناس في الشوارع، الأمهات الفلسطينيات أمام بيوتهم، المحال البيوت الحجرية القديمة، الحارات القديمة والجديدة.

حين تمر من أية مستوطنة- تشعر أنها عبارة عن ثكنة عسكرية، هناك مجموعة من الأبنية ذات السقوف القرميدية، الأبنية مسورة بسورٍ عالٍ أو سورٍ معدني، حيث بالكاد تستطيع أن ترى البيوت، إنك لاترى شيئاً يتحرك، السور الإسمنتي يحيط بالمستعمرة من كل الجوانب وجميع المستعمرات التي رأيتها مبنية على قم الجبال أو التلال، للمستعمرة بوابة، ويطل عليك

منها برج مراقبة عالٍ جداً، وبرج المراقبة هذا عبارة عن بناء أسطواني وهو موجود في أغلب الحواجز على الطرقات، وفي أعلى هذا البناء الأسطواني قمرة مراقبة ذات شبابيك زجاجية تخفي رؤية من داخلها.

ومن المفترض أن هناك حراساً دائمين ليلاً ونهاراً يراقبون الطرقات والأسوار، وإذا علمت أنه المستوطنة- المستعمرة المسورة هي الأخرى داخل السور العنصري العازل أدركت طبيعة الوعي الذاتي لليهودي العنصري الصهيوني بعامة وللمستوطن بشكل خاص.

إنها الظاهرة الوحيدة في التاريخ المعاصر التي يعود فيها الإنسان إلى المدينة المسورة أو القرية المسورة، يعود فيها إلى أبراج المراقبة الواقعة على الأسوار أو في القمم وإلى حراس القلعة الدائمين.

وعي اليهودي- الصهيوني وعي إنسان ما قبل الميلاد، لقد بحثت عن سور ذنابة القديم فلم أجده، ووجدت بقايا فقط، أهل ذنابة يعيشون الآن- وهم تحت الاحتلال- بلا سوار إنهم مطمئنون لوجودهم هم أبناء الأرض والفضاء، بل لايمكن لكائن طبيعي معاصر أن يتصور ذاته داخل الأسوار، إنك عملياً ترى سوراً يذكرك بأسوار السجون، هذا المتخاصم مع المكان هو متخاصم مع الفضاء كائن داخل السور.

حين تعيش في المدن التاريخية العظيمة دمشق- حلب، الرباط، القدس، بيت لحم، شهبا، أريحا، أو تمر فيها أو ترى صورها فإنك تتذكر التاريخ القديم، وتتغزل بجمال أسوارها وأبوابها، بواباتها تشعرك بالألفة، بالفرح، بالبيت، فأنا كلما ذهبت إلى صنعاء أزور بوابتها الجميلة، وأتذكر القصص الطريفة للإمام حين كان يغلق باب صنعاء الساعة التاسعة ويضع المفتاح عنده وينام، كل من يأتي الى صنعاء بعد هذا الوقت ينام خارج المدينة وقرب أسوارها.

السور اليهودي- الصهيوني هو ذاته العقل الصهيوني، والمستوطنة هي التعبير المكثف للذهنية الصهونية.

إنك لتندهش من هذا القادم من مدن أوروبا- العالم المفتوح على السلم والدعة والوفرة والحرية ويعيش داخل المستوطنة خائفاً. كيف يمكن أن يتخلى المرء عن سان بطرس- بورغ وموسكو وبرلين وبراغ إلا إذا كان بالأصل عقله مسوراً من جهة وانتهازياً ووصولياً ومرتزقاً.

وكما قلت: ليس العماء الأيديولوجي- الديني التعصبي هو الذي يفسر قدوم الأوروبي -اليهودي إلى فلسطين ليعيش في المستوطنة فحسب، بل السبب الرئيس أن المستوطنين بالأصل كائنات رثة، هذه الكائنات التي وصفها غرامشي بحزام الفاشية.

المستوطنة هي غيتو، ولكنه ليس غيتو أوروبياً، بل غيتو داخل فلسطين، اليهودي- الصهيوني وهو يغادر الفضاء الأوروبي الذي وصل إلى درجة الدولة العلمانية الديمقراطية الحرة ويأتي إلى غيتو ضيق يبعث على الخوف من الآخر فإنما يعود إلى الوراء مئات السنين طمعاً بأرض الآخر.

ويبدو لي أن هذه الذهنية التعصبية المتخلفة ذات الغباء التاريخي لم تدرك أبداً أن اللامعقول التاريخي ذو عمر قصير جداً.

تتساءل وأنت تنظر إلى تلك البيوت المسورة كيف يقضي هذا المستعمر الغريب أيامه داخلها.؟.

قيل لي إن هناك طرقاً خاصة بالمستوطنين، وإن المستوطن يعمل داخل المستوطنة، بل إن هناك مستوطنات كبيرة فيها مراكز بحث، لكنها معزولة ومسورة هي الأخرى.

القرية الفلسطينية مشرعة للريح، منتصبة واسعة ممتدة مطمئنة أهلها عائلة واحدة يعرف أفراد القرية بعضهم بعضاً، حاراتها مليئة بالأولاد، يلعبون على سفوح جبالهم، دورهم محاطة بالأشجار، أهل القرية يعيشون حياتهم وكأن المستعمرة غير موجودة.

- أسأل أحد المعمرين في كفر اللبد كيف حالك يا سيدي..؟

وسيدي هي جدي باللهجة الفلسطينية.

– نحمد الله.

– ألا تزعجك قطعان المستوطنين..؟

– يا عمي مزعجون والله، ولكنهم مش مطولين، رايحين، أكيد شو مقعدهم بها البلاد. بس الحق على العرب.

الفلسطيني مطمئن إلى قدوم الزمان الذي سينتهي فيه وجود اليهودي– الصهيوني ودولته في فلسطين.

كل صهيوني في فلسطين يعيش الخوف الدائم داخل السور، السور سواء كان جداراً عنصرياً حول «إسرائيل» أو جداراً حول المستوطنة طمعاً بالأمان وهو عنصري بامتياز فإنه لن يشعر اليهودي بالأمان إطلاقاً.

بل السور هو رمز الخوف، هو ناقوس يذكر اليهودي– الصهيوني بأنه ليس من هذا المكان إطلاقاً.

ترتبط حياة الصهيوني في فلسطين بجملة من الكلمات الدالة على المكان غريبة جداً، السور، الجدار، البرج، الحاجز، المعبر، الطرق الالتفافية، منطقة عسكرية، المستوطنة.

في فلسطين المكان الوحيد في العالم الذي يحتوي كل هذه المظاهر دفعة واحدة.

نحن لا نتحدث عن سور حديقة أو سور فيلا أو سور مدرسة

أو مؤسسة ما، ولا عن سور سجن، بل عن سور وراءه بشر سور مدينة- مستوطنة، وداخل السور ولاشك سور.

سور يحجب المستوطن عن العالم الخارجي، يحجبه عن عين الفلسطيني.

هذا السور يقع داخل الجدار، جدار هو الآخر عالٍ يفصل عنصرياً بين الساكن الأصلي والساكن المحتل، جدار يحيط بدولة من كل الجوانب، يتعرج ليحيط بكل ما يعتقد الصهيوني أنه له، تخيل أيها الإنسان أن طول جدار الفصل العنصري يبلغ ٧٣٠ كم بينما المسافة بين إيلات وحيفا لاتتجاوز ٣٢٠ كم، جدار الفصل العنصري سيلتهم ٤٦ ٪ من أرض الضفة الغربية، سعيش ١٢ ٪ من الفلسطينيين في الضفة في مناطق عسكرية مغلقة.

أما البرج فيذكرك بأبراج القلاع القديمة، مزروع على جدار الفصل العنصري، وفي الطرق بين مدن الضفة وعند كل حاجز، البرج الذي يُطلَق اليوم على البناء العالي الخاص لتوجيه الطائرات ويسمى برج المراقبة الجوية يتحول في فلسطين المحتلة إلى برج مراقبة للفلسطيني، أجل كل فلسطيني متهم، البرج الذي صار الآن معلماً معمارياً بوصفه بناء متمتعاً بالفن والعلو كبرج دبي مثلاً يتحول في فلسطين المحتلة إلى مكان للقنص والقتل.

أما الحاجز فإما ممتلئ بجنود الاحتلال، أو يظهر فجأة

مجموعة من جنود الاحتلال وينصبون حاجزاً على الطريق.

الحاجز يعني أنك صرت موضوع ساديةٍ غير مسبوقة في تاريخ الدول، الجندي العنصري يمارس في الحاجز كرهه وعنصريته وحقده ورغبته في إذلال الفلسطيني.

العسكري الصهيوني يحمل سلاحاً ليقتل، ويدقق في هويات الفلسطينيين العُزل، وبالتالي هو أي اليهودي- العنصري يمتلك قوة مادية قابلة للاستخدام متى شاء، فيما الفلسطيني يملك القوة الروحية التي تجعل اليهودي مندهشاً من هذه القوة، والقضية هي أن شخصاً يمتلك نفسية اللص والآخر يمتلك نفسية المالك للحق.

حتى ليمكن القول إن الصراع في فلسطين ليس إلا صراعاً بين لصوص آتين من الخارج وأصحاب الملك.

وقس على ذلك المعبر، أي مكان عبور الفلسطيني إلى فلسطين ومدنها، من معبر أريحا وغزة إلى معابر الخليل إلى معابر القدس، ووظيفتها هي الأخرى التأكد من أن الفلسطيني أعزل من السلاح والكتاب ووو، وممارسة التمييز العنصري وسادية اللص.

والطريق الالتفافي هو المعلم الأشد على همجية الخائف، فالمستوطن يمتلئ رعباً من الطريق الذي يمشي عليه الفلسطيني.

إن كل هذه الكلمات الدالة على الأشياء الغريبة التي لاوجود لها -كما قلت- مجتمعة في أي مكان في العالم- إنما تعبر عن الخوف، الخوف من الفلسطيني.

إنك لتتساءل: كيف تفسر أن دولة عنصرية انتصرت على جيوش ثلاث دول عام ١٩٦٧ وفرضت على مصر والأردن اتفاقيات تسوية وتمتلك ترسانة من الأسلحة أقوى من أية دولة في الشرق الأوسط، وتقوم بتهديد الجميع ثم تخاف الفلسطيني وتبني حياتها على الخوف من الفلسطيني.

إنها أيضاً الظاهرة الوحيدة في العالم التي يتحكم فيها الخوف حتى بفن العمارة، ففن عمارة المستوطنة يقوم أساساً على فكرة الخوف، من السور إلى البوابة إلى الحاجز إلى برج المراقبة إلى الأسلاك الشائكة إلى الحراس الدائمين. بل إن المستوطن نفسه ماهو إلا شخص مسلح يتلفت حوله دائماً، يتحسس مسدسه أو بندقيته.

ورغم هذا كله، رغم الهمجية والسرقة والقتل والسجن يطلب الصهيوني من الفلسطيني أن يوفر له الأمن والأمان.

مفارقة من أكبر المفارقات أن يطلب المحتل من المحتلة أرضه الأمن.

في الطريق من رام الله إلى طولكرم تقرأ في الشاخصات

الدالة على القرى والمدن والمستعمرات، تقرأ أسماء مستعمرات ظناً أن الاسم وحده باستطاعته أن يمنح الشرعية للاحتلال.

المستوطنة تحملك على التفكير الكلي وليس على التفكير الجزئي أو التفكير بحلول وسط مستحيلة.

أجل حلول الوسط مع العدو مستحيلة، ولايمكن إزالة المستوطنات في الضفة الغربية إلا بالقوة، بل قل إن إزالة المستوطنات غير ممكن إلا بزوال الدولة العنصرية.

ولهذا أعيد ما قلته قبل سنوات طويلة. إن تحرير فلسطين أسهل بما لايقاس من إنجاز تسوية معها وأقل كلفة من التسوية، وأضيف الآن إن التحرير ممكن والتسوية بين الفلسطينين والدولة العنصرية مستحيلة.

من ذا الذي يستطيع أن يتخيل أن إسرائيل ستقبل تسوية تنسحب –على أساسها– من الضفة الغربية وتزيل المستوطنات وتعترف بالقدس عاصمة للدولة الفلسطينية، وتوافق على حق عودة اللاجئين إلى فلسطين قولاً وعملاً وتبقى إسرائيل كما هي.

إنه الوهم، بل إن القادر على فرض كل ما سبق على إسرائيل قادر بالضرورة على إزالة هذه الدولة.

لكن العقل يقول: إن كفاحاً مستمراً ضد وجود إسرائيل يدفع

أتاوة كبيرة كفيل بأن يزيل الدولة من الوجود.

وإن المرء ليندهش أشد الاندهاش، كيف يصل الكائن البشري إلى حد نفي الآخر وهو يملك الحق بوجوده الأصيل..؟ كيف لليهودي الصهيوني أن يصل إلى مرحلة أن يفكر بوجوده الزائف وينفي وجود الفلسطيني الحق؟.

والوجود اليهودي- الصهيوني ورمزه المستوطنة- المستعمرة أشبه بالشجرة غريبة عن المناخ والأرض، ومن المستحيل أن تمتد جذورها أو تعيش أوراقها مهما بذل من أجل ذلك جهد كبير، تخيل لو أن أحداً أراد أن يزرع نخلة في جبل الشيخ، إن حال وجود إسرائيل هو حال وجود النخلة في جبل الشيخ. يمكن أن تضع النخلة في بيت زجاجي وتوفر لها الطقس المناسب ولكن إلى متى..؟!.

ورغم كل هذا الحيف والظلم والقهر الذي تمثله إسرائيل ومستعمراتها فإنك لتُعجب من فلسطيني يلبس كوفيته ويمشي رافعاً رأسه ويقول لك بكل ثقة:يا أخي شايف كل هذا الاحتلال والاغتصاب سيزول حتماً، إسرائيل «خيّا» مش بنت حياة.

في فلسطين نحن أمام بنيتين نفسيتين متضادتين: بنية الفلسطيني النفسية المتكونة عبر مئات السنين في المكان نفسه وعبر علاقة حميمة بالمكان ومتوارثة أباً عن جد، وبنية

صهيوني النفسية الغريبة عن المكان والمتكونة عبر العدوان الدائم من جهة أخرى.

ليس للفلسطيني مكانان كما الصهيوني، يقولون لك هذا يهودي روسي، وذاك يهودي يمني، وآخر يهودي إيراني، وحدث ولا حرج، روسيا ولا تفيا واليمن وإيران وفرنسا وهي أمكنة أصلية إنها أمكنة شكلت عالم اليهودي أصلاً، وها هو ابن الثلج قادم إلى عالم الشمس والزعتر.

غربة اليهودي- الصهيوني عن المكان تجعله أكثر عنفاً ونفياً لساكن المكان الأصلي لأنه يذكره دائماً بغربته عن المكان.

إذا أراد الصهيوني أن يكتب عن عكا مثلاً ما الذي سيقوله سوى أنها مدينة بناها الكنعانيون وسميت عكا لأن عكا بالكنعانية تعني الرمل الحار ثم أصبحت مدينة فينيقية غزاها الإغريق والفرس والفرنجة، فتحت على يد شرحبيل بن حسنة سنة ٦٣٣، أسس فيها معاوية مصنعاً للسفن وظلت هكذا كنعانية عربية مع فترة قصيرة من حكم الفرنج، أوقفت عكا زحف نابليون بونابرت.

ويمكن أن أضيف أنا أحمد برقاوي قائلاً حكمها ظاهر العمر ونحن أبناؤه وحين غزا نابليون عكا استشهد جدي

الشيخ غازي البرقاوي دفاعاً عنها، وإن أبي قد درس في المدرسة الأحمدية في عكا، وإن خالي نمر محمد أديب الجغليط البسطامي مات في ميناء عكا.

وإذا أراد الصهيوني اليهودي أن يتحدث عن تاريخ عكا، سيضيف إلى ما قلته إن العصابات الصهيونية قد احتلت عكا عام ١٩٤٨ في آيار وقامت بمجازر كبيرة لإجبار أهلها على الرحيل.

ما الذي سيقوله اليهودي- الصهيوني عن عكا سوى أنه جاءها أولاً مهاجراً ثم محتلاً ثم ضمها بالحرب إلى الجزء من فلسطين الذي أقام عليها دولته.

وقس على ذلك يافا فقد أسسها الكنعانيون في الألف الرابعة قبل الميلاد حكمها الفراعنة والآشوريون والبابليون والفرس والرومان وفتحها عمرو بن العاص عام ٦٣٦ وظلت عربية- فلسطينية، احتلتها العصابات الصهيونية ١٩٤٨/٤/٢٦.

وباستطاعتي أن أضيف أنها مدينة أمي التي ولدت فيها وتعلمت وأن بيت جدي في المنشية وكان شهبندر تجار يافا، وأن خالي محي الدين السبطامي اليافوي الشيوعي قد توفي نتيجة التعذيب.

بنية اليهودي- الصهيوني النفسية بنية اللص الذي يؤرقه الفلسطيني فيعتقد أنه عبر الحاجز والمعبر والبرج والمستعمرة باستطاعته أن يخلق مكاناً جديداً يلغي الفلسطيني، إنه أشبه بالحاكم العربي الذي يسور حدود سلطته ويعلن أنها له كي يلغي الانتماء القومي- العربي لهذا المواطن المكان الواسع.

السلطة الغرائبية

السبت /١٨/٢٠١٢/

حين دخل أبو عمار غزة–بعد اتفاق أوسلو– كان يعتقد أنه وضع رجليه على أول الطريق نحو الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

كان الفرق بين الموقعين على اتفاق أوسلو أن الأول أبو عمار سيظل قائماً على رأس السلطة وقادراً على تنفيذ الاتفاق حتى ولو كان لهذا الاتفاق معارضة فلسطينية من قبل بعض المنظمات، بل كان قادراً على استغلال المعارضة لتحقيق مزيد من المكاسب. فيما الذي وقع الاتفاق من الجانب الإسرائيلي متغير وقد لا يستطيع الاستمرار في السلطة كي ينفذ ما اتفق عليه. والمعارضة للاتفاق إذا ما نجحت في الانتخابات قادرة على تعطيله والتحايل عليه.

السلطة التي حصل عليها أبو عمار في الداخل وعلى مناطق «أ» والانتخابات التي جاءت به وبالأكثرية من فتح في المجلس التشريعي لم تعد تعني الكثير أمام نجاح اليمين المتطرف الذي انتصر على اليسار المتطرف.

فكانت الانتفاضة الثانية مشروعاً لإعادة الاعتبار للجانب

الفلسطيني، ماتت أوسلو ولم يبق منها إلا سلطة ذات سلطة محدودة، بعد هزيمة الانتفاضة.

معبر رفح بيد العدو، حتى إذا ما أراد رئيس السلطة أن يخرج منه يحتاج إلى سماح.

إذا تأخرت المساعدات الأوروبية أفلست السلطة، إذا منعت حكومة العدو عن السلطة حقها في الضرائب أفلست السلطة، المستعمرات التي ترك أمرها إلى مباحثات الحل النهائي تحولت إلى سياسة يومية، القدس لم تعد ذات شأن واللاجئون نُسوا.

العدو يمكنه أن يدخل منطقة «أ» التي من المفترض أنها حقل سيادة السلطة أو تحت سيادتها بل وبإمكانه أن يحتلها خلال دقائق، لقد مضى على توقيع اتفاق أوسلو عشرون عاماً ولم يتحقق منه أي شيء رئيس يقود إلى قيام دولة، بل إن «إسرائيل» قد قضمت ما يقرب من خمسين بالمئة من أرض الضفة وقطعتها بالمستوطنات بحيث يستحيل قيام أي كيان متماسك الأوصال.

ويبدو لي أن قادة العدو قد خططوا – بخاصة شارون– أن تكون غزة هي المكان الفلسطيني المستقل ومنفصلة عن الضفة أما الضفة فهي ذات حكم لا يقوى على شيء.

لاشك أن هناك مقراً للرئاسة ومقراً لمجلس الوزراء، ومقراً لمنظمة التحرير ومقرات للشرطة ورواتب وضرائب وسجون وقضاء وجامعات ومدارس ومعاهد ومراكز أبحاث وزراعة وصناعة خفيفة لكن كل هذا خارج فكرة الدولة ذات السيادة.

لاشك أن الفلسطيني في ورطة كبيرة الآن، فالانتفاضة الأولى أثمرت أوسلو والانتفاضة الثانية أوقفت أوسلو والسلطة مصرة على أن يكون خيارها الكفاح السلمي وهي بالأصل لا تملك خياراً آخر. فالضفة محاصرة وحدودها مع الأردن محروسة حراسة شديدة من قبل النظام الأردني، وغزة أصبحت شبه مستقلة وملك لحماس حتى يأتي يوم تنتصر فيه النظرة الوطنية وتعود غزة فاعلة في الكفاح الفلسطيني سوية مع الضفة، والوضع العربي والعالمي ليس في وضع مؤهل للفاعلية طالما أن الفاعلية الفلسطينية بالأصل عاجزة الآن.

وبالتالي فإن بقاء السلطة على هذا النحو من الغرائبية أمر لا معنى له، إنها تقدم لإسرائيل احتلالاً بلا كلفة، ولو أنها غير موجودة لكن وضع الاحتلال أصعب بما لايقاس من حاله الراهن.

لاشك أن إسرائيل لا مستقبل لها في المنطقة، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى شروط جديدة كل الجدة.

ولعمري إن أخطر ما تمخضت عنه السلطة أن م.ت.ف. أصبحت عاجزة أكثر من ذي قبل وإن اهتمامها باللاجئين الذين هم نار الكفاح صار صفراً. واستعادة فاعلية اللاجئ الفلسطيني في لبنان والأردن وسوريا أمر في غاية الأهمية، إنه استعادة لوهج القضية الفلسطينية مرة أخرى.

الفلسطيني والوداع

السبت ٢٠١٢/٤/١٨

الوداع تجربة أنطولوجية ذات أثر عميق في النفس ومن النادر أن يمحى، قد يبهت مع الأيام لكنه يظل وشماً على قلب الذات.

إنه انتقال الذات من فرح الحضور إلى حزن الغياب، بل الغياب حضور ممض، إنه – أي الغياب لحظة انفصال وتمزق لأنه نوع من الانفصال القسري بينك وبينه. بين ذات تتمنى أن تظل مع من تحب وما تحب، إنه انفصال عن المحبوب، يخلّف الانفصال جرحاً لايندمل، ممارسة الجراح، هو الوداع طقس من الحزن المليء بالرغبة والأمل.

التلويحة والقبلة والدمعة والعناق، أية حالات أصدق من هذه الحالات؟ تتحدث بالعناق مع المودع مكاناً كان أم كائناً.

مع المكان تعانق بعينيك وروحك تلقي النظرة الأخيرة، ثم تلوح له فأنت مسافر، تعانق بالوداع آخرك وكأنك تقول له: ها أنا أتحد معك إلى نهاية الحياة، ثم تذرف الدمع ويعلن الدمع أنك حزين، إنك لا تخاف من فضيحة الدمع بل على العكس إنك تعلن أمام الجميع: أنا حزين، ثم تلوح بيدك من ذا الذي اخترع

التلويحة هذه، التلويحة التي تعلن النهاية؟ كأني بها تخاطب الريح أيضاً.

أنا لا أكره الوداع أو أحبه، بل أعيشه، أكتب عنه تجربة أليمة وأختزنه مشهداً عظيماً من مشاهد ذاتي.

كتبت في ديواني الأول أقول:

كلما همتْ يدي لتلوح بالوداع إليك

انحنت يدي

أي يد تقوى على حمل حزن

بحجم هذا الفضاء.

التلويحة إعلان الحزن أمام الفضاء، لغة اليد حين لا يسعفنا الكلام، إنها الجسد وقد قرر أن يتكلم.

قد تعرف في قرارة نفسك أنه الوداع الأخير..ياه..ما هذا الطقس من المأساة.

كم عشنا لحظة الوداع وأنا أصلاً كائن مزروع بطقوس الوداع، بكل أنواع الوداع.

وللطقس الفلسطيني في الوداع طعم المرارة، فأنت لا تدري ترى متى يكون لقاء آخر.

في عام ١٩٧٠ ودعت عمتي القادمة من بورين للمرة الأخيرة، بكى والدي حينها ثم بعد سنوات بكى مرة أخرى

بشكل حاد حين جاءه خبر وفاتها، ودعها بعد غياب اثنتين وعشرين سنة عنها، وكانت أيام اللقاء قليلة.

ودعتْ أمي أخاها قبل ذلك عام ١٩٥٨ وذهب إلى عمّان وظلت تعبر عن حزنها سنوات إلى أن جاءها خبر موته شاباً.

لن انسى ذلك اللقاء الحميم عام ٢٠٠٠ في القاهرة، التقينا من كل أنحاء الأرض– نحن ثلة من الكتاب والأدباء والمفكرين الفلسطينيين. التقينا في مكان واحد في فندق واحد في قاعة واحدة جميعنا يعرف بعضه بعضاً بالاسم أو بالاسم والكائن.

هذا اللاجئ القادم من الشام وذاك من لبنان وآخر من الأردن ورابع من إسبانيا وخامس من السويد وسادس من لندن وسابع من فلسطين المحتلة عام ٤٨ وثامن من الضفة وتاسع من غزة.

إنها المفاجآت الجميلة، عندما تسمع بشخص وتحبه وتراه أمامك، لقد قامت بين الفلسطينيين علاقات حميمة جداً مليئة بفرح اللقاء.

كان من بين الحضور والمشاركين بالمؤتمر المناضل – الإنسان محمد بركة، كم كان هذا الشخص الذكي ذا قلب نضر، وعاطفة نقية جياشة، لقد قدم ورقة حول تجربة الفلسطيني في الحفاظ على هويته وهو تحت الاحتلال، ومحاولات تذويب

هذه الهوية عبر «الأسرلة» وقتل الفلسطيني داخل الخط الأخضر إسرائيلياً، كانت ورقة تتضوع أدباً، وحين انتهى المؤتمر وراح كل واحد منا يرتب حقائبه للرحيل والعودة من حيث أتى ساد المؤتمر جو من الحزن والكآبة، حين غادرنا عانقت محمد بركة فقال لي بحزن:

يا أخي أحمد والله إنتو عم تعذبونا، ما أن نفرح باللقاء بكم ونسعد حتى تلوحوا لنا بالوداع، إنه لأمر صعب علينا.

منذ عام ألفين لم ألتق محمد بركة ولن أنسى أبداً لحظة الوداع، وكلما شاهدت محمد بركة على شاشة التلفزيون ضج بي الحنين إليه، محمد بركة أيها المتجذر في أرض فلسطين أحبك..

وداع فلسطين معذب حقاً..

فهنا أنا أغادر المكان أولاً، المكان الذي لم أرتوِ بعد منه، أودع بيتي–تخيل–أودع بيتي الذي لاتسكنه إلا الريح. أبوابه الخشبية القديمة مشرعة تطل على الكون، أودع ذنابة والقلعة، أودع طولكرم وشوفة وكفر اللبد ودير استيا وسلفيت وبيت لحم ورام الله.

أودع كل هذه الأماكن التي تمنحني معنى وجودياً جديداً، أحسست أن نيسان استجمع كل بهائه ووقف أمامي بألوانه

وقمحه ليعانقني، أحسست أن الأحجار صار لها عيون تنظر إلي متسائلة إلى أين أنت راحل. أحسست أن البيت يعاتبني: أبعد كل هذا الانتظار راحل أنت؟.

أحسست أن قبر جدي الأقدم في أسفل قلعة البرقاوي في شوفة الشيخ ناصر البرقاوي يهم بالوقوف ليخاطبني: عد إلى شوفة بيتك الأول.

ياه.. كيف أغادر رام الله، رام الله منحتني من الحب ما دخل عظمي..

كيف سألوح لبيرزيت وأريحا.

إنها ليلة الوداع حيث يُلبس الليلُ الوداعَ ثيابه السوداء ويضعك في حضرة الغياب المؤلم.

عبد الكريم البرغوثي يحضر لي زجاجة من زيت الزيتون، زعل أبو رقطة يحمل علبة تحتوي على ربطة عنق، عبد السلام تلاوي يحضر الزعتر، امرأة بهية تحمل لي من د.نايف جراد صحناً مطبوعاً عليه فسيفساء شجرة الحياة من قصر هشام، وإياد البرغوثي يغادر إلى بيروت.

أخرج أنا وعبد الكريم لنودع رام الله، ألقي نظرات الوداع عليها، نحمل من محل علب الزعتر.

نعود إلى الفندق مقهى الفندق يعج بالمودعين يبدو أننا لن ننام هذه الليلة.

الهواتف لا تنقطع من ذنابة وشوفة ورام الله ونابلس. تستفيق رام الله على صباح صامت، الجميع كأن على رؤوسهم الطير.

عشرات الفلسطينين اللاجئين صامتون، المودعون صامتون، الوجوه عبوسة أو أشبه، المطعم الذي كان يضج بالأحاديث والأصوات المختلطة هادئ إلى حد الموت.

إنها لحظات ماقبل الوداع، وداع وطن لا تعرف متى تعود إليه، وداع أناس لاتدري متى تلتقي بهم، وتسأل هل أعود مرة أخرى، هل ألتقي مرة أخرى.

كل شيء يبدو كأننا أمام طقس تشييع، إننا نشيع اللحظات الأمتع والأجمل والأشد وقعاً على النفس.

باصان يقفان على باب الفندق، الكل ينطوي على تمنع لاشعوري عن الصعود إلى أحد البابين.

إسماعيل تلاوي يدرك صعوبة الموقف، ينادي بكل أدب جم وتهذيب: يا أخوان يا شباب، يا صبايا، نرجوكم الصعود إلى الباصات أمامكم سفر وإجراءات لاحصر لها.

ولكن من ذا الذي باستطاعته الصعود إلى الباص وترك صباح رام الله خلفه، أرض فلسطين خلفه، الناس الذين أحبهم خلفه..

عدد المودعين ازداد، صار أكثر من عدد المسافرين، كل

واحد منا صار له مودعون، فالأيام الأحد عشر كانت كافية لعقد صداقات وعلاقات حب، إذ بدا الكثير من الصبايا والشباب وماشابه ذلك أن للحب في فلسطين معنىً خاصاً، إذ كل شيء في فلسطين يأخذ معنى الأشياء، الأرض، الصداقة، الحب.

كم كان بودي أن أعود إلى طولكرم لألقي على بيوتنا في طولكرم وذنابة وشوفة وكفر اللبد التحية، تحية الوداع وأقول لها: إلى اللقاء سنلتقي بكل تأكيد وثقة، أتخيل الأبواب الخشبية الآن وقد مسها شيء من الحزن.

أشرد وأستعيد الأماكن، وبي رغبة في البقاء لا تصدق، أسال إسماعيل تلاوي:ماذا لو أني بقيت؟ هل أستطيع أن أبقى ثم أدعو زوجتي وأولادي إلى هنا؟

يبتسم بسمة حسرة وحزن ويقول: تستطيع أن تبقى ولكن الأمر محفوف بالمخاطر، أما عائلتك فالأمر مستحيل.

أزرع الخطى جيئة وذهاباً حول الباص.

المشهد جد مؤثر: لم أشاهد حالاً في حياتي كهذه الحال. الشباب يجهشون بالبكاء، وعناق الشباب والصبايا تجاوز الحدود وتحرر من العيون المندهشة.

لم يعد الشباب يكترثون بأحد: الدموع تلون العيون باللون الأحمر، بلون الدم، وكلما هم أحد بالصعود إلى الباص عاد

أدراجه وراح يحتضن مودعيه.

أودع أنا الآخر والعبرة تجول في عيني وأصعد ويصعدون وتبدأ التلويحات الغاضبة والحزينة والمتمردة.

لم يصعد أحدٌ هذه المرة ليحذرنا من إغضاب العدو، لأننا راحلون. يتحرك الباص في طريقه إلى أريحا. صمت، والاعتراف بحقيقة المغادرة رهيب، تأمل، فقدان، كل ما هو على جانبي الطريق يلوح لك بالوداع.

لا أغاني راحت تصدح كما لحظة الذهاب، أو لحظة الخروج من معبر أريحا. ألتفت إلى يميني وشمالي وإلى الخلف وأنظر إلى الأمام الكل شارد ينظر إلى التلال والجبال والقرى الخضراء وإلى الندب القبيحة على وجه فلسطين: المستعمرات.

لم يخالجني إحساس بالزمن، فالطريق لم يعد يعنيني ما إذا كان طويلاً أو قصيراً في الذهاب كنا نتعجل الوصول، وفي الإياب فقدنا الشعور بالوقت.

ها أنا مرة أخرى في أريحا، محال أريحا وسوقها تعج بالحياة، الباعة والشارون والحمالون والأصوات، إنه الشرق الذي لوثته أقدام الغزاة، أنا لا أرى في أريحا إلا أسواق الشام وعمان والقاهرة وحماة وحمص وصيدا والزرقاء وفاس–هنا.

لكن لأريحا مكانة أخرى بحكم جرحها، فلسطين مأساة

وجودية كبرى، أريحا مدينة المعبر الذي يتحكم به الغزاة.

أفكر بهذا الوصف– الكلمة «المعبر» بعد الرحلة والنوم في أحضان فلسطين، فأكتشف أنها تسمية أيديولوجية–خبيثة.

فالمعبر مكان للعبور فقط، تواضع الناس على أن يجعلوا من المعبر مكاناً مؤقتاً، والعابر – هو اسم الفاعل – هو الذي ينتقل من مكان للعبور إلى آخر والعابر هو المؤقت، المعبر يشير إلى العابرين، والعابر المؤقت.

ترى هل أريحا معبر للعابرين، أريحا الوطن معبر الوطن الأصلي الوحيد لنا يصير في أيديولوجيا الاحتلال مكاناً للعبور، أتينا من معبر أريحا ونخرج من معبر أريحا، العابرون « العبرانيون» يقيمون والفلسطينيون يعبرون.

أود لو أن كل فلسطيني يتذكر محمود درويش ويردد دائماً:

أيها المارون بين الكلمات العابرة

كدسوا أوهامكم في حفرة مهجورة، وانصرفوا

أيها المارون بين الكلمات العابرة

آن أن تنصرفوا

وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا

آن أن تنصرفوا

ولتموتوا أينما شئتم ولكن لا تموتوا بيننا

فاخرجوا من أرضنا

من برنا.. من بحرنا

من قمحنا.. من ملحنا.. من جرحنا

من كل شيء، واخرجوا من ذكريات الذاكرة

أيها المارون بين الكلمات العابرة !

يسير الباص، ويتجاوز المدينة التي تفتخر بأنها مدينة الحب، مدينة الجبارين نحو أرضها المليئة بالحراس والقتلة.

يتوقف الباصان في مكان قبل الحدود بين شرق الأردن وفلسطين حيث تنزل الحقائب إلى شاحنة متخصصة بنقلها، كي يصار إلى تفتيشها بدقة على ما يبدو.

نصعد الباص بلا حقائب، عدد من المودعين الذين آثروا البقاء معنا يودعون بالبكاء والقبل، سيدة في منتصف العمر تلبس حجاباً لم تستطع أن تتمالك نفسها فراحت تبكي وتقبل «الراحلين».

إنها قُبل الحنان والحزن والغضب، قبل الوداع هذه تدحض أيديولوجيا الزنا والحرام.

ندخل أرض المعبر المدخل إلى شرق الأردن، ننتبه إلى بعض جنود العدو على مقربة من دشم مبنية على رؤوسهم تلال.

علم العدو مرفوع عليها، علم العدو المعبّر عن الزيف المطلق كما هو الكيان نفسه، يعبر عن الاحتلال بكل قبحه.

علم يشير إلى ضفتي نهر الأردن، نهر الأردن الذي تعمد فيه المسيح، والذي يسميه أهل البلد «الشريعة» صديق الفلاحين في جنوب سوريا، صديق أشجار الرمان هذا النهر نبع الإنسان الأول.

يتحول إلى رمز في علم يشير إلى النزوع الاحتلالي الإجلائي. النجمة السداسية – نجمة الشرق الآرامي– العربي تتحول إلى رمز ملكية صهيونية.

كل ما في العلم اليهودي– الصهيوني مسروق كما الوطن..

نصل البوابات، حقائبنا مرمية كيفما اتفق على الأرض، كل منا يفتش عن حقيبته، وندخل مكان إجراءات الخروج. كان المشهد مضحكاً مبكياً معاً، فالكوميديا تختلط بالتراجيديا لتشكل دراما الخروج بكل سخريتها.

أي مشهد مضحك، ذلك الذي تم بالنسبة إلى الأطفال، تحدق الجالسة خلف الزجاج في جواز السفر، وتنظر كي ترى صاحبه لكنها لاتستطيع ذلك، لأن صاحب الجواز أو صاحبته طفل صغير أو طفلة صغيرة، لاتزيد أعمارهم عن عشر سنوات أو أكثر بقليل أو أقل.

كان أحد الشباب يحمل الطفل أو الطفلة إلى الأعلى لتتأكد الموظفة من أن الطفلة هي هي أو الطفل هو هو الذي في الصورة.

لم ترتسم على وجه الموظفة أية علائم لدى رؤية الأطفال، إنها تعمل بوصفها آلة عنصرية فقط.

من أطرف الأمور وأكثرها تعبيراً ما جرى مع الطفلة «س» لم أعد أذكر اسمها.

إنها جالسة وحدها على مقعد خشبي خارج الواقفين بالدور، تلبس «شورتاً» وبلوزاً، وتلهو برجليها المرتفعتين عن الأرض لصغر سنها.

اقتربت منها متسائلاً: شو يا عمو مالك، أشارت بحركات من قسمات وجهها «أن لا أدري».

سألت مسؤولة الفرقة لماذا هذه الطفلة جالسة وحدها بعيداً عن الآخرين- حيث يبدو الجلوس نوعاً من العزل.

- لا ندري.. كلما مرت من جهاز العبور رن جرس الجهاز ليشير إلى شيء معدني.

ولا ندري ما العمل ونحن بانتظار شخص آتٍ لتفتيشها، طفلة بكل معنى الكلمة تزرع الخوف في نفوس العاملين في الحدود، ما الذي يمكن أن تخفيه هذه الطفلة.

ثم جاءت المفتشة وتبين أن الطفلة قد احتفظت بالمفتاح المغناطيسي لغرفتها في الفندق مع زميلاتها- وهو عبارة عن كرت ممغنط، رغبة منها في أن تحتفظ بذكرى من فلسطين.

وفي الوقت الذي استغرق الدخول إلى فلسطين عبر المعبر عشر ساعات تقريباً لم يستغرق الخروج أكثر من الوقت الضروري للخطى.

ها نحن مرة أخرى خارج فلسطين، إنها رحلة رحيل جديد مثقلة بالهم والحزن.

عدت إلى دمشق عشقي المطلق، لكني أعترف بأمر عشته ولم أكن أشعر به قبل ذهابي إلى فلسطين.

لأول مرة أشعر بأن العيش داخل فلسطين- هو العيش داخل وطن، لأول مرة أعرف ماذا يعني الامتلاء بالمكان وطناً للعيش.

لم يكن الاحتلال بقادرٍ على أن يمنعني من هذا الشعور.. أجل أنا في وطن محتل ومسروق وكل ما يمكن أن يقال لكنه وطني وليس وطن الآخرين.

كنت وأنا أنتقل من رام الله إلى طولكرم من طوباس إلى ذنابة من نابلس إلى شوفة، من دير غساني إلى بيرزيت.. أعيش تجربة الحضور المطلق في المكان كل هذا الوطن لي، والعدو عابر جداً.

لم يكن المحتل ليعني لي إلا شيئاً واحداً: أن هناك لصاً سرقني ويحمل سلاحاً ضدي وأن هناك مجموعة من المجرمين يساعدون على الاحتفاظ بما سرق، وأنه لا محال راحل عن وطني.

لأول مرة أشعر وأنا أشارك في اعتصام بلعين أني على أرض صلبة وهي محتلة.

كنت ممتلئاً دائماً بفلسطينيتي بوصفي مولوداً من رحم النكبة وبوصفها- أي فلسطين-قضية لاتسمح لي أبداً بأن أعيش خارج حلم العودة، لكني الآن وقد عشت تجربة الحضور فيها لم أعد قادراً على تخيل الابتعاد عنها.

ودمشق لم تغضب مني يوماً بسبب فلسطينيتي، بل على الضد من ذلك كلما أعلنتها أمامها أحبتني أكثر.

بيتي الذي أملك في حيّ المزة فقد المسكين قيمة امتلاكه. بل أحسست أكثر أنه بيت عابر جداً.

إنها تجربة الحب، حب الأماكن والأشياء والناس وتجربة الأمل والحلم.

هرعت إليك بلا حنين
وما في عنقي عقد من الذكريات
على ثراك المقدس
لا أنت مرابع طفولتي ،

ولا شجرك شهد على تأوهات عشقي
ولا دروبك درب لمدرستي
لكنك كنت أنت أنت جرحي
الذي لم يندمل
غارق في هواكِ
وصرتِ وشماً على روحي
وبوحاً لا يمل من الكلام.
ولدتُ من رحم أم ماتت حنيناً إليك،
يا سارق الرحم الأول،
هنا لغتي.. بيتي، حلمي
أيها المولود من رحم الموت والعتمة
ارحل كما جئت في الليل
وخذ كل هذا الليل معك
ليس لي على هذه الأرض
إلا هذه الأرض.
جاءني من الجليل
ليرسمني على حجر
ليطبعني على صخرة من الصوان
وعلى بوابة يافا

وعند المنارة أودعها
كي تشهد الريح: أني مررت من هنا.
أنا أحمد الفلسطيني
من سلالة سكان القلاع،
وشم على حجرٍ
أغنية على وترٍ
ودم مراق ضد الغزاة
واسم في قصائد درويش
وروح على قمم عيبال.
أنا أحمد الفلسطيني
يا قاتل النور
اقرأني كما شئت
احفر خلف السطور ما استطعت
احفر ما شئت من القبور
فإنك أنى اتجهت لن تجد إلاي
على وجه الأفق
وفوق الريح.
أيها الخائف من خطاي
ونور عيني

لاتواري وجهك خلف الجدار
الذي يختبئ خلف جدار
فعيناي تترصدان العتمة
وبيدي سناء الشمس.
أيها المختبئ داخل الأوكار
سترحل.. متأبطاً سفر الخروج
ممزقاً يأكله الغبار.

المحتويات

تقديم	٧
تداعي	٩
الرؤيا	٣٥
من مخيم اليرموك إلى رام الله	٤٩
رام الله	٧٦
الرحلة إلى طوباس وعناق ذنابة	٩١
الطريق إلى ذنابة	١٠٠
إلى دير استيا وسلفيت	١١٦
إلى شوفة	١٣٠
عند ضريحين- «أبو عمار ومحمود درويش»	١٤٩
مع النخبة في مركز حقوق الإنسان	١٧٥
بين أحضان مدينة شعب الجبارين	١٨٥
من جامعة بيزيت إلى دير سودان	٢١٠
إلى بيت لحم - مهد الفادي	٢٢٤
العدو	٢٤١
المستعمرة - المستوطنة	٢٤٧
السلطة الغرائبية	٢٦٢
الفلسطيني والوداع	٢٦٦

كتاب «دبي الثقافية»

سلسلة دورية تصدر عن

مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبّئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

د. أحمد برقاوي

ها نحن ذا في «دبي الثقافية»، نقدم لكم هذا الإصدار للكاتب والناقد الدكتور أحمد برقاوي، واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد.

سيف المري

١٤٦

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع